د. عائِد مُحمَّد بنْ حَرْب

# الحَقيْقِيُّ والتارِيْخِيُّ في الإسْلام

## الدِيانات المَذهَبيّةُ والتدميرُ الذاتيُّ للإسلامِ والعرَب



# الحقيقيّ والتاريخيّ
# في الإسلام




**الأهليّة للنشر والتوزيع**

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

**الحقيقيّ والتاريخيّ في الإسلام**
( الديانات المذهبيّة والتدمير الذاتيّ للإسلام والعرب )
د. عائد محمّد بن حرب / العراق

**الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠**
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف :زهير أبو شايب / الأردن

الصفّ الضوئي :
**ياقوت ، عمّان ، هاتف ٤٦٤١١٨٣**

د. عائِد مُحمَّد بنْ حَرْب

# الحَقيْقيُّ والتاريْخيُّ في الإسْلام

## الدِياناتُ المذَهَبيَّةُ والتدميرُ الذاتيُّ للإسلامِ والعَرَب

دراسة نقدية للديانات المذهبية وتأثيرها التاريخي

على الإسلام والعرب



# الفهـــرس

# مقدمة نظرية لتاريخ ديني مضطرب

عمّ يتساءل الإنسان العربي في دينه وتاريخه ؟ وما هو معنى الدين والتاريخ بالنسبة لحياة الإنسان العربي وتاريخه اليوم ؟ لقد تعاقبت الأزمان ولم تسجل الحياة العربية سوى تراجعاً، ليس على الصعيد الاجتماعي فقط، بل على صعيد الحياة الدينية. في عصرنا الراهن تعيش الأقوام المسلمة أزمة وفوضى تعكس في طياتها كل التناقضات التاريخية، القديم منها والحديث، على جميع الأصعدة والمستويات العقائدية والفكرية والأخلاقية و السياسية والاقتصادية...إلخ.

هناك دعوى قوية تسيطر على حياة طائفة كبيرة من الناس مفادها العودة إلى الإسلام. إن هذه الدعوة تجد لها صدأً في جميع الربوع الإسلامية، مولدة إحساساً كاذباً لدى العوام و الخواص بأن الإسلام هو الحل، هو الخلاص من الأزمة التي تعصف بهذه البلدان. لكن عندما يسأل الإنسان أولي الأمر عن طبيعة الحل ومقوماته لا يجد عندهم جواباً ولا حلاً للمشكلات التي يدعون أنهم قادرون على حلها. إن كل ما يعملونه ليس إلا انفعالات سلبية ضد واقع تاريخي لا يفهمونه ولا يقوون على المشاركة فيه لأنه صناعة غربية خلقته القوى الحضارية الغربية. إن أمراً بسيطاً لا تستطيع أن تفهمه، لا الحركات ولا الأنظمة السياسية القائمة، والذي يُرد إلى الهوة الحضارية العميقة التي تفصلهم عن هذا العالم، أين تكمن هذه الصعوبة في فهم هذا العالم وتاريخه ؟ الجواب على هذا السؤال ذو وجوه شتى، أولها التواصل التاريخي للحضارة في شعب، بمعنى أن الحضارة المعينة (الغربية مثلاً) امتلكت ماضياً وحاضراً سيتواصل في المستقبل ممثلة

في شعوبها المختلفة. إن الحضارة الغربية امتلكت تاريخاً متواصلاً قديماً، وسيطاً، و معاصراً، وهو مالا تعرفه الأقوام الإسلامية. إن هذه الحقيقة التي يجهلها الناس ذات مغزى كبير لفهم التاريخ والحضارات، التي تكشف في الوقت ذاته عن أن العقل، الذي هو روح واعية بذاتها ، تاريخي، و التاريخ عقلي. فالتاريخ هو تاريخ الروح، وتاريخ شعب هو تاريخ روح هذا الشعب؛ الروح تتفتح وتتكشف في التاريخ الكوني كقيم وأعراف وعلوم وفنون وآداب واقتصاد وتأملات كونية...إلخ.

من هنا يظهر أن الدعوة الإسلامية دعوة عقيمة و فارغة لأنها تمتلك تاريخها الخاص. إلا أن بعض الحركات الدينية المعاصرة تحاول أن تنسب لنفسها تاريخياً وهمياً لا تعرفه ولم تشارك فيه ألا وهو تاريخ الدعوة النبوية والصحابة معتقدة أنها بعملها هذا تكسب شرعية تاريخية على أنها تواصل واستمرارية للروح الدينية الإسلامية؛ وهي بعملها هذا تمنح نفسها محتوى غريباً لا يمكنها أن تعمل به لأنها لا تفهمه. إن الناس، أو الشعوب، أو الحضارات لا تفهم إلا الأشياء التي صنعتها بأنفسها.

إن أغلب الحركات والقوى التي تنسب نفسها صورياً إلى الإسلام ما هي إلا حركات قومية متخلفة تحمل في بنيتها جميع القيم و الأعراف والتناقضات التي لا تنتسب إلى الإسلام، بل إنها نتاج تناقضات البيئة المحلية. لهذا نرى الصعوبة في تفاهم هذه القوى و الحركات فيما بينها على الرغم من أ نها جميعاً تدعي الولاء للإسلام، وأنها تمثل السيرة النبوية وسيرة الصحابة. إن القوى الدينية تدعي أنها تريد إعادة بناء مجتمعاتها طبقاً للقرآن والسّنة النبوية. لو يسأل المرء هؤلاء القوم، هل عرفتم السّنة النبوية، وهل عشتم حياتكم أو بعضها طبقاً لهذه الشريعة يوماً ؟ كيف يستطيع الإنسان أن يعمل و يعيش وفق قيم وأعراف ليست نابعة من ذاته ولا

هي من تاريخه؛ ماذا سيطبق إذن ؟ إن من تناقضات الأمور أن القوى الداعية للعودة إلى قيم القوانين التشريعية والتنفيذية في بلدان الشمال الأفريقي (المغرب العربي) سنّها الفرنسيون لهم، وهذا يعني أنهم يعيشون طبقاً لقوانين و قيم وضعية و مسيحية منذ عدة عقود من الزمان. إن هذه التشريعات خلقت فوضى اجتماعية ونفسية كبيرة في هذه البلدان، وهكذا الحال أيضاً في البلدان الأخرى. وعلى الرغم من أن هذه الأقوام تعيش منذ فترة طويلة تحت هيمنة هذه القيم والقوانين فإن الناس ظلوا منفصلين في أنماط حياتهم وأساليب تعاملهم مع محتويات التشريعات الغربية. فيم تكمن الصعوبة ؟ هل أن الناس هناك يعارضون هذه القوانين ويرفضون العمل بها ؟ الجواب كلا، إنها بعيدة عن تكويناتهم النفسية وأوضاعهم الاجتماعية. لهذا لم تصبح علاقة الفرد ولا حتى النظام السياسي القائم بالقانون تشبه، ولا إلى أي حد، علاقة الفرنسي بالقانون. إن هذا كله يعاش على صعيد الحياة النفسية. وهذا يدل على الأفراد والمجتمعات لا يمكن أن يعيشوا وفق قيم وتشريعات غريبة لم تنبثق عن واقع حياتهم. إن هذا يخص الحياة الثقافية والاجتماعية وكذلك الحياة الدينية. وإن أزمة العلاقات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية تأخذ أحياناً بعداً دينياً على أساس أن العودة إلى الدين هي عودة إلى الذات بعد اغترابها، أي العودة إلى الشرع الإلهي على اعتبار أنه القيمة الحضارية الوحيدة الممكنة في هذا العالم. السؤال الذي يمكن أن يطرح هو: هل يكفي أن يسمي الإنسان نفسه مسلماً وتصير بذلك تصوراته وقيمه المحلية تجسيداً للأفكار القيمة المعنى الإسلامية ؟ إذا كان الأمر هكذا ببساطة، لمَ لم تستطع هذه الأقوام التكيّف مع التشريعات التي شرعها الأجنبي لهم. إن هذا يصدق على الإسلام أيضاً. كيف يمكن للمسلمين أن يعيشوا، وأن يعملوا طبقاً لقيم وأعراف غريبة لا صلة لها بقيمهم وأعرافهم ؟ إن المرحلة الطويلة من

« التاريخ الإسلامي » قد بينت أن العمل بالأفكار القيمة المعنى الإسلامية غير ممكن خارج إطار البيئة العربية. وهذا هو السبب الذي يؤدي دائماً إلى العنف والفوضى كلما حاولت قوة من خارج البيئة العربية أن تجعل، كما تظن، من الإسلام سلطة عليا وشرعاً للبلاد.

إن الإسلام يظهر في حياة هذه الأقوام كمشكلة من الصعب حلها أو التعامل معها، ذلك لأن بعضهم ينظر إلى الإسلام على أنه ديانة مثالية، وبعضهم الآخر يرى أن المسلمين اليوم ليسوا كما كان الصحابة من قبل، الذين يرون فيهم جيلاً خاصاً لن يتكرر بعد الآن، وبعضهم الآخر يدعي أن الإسلام مثّل ظاهرةً تاريخيةً من الصعب التعامل معها في زماننا هذا. أما الدراسات الغربية فإنها عقيمة، لا لأنها سطحية وتكرار ونقل عن المصادر والكتب التي كُتبت في العصر الوسيط العباسي التي يتعاملون معها وكأنها الإسلام ذاته، ولا لجهلهم بحقيقة الإسلام بسبب ضعف معرفتهم للغة العربية، بل لأن أصحابها ينظرون إلى الإسلام كظاهرة فكرية تاريخية مجردة، وينكرون بذلك النبوة وأصالة الديانة الإسلامية على أساس أنها تقليد ونسخ روحي فقير للمبادئ و الأفكار اليهودية و المسيحية اللتين ينكرون قدسيتهما(*) .إن ما يُعمل به اليوم ليس الإسلام، بل لاهوت دين باسم الإسلام كتبته وشرعت له الموالي، وهذا هو السبب في ضعف الإسلام وتدهور الحياة الدينية و الأخلاقية في الربوع « الإسلامية ». إن مصدر هذا الانحطاط يعود إلى تدمير القيم والأعراف التي نشأ وقام عليها الإسلام. الديانة، أو نظام الدولة يمكن أن « تحفظ عن طريق الاحتفاظ بالوسائل التي

(*) كل هذه دعاوى باطلة حيث أن لا شيء في الإسلام لم تعرفه ولم تمارسه العرب على نحو ما في الجاهلية. المشكلة ليست في الإسلام بل بحامله، ولسبب بسيط وهو أن الغريب من الصعب عليه أن يجد نفسه، وأن تتطابق صورة الذهنية مع صور وقيم الدين، أو الثقافة الغربية عنه.

أوجدتها » الإسلام في مثالنا الحالي ما هو إلا تقنين وتنظيم لوقائع الحياة العربية البدوية آنذاك. لكي يكون للإسلام معنى يجب أن يحافظ على الشعب والأعراق التي قام عليها. وتنجم عن ذلك ضرورة الاحتفاظ بالعرق العربي وأعرافه، لأنه باختفاء العرق العربي يعني موت القيم والأعراف التي قام عليها الإسلام. ومن هذا نخلص إلى أن الإسلام ظاهرة نفسية في الإنسان العربي. لقد شيّع الموالي والغرباء بأن الإسلام دين لجميع البشر يتساوى فيه العربي والغريب لأن القضية الأساسية تنحصر في الإيمان بالله، وأنه نزل إلى جميع البشر و ليس لإنسان أو شعب معين. نعم هذا صحيح، إن بإمكان أي إنسان أن يؤمن بالإسلام أو سواه، لكن الأمر هنا لا يتعلق بالإيمان بالله وإنما في فهم وتطبيق شعائر وقيم الدين الإسلامي. إن القيم والأعراف والطقوس التي تكلم عنها القرآن في صلبها مواريث عربية، وهي من ثم نتاج النفس العربية السامية في تارخيتها. إن الوقائع الأحادية التاريخية وما يرتبط بها من قيم وأعراف نتاج النفس، لذا من الصعب على النفس أن تهضم الوقائع التاريخية الغريبة عنها بقيمها وأعرافها. ولكي يكون للدين معنى وقيمة ودلالة في الحياة يجب أن يكون « عرف شعب »، بمعنى أن الدين يجب أن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الشعب، وهذا الارتباط يخدم « من أجل أخلاقية الموضوع الديني ». إنطلاقاً من هذا المعنى فإن الدين يسعى إلى بناء الحياة الأخلاقية و الفضيلة للشعب. والسؤال هو هل يمكن أن تُعلم الفضيلة والأخلاق ؟ الجواب كلا. إن الأخلاق والفضائل لا يمكن تعلمها من الكتب والمواعظ والحكايات الدينية بل هي نتاج النفس في حدود فاعليتها التاريخية. لذا عندما يتكلم الأعاجم عن الإسلام لا يريدون بذلك الحديث عن الإسلام التاريخي، بل إنهم خلقوا صورهم الدينية التاريخية الخاصة بهم والتي ترتبط بوقائع حياتهم الخاصة التي تمنح في هذا الحالة صورة إسلاميةً. مالذي يحدث في مثل هذه الحالة ؟ إن ما يحدث هو تجريد الأفكار القيمة المعنى

الإسـلامـيـة، وهذا يعنـي قـتل الروح فـيـهـا وصـعـوبة العـمل بـهـا لأن الأفكار المجـردة لا يمكن أن تصـدر عنهـا سـوى أفكار مـجـردة وليس الواقـع وقـيـمـه. ويفضي ذلك إلى أن التجريد يميت الأفكار القيمة المعنى الإسلامية.

إن الأفكار القـيـمـة المعنى الإسـلامـيـة تحـمل في طيـاتهـا جـمـيع مـظاهر الحياة النفسية والاجتماعية للعرب، أي أنها تعكس في ذاتها الحياة العامة بكل تناقضاتها. لذا تكون مفـهومـة في مباشرتها وبساطتها من لدن الشـعب الذي أنشأها وطورت في تاريخه، أما الغريب فلا يرى فيها إلاّ أفكاراً مجردة من الصـعب العـمل بهـا واسـتـيـعـابها كمـا هي لدى الشـعب الذي أنتـجـهـا. الإنسـان يفـهم الأشـيـاء التي صنعـها بنفسـه لأنها نتاج فـاعليتـه النفسية، أي أنها تكّون محتوى النفس، من حيثيات النفس. إن تاريخ شعب هو تاريخ روح هذا الشعب، ومواطن هذا الشعب هو الذي يحمل في نفسه هذا التاريخ الذي يصل إلى وعيه كتاريخ قيم وأفكار وأعراف وتقاليد يحصل عليها من الأسرة والبيئة والتربية، أي أن تطبع في نفسه مـعالم حياة أمته التي يحصل عليها في الطفـولة كـانطبـاعـات تطبـع من ثم حـيـاته الخـاصـة النـاضـجـة بطابعـهـا الخـاص. لقد فهـم العرب هـذا الأمر قديماً قبل الإسـلام حين قـالوا « من شب على شيء شاب عليه »، بمعنى أن طفولة الإنسان ونشـأته هي العامل الحاسم في تكوين شخصيته في المستقبل. إن تاريخ الطفولة والنشـأة يعمل كبرنامج في الإنسـان، لذا يمكننا القول إن الإنسان مبرمج. إن اكتساب معارف وقيم جديدة ليس أكثر من إثراء لمحتوى البرنامج وليس إلغاء له، ومعنى ذلك أن الغريب لن يكون بمقدوره أن يكتشف الماهية الحقيقية لنفس غريبة؛ كل ما يحـاول أن يعـمله الشـخص هو أنه يقـيس القـيم والأعـراف بمقـيـاس قـيـمـه وأعرافه، وبهذا يختزل القيم والأعراف الغريبة إلى مفاهيم وأفكار مجردة، وبعمله هذا يقتل الروح. لذلك عندمـا هيمنت تصـورات الموالي والغـرباء على الإسلام في العصر العباسي كان هذا قد سجّل وأرخ لاندحار الإسلام

عقائدياً وفكرياً. لقد صار الوعي يتطلع إلى حماية الغرباء، يقتل الإحساس الفردية المستقلة. عدا عن ذلك عشعشت في بلاط الملوك العباسيين القيم والأعراف المجوسية أكثر فأكثر. لقد لعبت النساء دوراً كبيراً إذ إن العرب ملوكاً ورعية يتزوجون من نساء الغرباء، سواء الموجود منهن في البيئة العربية أو اللواتي يؤتى بهن كغنائم حرب أو أمات للبيع. النساء خلقن مجالاً رحباً للأعراف الغريبة في ربوع العرب أكثر فأكثر. لقد تأصلت في البيئة العربية الطقوس المجوسية وبعض القيم و القوانين الرومانية التي عرفتها مستعمراتهم في الشام ومصر والشمال الأفريقي و تركيا التي أُلبست رداءً إسلامياً في العاصمة بغداد، وطمست ما مارسه مفهوم اللّه العربي من قوة وإثارة في الانتعاش القومي. « إن انهيار القوميات يبدأ هناك حيث أنها بدلاً من أن تطور العناصر الموجودة في فرديتها الخاصة تسجل تنازلاً سافراً للخاصية البدائية والقوى عندما يترك تأثير الغريب الجذاب عليها بلا مقاومة »(*).

لقد أصبح الإسلام لهذا السبب أداة واقعية ومظهراً للتخلف والانحطاط، أي أن الإسلام الذي شرعه الموالي قهر الإسلام العربي و أزاحه من جميع الميادين الحياتية. إن هذا الإسلام الجديد ادعى التزامه بالقرآن والسنة

---

(*) إن البعثات التبشيرية المسيحية يقوم بها و يشرف على إدارة الكنائس و الدين الرجل الأوروبي الذي ترسله الكنيسة خصيصاً لهذه المهمة، ومن الصعب تصور إناطة هذه الشؤون إلى أهل هذه البلاد لأنه مالذي سيبقى من الكاثوليكية أو البروتستانية عندما يبدأ الأفريقي أو الآسيوي أو سواه في التشريع لهذه الأديان التي لا يعرف تاريخها ولا أصولها الدينية. لو أراد ذلك فإنه سينشئ له ديناً جديداً باسم الكاثوليكية أو البروتستانية التي لا تمت بصلة إلى الديانات الأم. الكنائس الغربية تعرف ذلك ولذا ترى رجالها يشرفون على الشؤون الدينية بأنفسهم لدى الأقوام غير الأوروبية، وهو نقيض ما حدث في الإسلام حيث يكفي للشخص أياً كان، أن يؤلف الكتب وينشر أوهاماً وخرافات استقاها من تاريخ قومه و أعرافهم ويقدمها على أنها الإسلام.

ورفض كل بدعة وتصور غريب، في حين أنه يقوم على تصورات وقيم غريبة. مع بداية ما يسمى بعصر التدوين ابتدأت مرحلة جديدة في حياة الإسلام والعرب. لقد ضاع الإسلام العربي وبدأ الكلام عن الإسلام المذهبي الذي شرعه في أول الأمر، من مناطق ايران، أبو حنيفه الذي يعتبر المعلم الأول لجميع المذاهب الأخرى. لم تعد الناس تفهم شيئاً من الدين والأحكام الدينية، إذ تحكم أفراد شتى من نفس المذهب بقضية ليست مختلفة فقط بل ومتناقضة، والكل يدعي العمل بالقرآن والسنة. لقد أنجز أبو حنيفة مذهباً وهمياً باسم الإسلام يقوم على مبادئ متناقضة، ولا تنتمي إلى مصدر واحد، فحسب تصوره لكي يكون الحكم الشرعي إسلامياً صحيحاً يجب أن تتبع القواعد الآتية: القرآن، السنة، الاستحسان، والقياس، في حين قام الإسلام على قيم و أعراف صارمة ودقيقة لدى العرب. القرآن لم يفعل أكثر من صقل وتهذيب وتنظيم الإيجابي من هذه القيم والأعراف العربية التي صارت شرعاً دينياً، أي أن عرف الشعب الديني المفهوم صار نظاماً إلهياً. القرآن والسنة النبوية ما هما إلا تجسيد لوقائع حياة العرب ذات الموروث السامي الذي لا تعرفه الموالي والغرباء. وبعد أبي حنيفة يأتي تلميذه ابن مالك ليأخذ هذا المذهب ويدخل عليه بعض التعديلات فيستبدل الاستحسان بالإجماع. وقد فهمه على أنه إجماع أهل المدينة، على أساس أنها مدينة الرسول (ص) والصحابة. ولكن الكثيرين أنكروا عليه هذا الأمر لأن العديد من الصحابة يعيشون في مكة والأمصار، ولم يفهموا لم يجب أن يحصر الإجماع بأهل المدينة وحدهم. وقد تعلم على يدي هذا الأخير رجل من منطقة غزة هو الشافعي (واضع أصول فقه أهل السنة) الذي أنكر فقهه الذي عمل به في العراق بعد أن دخل مصر قبل وفاته بأربعة أعوام في رسالة منه إلى أحمد بن حنبل. وعمل الشافعي بعد ذلك بفقه ابن منظور المصري، الذي شرع على ما يبدو فقهاً رأى فيه الشافعي أكثر تطوراً وأغنى محتوى من فقهه. إن ابن

منظور يعرف، في أغلب الظن، القوانين والشرائع الرومانية التي كانت وما زالت فاعلة في مصر، والتي اعتمدها في تشريعاته، فاكتسب بذلك صورة إسلامية، أي أن القوانين الرومانية أصبحت قوانين إسلامية. هذا هو الإسلام الذي تدعو له أقوام الجهالة والتخلف الإسلامية.

من أجل معرفة حقيقة ما جرى للإسلام و للعرب لا بد من نظرة نقدية لتاريخ العقائد التي ظهرت و تكونت باسم الإسلام، و التي كانت **تدميراً ذاتياً للإسلام وللروح العربية.** لنطلع في البداية على مظاهر هذا التدمير الذاتي. لقد عاش العرب منذ ظهور الإسلام وحتى هذه الساعة اغتراباً ثقافياً و تعرضوا في الوقت ذاته إلى اضطهاد كبير، وعانوا من صراعات حادة من أجل إقرار وجودهم وإرساء دعائم صحيحة للإسلام في أزمان وعصور سادها الفساد والانحلال، وتحملوا بذلك وزر هذه الحالة المأساوية. لهذا لم يعرف العرب استقراراً منذ موت الرسول (ص) وحتى هذه الساعة. إن هذه القضية ذات أبعاد قاتلة في عالم اليوم لأننا أمام منعطف تاريخي، وإن لم يكن العرب صانعيه، إلا أنه مع ذلك قد يؤدي إلى هلاك العرب، وموت الإسلام بشكل نهائي إذا لم يتدارك العرب ويعدون أنفسهم من أجل الوقوف بوجه التحديات الجديدة.

إننا عندما نتكلم اليوم عن الإسلام لا نعني بذلك الوحي، وإنما الصور الدينية التاريخية التي نشأت في مرحلة معينة من تطور العلاقات الدينية عكست واقع المجتمع الممزق؛ لقد صدرت هذه الأفكار والتصورات الدينية عن الموالي الذين لا اهتمام ولا مصلحة لهم في معرفة حقيقة الدين الإسلامي، ناهيك عن صلة الدين بالعرب. إن الحركات المذهبية كانت في صلبها دعاوى شعوبية غرضها الانتقاص من الإسلام والعرب.

إن هذا الوضع البائس للدين خلق علاقات وظواهر ذات طبيعة سلبية

على أنه عديم الشأن وغير مهم في حياة الشعب. وأظهرت المذاهب والاتجاهات الدينية عبر تاريخها باسم الإسلام وحشية وإجراماً في تعاملها مع الناس ومعتقداتهم. لقد صارت المذاهب الدينية التي سنها الموالي والغرباء في الوقت ذاته عقيدة الأنظمة الحاكمة. وأصبح من السهل عليها أن تتهم أي مذهب وأي عقيدة بالكفر والزندقة، وجواز قتل الكافر بالطبع. لقد مارست أنظمة وحكومات القتل والإرهاب تحت دعوى محاربة الكفر والزندقة. وأظهرت المذاهب والأنظمة السياسية المرتبطة بها فظاظة وخشونة واستبداداً أبعد ما يكون عن روح الدين، ولا تعكس هذه الحالة في النهاية إلاّ همجية هذه التصورات الدينية ولا إنسانية مشرّعيها.

لقد كان الإسلام تربية للعرب، إذ إنه حاول أن يرفعهم إلى مستوى ثقافي واجتماعي حضاري متطور. كان بالإمكان أن يكون الإسلام وسيلة تربوية أساسية في حياة العرب من أجل « تأمل كوني مثالي » لأنه حفظ القيم والأعراف العربية وأسبغ عليها القداسة. عندما يجري تجاهل الدين ثقافياً كوسيلة أساسية فإنه يكون عندئذ عدو الثقافة الخفي، ويشجع من ثم على تنامي هذه النزعة. إن الوضع الذي جعل من الدين في صورة مذاهب موروثة سوف لا تستطيع الديانات المذهبية من خلاله أن تكون حاملة ولا خادمة لثقافة روحية، تلك الثقافة التي تقف الديانات المذهبية في تضاد مع مبادئها الأساسية.

إن وضعاً كهذا يخلق مطالب عاجلة من أجل حل مسائل دينية واجتماعية ، والبدء بالتفكير في المجالات والقضاية التي يقف الدين فيها في انسجام مع روح العصر وأهداف التطور الثقافي، ومن ثم يكون من واجبه تنفيذ التربية المثالية المطلوبة للشعب. لكن مساعي كهذه تنحاز إلى الديانات المذهبية، وستكون مغامرة لا يمكن تحقيقها على أن يبدأ كل شيء من جديد،

ومن البداية، كما أن « الاستمرارية التاريخية » حتمت على الوعي المعاصر أن لا يظهر كبيراً بغية المحافظة على الامتيازات الممنوحة.

والسؤال المطروح مع ذلك بصدد الاستمرارية التاريخية عما إذا كانت في حالتنا هذه ممكنة، أو إذا يجب التوقف عند كل نقطة في التاريخ حيث تجتاز فكرة مهمة جميع أطوار تطورها، ويحكم على أنها لا رجعة فيها لكنها تتراجع لصالح أفكار جديدة، وهذا يعني أن الديانات المذهبية قطعت التواصل التاريخي للروح الدينية الإسلامية مع ماضيها، وصارت أفكاراً وضعية تحمل السمات التاريخية للمشروع ولقومه. إن الديانات المذهبية تحمل معها بعض مكوناتها المهمة في مرحلة تطور جديدة ويكون التراث القديم كمادة مغذية، كسماد من أجل الحياة راسباً مغذياً للاستمرارية التاريخية المتواصلة في الديانات المذهبية، وتبقى محفوظة في أوضاعها رغم انقطاعها عن المبادئ الأساسية للقديم والقبول بما كان موجودا إلى الآن خارج الحياة الدينية.

إن الإصلاحات وجميع مراحل التطور الوافدة داخل دورة التطور، وهي ذاتها دورة التطور التي تنشأ إلى حد ما عن طريق استعمال أفكار جديدة، كذلك تمثل خاتمة دورة تطور قديمة، وبداية دورة مختلفة. وإنما اقتبست الأفكار الجديدة من وقائع الحياة العامة ولم تهبط من السماء. وهكذا يبدو للشخص كما لو أن الحالتين (المبادئ الأصلية والأفكار الجديدة) تتميزان عن بعضهما في التدرج، ويكمن الفارق بينهما في المقياس النسبي للقيم الذي يدعي حق العناصر المحفوظة من « التطور التدريجي » حتى اللحظة الآنية.

يسحب الإنسان تحت وجهة النظر هذه التوازن بين نشأة الديانات المذهبية باسم الإسلام و الإسلام ذاته، نشأة المسيحية من اليهودية؛ إن صورة دينية تنشأ عن أصل لها تنحرف عن الديانة الأم وتخلق لها مقومات

نظرية وأسس اجتماعية خاصة بها.

إن الفارق التدريجي بين الديانة المذهبية و الديانة الأم، لا يستثني الفارق الكيفي؛ فـ « الفوارق التدريجية » التي تتخطى مقياسا معينا تجعل من هذه الفوارق الكيفية ملحوظة (الإنسان على سبيل المثال يفكر بين النفس البشرية والحيوانية الذي يتغير تحت ظروف معينة بالقفزة كيفيا). لذا يمكن إلحاق بذور أفكار جديدة عند فصل العناصر القديمة عن الاستمرارية التاريخية للتطور الذي يكون واضحاً عند تخطي درجة معينة عن طريق القطيعة مع القديم و بداية سيادة الجديد. نطبق هذا على المسار تطور أفكار الديانة المذهبية، لذا يكون السؤال، هل تتكشف عندها الضرورة في الانفصال بقدر ما عن الدين القديم. إن البقية الباقية من الدين الإسلامي صارت واهية، ضعيفة، لا تلهم ولا تحمس كدين، إذا لم يمس الانفصال بالضرورة المركز الأساسي للدين الإسلامي، وأن يفقد الإيمان الرغبة في البقاء وسط بناية معزولة عن قواعدها الثابتة طالما لم يعوض المركز الأساسي المستأصل عن طريق آخر جديد. إن الديانات المذهبية تجعل من الإسلام كدين مشكوكاً فيه وفي قيمه، لأنها تقدم نفسها على أنها التعريفات الجديدة للإسلام، وبما أنها صور دينية معادية لتطور الثقافة عموماً والحديثة بشكل خاص. فإن بعضاً من المهتمين بسعادة البشر خطابياً يريد أن يوضع في مأزق إنساني، وعندما لا يرى من وجهة نظره استبدالاً للدعائم المهدمة عن طريق أخرى جديدة يتهاوى بكل سرور في الخداع. إن الديانات المذهبية مارست الخداع الذاتي بحق الناس، وقد يقول بعضهم إن هذا لا ينقص من الاحترام الشخصي لأصحاب هذه المذاهب لأنهم كانوا صادقي النية في عملهم واجتهادهم، « فإن أخطأوا فلهم أجر وإن أصابوا فلهم أجرين ». كل هذا يقال على أنه سنة نبوية، لأن الإنسان يلاحظ منذ البداية سوء نية هؤلاء تجاه الدين وتجاه

العرب. هناك الدين الإسلامي الأصل وهناك المذاهب الدينية التي نشأت باسمه على أيدٍ أعجمية غريبة ما زالت تسود وتهيمن منذ قرون لا على الحياة الدينية و حدها، بل والاجتماعية أيضاً، واستطاعت خلالها أن توقف نبض الحياة في هذه البيئة ويتحجر الإسلام في أقوال عقيمة فارغة عديمة المعنى على أنها هي المطاليب الإلهية الصحيحة التي استبدلت بها الرسالة المحمدية. لكن الأمانة العلمية تلزم كل واحد منا، أعني العرب، أن لا يكون تحت تأثير الخداع، ، وعليه أن يعترف بعد هذا الردح الطويل من الزمان بضعف وبطلان الديانات المذهبية و تشريعاتها الدينية الواهية والبالية وعدم صلاحها من أجل وعي الزمان النقدي، والاستجابة لمطاليب العصر. يعتقد الكثير بأن التخلي عن المذاهب يعني التنصل عن الدين والتخلي عنه، لأنهم يطابقون بروح جاهلة ومتخلفة بين دياناتهم المذهبية والإسلام. إن الديانات المذهبية اختزلت الإسلام وتاريخه الطويل، التاريخ الذي يمثل الروح الواعية المثقفة والتي زودت جميع الاقوام والشعوب بمصادر الثقافة إلى أقوال فارغة نزعت بها عن الإسلام تاريخيته، أي أنها انتزعت منه روحه وأصبح جثة محنطة كالمومياء. إننا عندما ننظر إلى الإسلام يجب أن تبقى الكلمة النهائية « لا في الحاضر ولا في الماضي، وإنما في التاريخ البدائي[1]، تاريخ الأقوام السامية والذي ارتبط منذ البداية بوحي ديني إلهي. لذا فإن الديانات المذهبية لا يمكن أن تعكس روح هذا الدين ولا يمكنها بأية طريقة أن تدرك الغاية النهائية منه، لأنها جردته من تاريخيته وقتلت فيه الروح. لذا فإن التصورات والأفكار المذهبية لا يمكن أن تعوض عن الأفكار الأصلية لأن الأفكار القيمة المعنى الإسلامية هي روح تاريخية تحمل في جوهرها معان وأعرافاً وتقاليداً وطقوساً ليست وليدة مواعظ ورغبات، وإنما نتاج طبيعي لحركة التطور

(1) Karl Vollers; die Weltreligionen, Velarg Eugen Dietrich in jena; 1921, S. 11

التاريخية لهذه الأمة والتي لا تنفصل عن تاريخ حياتها الدينية. إن الأعاجم والغرباء لا يهمهم من الدين سوى إيمان مجرد بالله وببعض المفاهيم والأفكار المجردة عن الإسلام التي يخضعونها لمعايير حياتهم الثقافية، لذا يكون بالنسبة لهم أمر عديم الأهمية والمعنى السؤال من هو الذي يقدم لهم هذه التصورات والأفكار عن الإسلام. غاية الأمر أن يكون الشخص مسلماً بغض النظر عن أصله ولونه، لأن الإسلام دين الله وان محمداً أرسل للعالم أجمعين. إن هذا يمنح كل شخص، حسب ظنهم، حق التشريع والاجتهاد في الدين، من دون أن يعرفوا أن الدين ظاهرة نفسية للشعب الذي ظهر فيه هذا الدين، أي أن الماهية الحقيقية للدين تكمن في الكيانات النفسية لأفراد هذا الشعب. إن الديانات المذهبية تمثل إخفاق الروح الدينية الإسلامية؛ وإفلاس الروح، ومن غير المعقول بعد هذا التاريخ الطويل أن نتستر على هذا الوضع البائس وأن نماطل في إماطة اللثام عنه، لأن هذا سيعني إفلاسنا النهائي في العملية التاريخية الجارية. إننا عندما نراجع تاريخنا بروح نقدية فإن هذا يعني توحيد الطاقات من أجل عمل موحد و جدي. إن من المهم جداً أن نفكر برأسمالنا في الملكية الدينية المذهبية، وأن نكون على معرفة بكيفية تصريف أوضاع ملكيتنا الحاضرة من ناحية كثروة وهي (الملكية) التي لم يبق منها سوى بقاياها المأساوية، ومن ناحية أخرى كغطاء لحاجاتنا الحياتية الدينية.

## الإنسان في العصر التقني - العلمي

سأحاول الابتعاد بعض الشيء عما بدأت به لأشير إلى الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي نجد أنفسنا عرضة له تحت تأثير الغزو الثقافي الغربي، لأننا طالما امتلكنا تصورات سلبية كانت أو إيجابية بسبب التخلف وجهلنا بذواتنا والعالم المحيط بنا. يريد بعضهم التحرر

والقضاء على النفوذ الغربي بالصراخ والمواعظ، ويرى بعضهم الآخر الخلاص في قبول العبودية والتبعية للحضارة الغربية؛ ولم يحقق الطرفان شيئا إيجابياً لبلدانهم، وذلك بسبب جهلهم بطبيعة الروح الأوروبية. إن الأمة التي لا تستطيع أن تنتج وسائل خلاصها بنفسها سيكتب عليها الذل والهوان والبؤس وحتى الفناء.. لذا أردت الاشارة إلى طبيعة تنظيم الدولة والحياة الأوروبية من دون نقد كبير للتعرف على امكانياتهم وطاقاتهم، رغباتهم ودعاويهم، طموحاتهم ومشاريعهم، لكي نعرف منذ الآن بأن الذي فعلته هذه الشعوب لأنفسها كاف لخلاصها من هذا البؤس وهذه العبودية التي تفرضها على نفسها أحياناً برغبتها الخاصة، موحية لنفسها بأنها بقدر ما تخضع للمطاليب الغربية تصبح شريكاً لها وتنهال عليها الاستثمارات، متجاهلة أن هناك حسابات في المخطط الأوربي ذات طبيعة دينية وتاريخية وهي التي تحدد علاقاتهم بالشعوب والحضارات الأخرى. يجب أن نفهم على نحو نهائي بأن «العالم الإسلامي» هو الخصم التاريخي الذي لم يختفِ في الماضي ولن يزول الآن أيضاً. يجب أن نعرف بأن المسلمين والعرب لا صاحب ولا صديق لهم. ولكن قولي هذا ليس دعوة للحرب ضد هذا العالم، بل هو تأمل من أجل معرفة ما نحن فيه من بؤس وذل واحتقار من قبلهم.

تعصف بالإنسان والمجتمعات في العصر الحديث مشاكل عديدة لا حصر لها، أولها صلة الإنسان بالتقنية وأثرها في تغيير البناء الاقتصادي – الاجتماعي الذي يحدث تغيرات شتى في حياة الإنسان وقيمه. لقد ظهرت تناقضات حادة طبيعية واجتماعية حديثة لأن التاريخ الأوربي يريد أن يحقق فكرة «الذات المستقلة» تاريخياً.

لقد تعرفت البلدان المتخلفة خلال فترة الاستعمار على الطاقات والقدرات التي خلقتها الحضارة الغربية، وكذلك عن طريق الغزو الاعلامي

والثقافي. وتمزقت المجتمعات المتخلفة، خاصة الفئات التي حصلت على بعض التعليم، إلى اتجاهات فكرية رافضة ومؤيدة للثقافة الغربية. إن السمة المشتركة لدى هذين الاتجاهين هي الجهل بطبيعة وقيم الحضارة الغربية، ولهذا لم تجلب نشاطاتهم وأعمالهم إلا الفوضى والخراب لهذه البلدان، لأنها قائمة على الجهل والتخلف، كما أن هذه الحالة تعكس الفوضى والجهل في عقول هؤلاء القوم. لا أحد يعرف لم الحضارة الغربية جيدة أو سيئة. بعض الذين بهرهم التقدم العلمي - التقني انجزّ إلى الحضارة الغربية واعتبرها أهم ما حققته البشرية حتى الآن؛ أما الاتجاهات الأخرى التي لم تحتك بشكل مباشر بالحضارة الغربية، لأسباب أخلاقية، أو فكرية، أو دينية - فإنها ترفض قيم هذه الحضارة. لقد تغيرت بالطبع قناعات كل هذه الاتجاهات مع مرور الزمن، حيث أدركت ليس عن طريق البحث والعمل، بل عن طريق الغريزة أن لا طريق يمكن ان يحل مشاكل الإنسان من دون القيم والإمكانيات العلمية والتقنية. وبعد ادراكها لهذه الحقيقة بدأت تتشكل قوى وأحزاب جديدة نسبيا سوادها الأعظم يؤمن بأنه لا طريق لحل مشاكل هذه البلدان من دون التقنية والعلم، وهم لا يملكون منها شيئاً، تقنية بعيدة أيضا عن مداركهم العقلية وتجاربهم التاريخية، بمعنى أنهم متخلفون عن هذا العالم التقني آلاف السنين، ومن غير الممكن أن يحققوا شيئاً في هذا الميدان بقواهم الذاتية الخاصة ما لم يحصلوا على الدعم والمساعدة الغربية. لهذا توزعت البلدان المتخلفة، طبقاً لأوضاعها السياسية والاقتصادية الى حلفاء لهذا البلد الأوربي أو ذاك، أملاً في الحصول على الدعم اللازم علميا واقتصاديا. لكن العالم المتخلف لم يدرك أن العالم منقسم الى حضارات وقيم كانت وما زالت متصارعة فيما بينها، وهذا لا يمكن أن يختفي بين عشية وضحاها، بل إنه حدد وما زال يحدد طبيعة العلاقة بهذه البلدان شخص

الغرب بأن عدوه التاريخي هو «العالم الإسلامي» رغم تخلفه وانسحاقه؛ وأعلن ذلك أحد الرؤساء الفرنسيين في خطاب له بصدد الحرب الباردة قائلاً: لو تصورنا انتصارا روسيا على اوروبا الحرة فإنه ليس أكثر من انتصار سياسي لأننا ننتمي إلى حضارة واحدة، وهي حضارة العرق الأبيض المسيحي، لكن الخطر الحقيقي آت من هناك، من وراء البحار، يقصد بذلك العالم الإسلامي. وبسبب هذا الموقف لم تستثمر البلدان الغربية في هذا العالم شيئاً يذكر، بل بالعكس إنها تنهب ثروات هذه البلدان، خاصة النفطية، وجعلها سوقا استهلاكية لمنتوجاتها الصناعية. أما الأنظمة القائمة والمتخلفة والاستبدادية والطائفية في هذه البلدان فإنها لا تستطيع أن تحرك ساكنا لأنها صناعة غربية؛ إنها باقية بسبب الدعم الذي تتلقاه من الغرب وأمريكا والثمن هو التضحية بمصالح البلاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لصالح الغزو الثقافي الغربي. وحالما يتمرد نظام ما من هذه الأنظمة على العلاقات غير المتكافئة مع الغرب تظهر في الحال دعاوى ضد الحاكم ونظامه بعدم احترامه لحقوق الإنسان، وكشف بعض ارتباطاته السرية وسرقته للأموال وغيرها. لذا فإن هذه البلدان خائفة من أن تتخذ اجراءً يضر بالمصالح الغربية في هذه البلدان، وتساعد البلدان الغربية في كل الميادين من أجل منع القوى المعارضة للوصول إلى السلطة ومنها مثلا منع الديمقراطية الغربية المزعومة أن تتحقق في هذه البلدان. لكن البلدان الغربية تشخص مع ذلك الأنظمة الحاكمة في هذه البلدان على انها انظمة استبدادية ولا إنسانية، غرضها الأول ليس الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، بل من أجل أن تمنع الاستثمار في هذه البلدان بحجة أن الانظمة ليست ديمقراطية، ولكي تبقي عليها كسوق مستهلكة للبضائع الغربية، لا سيما أنها تمتلك سيولة نقدية بسبب عائدات النفط أو غيرها. كل ما يفعله

الغرب هو محاولة من أجل الإبقاء على التخلف في هذه البلدان، لكي تبقى تحت سيطرته ووصايته لدرء اخطارها وإيقاف زحف الإسلام. كل اجتماع بين الدول الغربية باسم الوحدة الأوربية، أو الدول المصنعة السبع، أو المؤتمرات في شرق آسيا، أو غيرها تتفق على عدم الاستثمار في هذه البلدان، وعدم القيام بالتنمية، على الرغم من وجود مقومات مادية وعلمية أكثر بكثير مما في معظم بلدان شرق آسيا، أو أمريكا اللاتينية؛ إن هذا قرار كوني باق طالما أن هذه البلدان لا توحد قواها من أجل تغيير هذه العلاقات المجحفة بحقها، وطالما بقيت هذه البلدان ممزقة ومتحاربة فيما بينها فإنها لن تلزم الغرب تغيير مواقفه تجاهها. الحضارة الغربية لا تعترف إلا بمبدأ القوة وبتعدد مظاهرها وأشكالها. كل قوم، أو شعب يحقق في الحياة ما تسمح به قواه الذاتية، وبقدر ما تكون هذه القوى كبيرة وضخمة فإن انجازاته تكون كبيرة وضخمة ايضا. إذا لم يستطع أن ينزع حقه سلمياً، أو بالقوة فلا حق فعلي له؛ إنه لا يمتلك حقا، وإن أعطي شيئاً فليس حقه، وإنما صدقة، كما تعطى لأي متسول. هذا جانب من جوانب العلاقة بالغرب، أما الجوانب الأخرى فإنها الألعن والأشد قسوة، ألا وهي هذه البلدان وانماط حياتها التاريخية القائمة على الجهل والتخلف.

تحاول بعض الأنظمة السياسية والدينية بشكل خاص ان تقدم نفسها كبديل تاريخي للحضارة الغربية، على أساس أن الحضارة الغربية لا إنسانية وكافرة ولا أخلاقية وغير ذلك من الدعاوى التي لا تدل إلا على انفعال لا يعي ولا يدرك إمكانيات ومشاكل العصر، ولا الطاقات والقدرات التي تمتلكها هذه الحضارة. لقد انتقدت هذه الحضارة من قبل أبنائها وظهرت لها حركات وأحزاب معادية من أجل القضاء على ما يسمى بالنظام الرأسمالي، لكنها باءت بالفشل. ما الذي يدل عليه هذا الأمر؟ إن هذا النظام

– على الرغم من نقائصه وسلبياته – هو النظام الأكثر استجابة لمطالب الإنسان النفسية والاجتماعية والفكرية، وإلا لما عاش هذا العمر الطويل، ولما استطاع أن يذلل جميع الأزمات التي عصفت به. ما الذي ساعد هذا النظام على البقاء والديمومة؟ باختصار العلم والتقنية، معنى ذلك أن مشاكل هذه المجتمعات تخلقها بالضرورة طبيعة التطور العلمية – التقنية وهي الكفيلة بحلها. ولكن هذا لا يعني أن النظام الاقتصادي – السياسي لا يلقى على عاتقه جزءاً من المشاكل التي تعصف به، لكنه مع ذلك يبقى النظام الأصلح، وهو ما بررته الأحداث التاريخية. لقد كشف النظام الرأسمالي عن طاقة هائلة متنوعة متجددة مصدرها الطبيعة البشرية. لذا فإن أي تغيير لأنماط الحياة لا يمكن أن يتحقق عن طريق تدمير هذا النظام بل في ادخال الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية عليه، وهذا أمر تنبأ به قادة الاشتراكية الديمقراطية برنشتاين وكاوتسكي.

كثير من الناس يكيلون اللوم والنقد والشتيمة للغرب ولنظامه، وهم لا يعرفون طبيعة هذا النظام وامكانياته الايجابية والسلبية؛ وهم بعملهم هذا يؤلبون هذا العالم عليهم بحيث يشدد الخناق أكثر فأكثر ويزيد من تخلفهم وتبعيتهم له. إن هذه الأنظمة والأحزاب لا حق لها في أن تزيد من مآسي شعوبها بسبب غباء بعض المتسلطين على النظام الغربي والدولة، الذين تبنوا عقائد غربية أو محلية متخلفة تتسبب في هلاك شعوبها وأقوامها. إن الذي يعادي هذا النظام وينتقده يعني انه يقدم نفسه بديلا له. والسؤال كيف يمكن لشعب متخلف أن يقدم نفسه كبديل تاريخي للحضارة الغربية وهو لم يشارك بعد في هذا التاريخ ؟ إن الشعوب المتخلفة موجودة على الأرض إلا أنها ليست طرفاً فعالاً في العملية التاريخية الكونية؛ ولم تدخل بعد في هذه العملية التاريخية، إنها خارج التاريخ، فكيف يتسنى لها أن تكون بديلاً لهذا

التاريخ ؟ ما الذي تستطيع أن تقدمه هذه البلدان للبشر وللعملية التاريخية؟ إن في هذا اجحاف للتاريخ وللإنسان، وخاصة مواطني هذا البلدان التي تزُج في مشاكل لا تعرف عنها شيئا، ودونها مستوى. إن مواقف كهذه لا تضر إلا بقائليها والداعين لها لأنها موجهة في واقع الحال ليس ضد البلدان الغربية، بل ضد أبناء البلدان المتخلفة، لأن مثل هذه الحالة تكرس التخلف والجهل وزيادة مشاكل هذه البلاد. إن الشعب الذي لا يشارك في العملية التاريخية القائمة على الإنتاج العلمي والتقني لا دور له ولا حق إلا بما ينتجه بنفسه وطبقا لقدراته. كلما استطاع أن يبدع أكثر ازداد حقه في الحياة ومشاركته في العملية الكونية؛ خلافاً لذلك لا يمتلك الشعب أي حق، في انتقاد الآخرين. بعض الحركات والأحزاب الدينية الاسلامية تقدم الإسلام كبديل تاريخي للحضارة الغربية، لا شك في أن الاسلام لا يقارن بالحضارة الغربية، إنه اعظم قيمة موجودة، لكن عندما يسأل الانسان هؤلاء القوم، كيف يمكنكم أن تجعلوا الاسلام بديلاً تاريخياً وانتم أنفسكم لم تعيشوا هذا الدين، ولم تشاركوا فيه نظريا ولا علميا. هل يمكن هكذا ببساطة أن يحل الاسلام مشاكل الحياة؟ نحن نعرف أن العوامل المحركة للتاريخ هي: إشباع الحاجات المادية والرغبات، ولو أننا طبقنا الاسلام فلن نستطيع تجاوز هذين العاملين اللذين تقوم عليهما العملية الكونية. في نهاية المطاف، على الاسلام أن يحل هذه المطاليب وإلا فإنه سيسقط كالعقائد الأخرى، لا تتدخل الارادة الالهية مباشرة عند تطبيق الاسلام، بل إن الفاعلية للارادة البشرية. وكلما كانت الخلفيات الثقافية والعلمية والامكانيات الاقتصادية غنية، كان العمل أكثر عطاء وفاعلية وإنتاجا؛ أما إذا انعدمت هذه الامكانيات فلا رجاء في الخلاص، وهذا ما تعاني منه الدول المتخلفة، ولا يشفع لها في ذلك الدين لعدم توفر الامكانيات والتجارب في الميادين التي تنتج فيها القيم المادية

الحياتية والروحية. لننظر إلى الطريقة التي يفهم فيها الإنسان الغربي واقعه وحياته، لكي نطلع علي الامكانيات التي خلقها لنفسه بنفسه.

لكي نعرف من نحن، وما هي الطاقات والقدرات التي تمتلكها الحضارة الغربية لا بد لنا من التعرف على العقلية التي تنتج هذه القيم، وكذلك على طبيعة النظام الاقتصادي وبنيته.

لقد خلقت التقاليد الغربية في وعي الانسان الغربي فكرة نشأت وتكونت تحت تأثير وسائل الإعلام مفادها أن الفاعلية التي تجلت مستقلة، ولم تتطور، كما يزعمون عن الله، أو عن التقاليد، أو من ذات محددة، بل إن هذه الوسائل والفاعليات توجد الآن تحت تصرفه وتمتلك بذلك قوة هائلة. الذات الفاعلة المستقلة التي خلقها التطور الأوربي خلقت وضعاً خاصاً وصعباً، ذلك لأن فاعل العملية التاريخية المسقل وجد نفسه مكبلا ومقيدا بوضع خلقه من فاعليته هو، ووقع تحت تأثير «جبرية الشيىء » و «قانونية الشيىء».

«الاستقلالية» و «جبرية الشيىء» تنطبقان على حياة أي فرد رغم اختلاف مستويات الافراد وتنوعهم في سلم التطور الاجتماعي. لقد أوهم التقدم العلمي والتقني الانسان بأنه السيد المطلق على الطبيعة، نظراً لما يمتلكه العلم من طاقات وامكانيات غير محدودة في ميدان الخلق والابداع الذي يتم من خلاله السيطرة على الطبيعة. إلا ان هذا الحلم فقد مصداقيته حيث تبين أن القدرة التحصيلية البشرية محدودة.

كان العلم في البداية إجابة للإنسان على قوى الطبيعة التي شعر بالخوف منها، وقد كان يحاول دائماً أن يعثر على إجابة وإيضاح للظواهر التي تهدد حياته. لكن مهمة العلم ووظيفته في الحضارة الأوربية تجاوزت كل هذه الامكانيات، ولم يقم العلم المعاصر في اوروبا إلا من أجل غاية واحدة،

وهي تحويل العلم ونتاجه إلى مصدر للربح والثروة. وبالنتيجة واجه الإنسان الغربي مشاكل مثل تلوث البيئة، المجاعة، والأمن.. الخ، وهذه الظواهر لا شأن لها بالعلم ولا بالطبيعة، وإنما هي نتاج الإنسان ذاته. إن حل هذه المشاكل موجود في التقاليد الأوربية التي تتطلب تحولا جذريا، لكن هذا صعب التحقق ذلك لأنه «يجب على الإنسان الأوروبي عند الحصول على استقلاليته الفردية أن يعطي شيئا من يده، وهذا أقوى من استقلاليته. مجتمعنا يعمل في الواقع وفق قوانين لا نستطيع السيطرة عليها. لأنها ليست قوانين الطبيعة، ولكن بالأحرى قوانين أعددناها نحن للطبيعة، وكذلك للطبيعة الاجتماعية نسبياً» (٢). إن القوانين التي يزود بها الإنسان الطبيعة الاجتماعية على جميع الأصعدة والمستويات لا تمتلك الدقة ولا الضمانة. «إن الاقتصاد نتاج اجتماعي وتظهر لنا العملية الاقتصادية الكاملة كحركة مصير، نحن لا نستطيع تسيير هذه الحركة، بل نستطيع أن نشخص، أو نتنبأ كما في الطقس» (٣). إن هذه الظواهر نتاج فاعلية المجتمع.

## المعرفة المطلقة بين منطق التطابق والموضوع المنقسم

كانت طريقة التفكير الغربية منذ بواكيرها الأولى ذات طبيعة صوفية مطلقة، وهو ما تمثلت به منهجية التفكير اليونانية التي انطلقت من مبدأ أساسي ألا وهو «تطابق التفكير والكينونة». لكن مبدأ تطابق التفكير والكينونة صار مشكلة، لأنه من خلال وعي الحياة المسيحية تحقق للمرة الأولى تحول إلى مفهوم الروح، بحيث لم تعد الكينونة العليا مبدءاً سائداً لكل الكون، وإنما صار الشخص الإلهي. بهذا فهم التركيب الأساسي للروح

(2) Holling, E, Kempin, P' Identitaet, Geist und Maschina. Auf dem Weg zur technologischen Zivilisation, Reinbeck bei Hamburg, 1989, S. 36.

(٣) المصدر نفسه؛ ص. ٣٧

كذاتوية، كباطنية؛ على هذا الأساس، وانفصل العالم الباطن عن العالم الخارجي؛ – لقد تمزقت بذلك وحدة التفكير والكينونة القديمة.

إذا كان منهج علم الطبيعة القديم ينطلق من مبدأ التطابق أ = أ، فهذا يعني أن موضوع البحث عديم الحياة، أزلي وغير قابل للتغيير، ويفهم على أنه ساكن في ذاته ومتطابق مع ذاته، ويجب أن يشخص في الوقت ذاته التأثير المتبادل لهذه المواضيع مع العالم. إن «علاقة التطابق والانفصال تنتج بالتالي مشكلة التأثير المتبادل للأقسام المنعزلة فيما بينها من ناحية، وتكاملها من ناحية أخرى؛ هذه لم تعد مهمة المنطق العلمي وحده. علاقة التطابق والانفصال يمكن ان تجد صدى في العلاقة بين افراد المجتمع والكل الاجتماعي. عن هذا تنشأ قوانين الطبيعة ذاتها وتصبح قوانين المجتمع ذاته، بمعنى أن صلة قوية قائمة بين الإثنين. هنا نجد انفسنا في عملية تحول يتطلب فيها تنظيم هذه العلاقة على نحو جديد. أما الصور الأخرى للتكامل الاجتماعي فتهيأ وتعد من قبل التقنية.

إن معرفة المواضيع المتطابقة والموحدة تشترط ذاتاً متطابقة موحدة منفصلة عن المواضيع، إلا أن هذه الذات باستطاعتها أن تجمع ظواهر مختلفة تنتمي إلى بعضها البعض، تنتمي الى التطابق، بمعنى أنها متطابقة، وهي بذلك محددة بظواهر أخرى. إن الذات التي تنحصر مهمتها في استقبال تأثير الظواهر لا يمكن لها أن تلم بعالم الأشياء اللامتناهية، لهذا على الذات أن تتحرر من ارتباطها بهذا العالم الطبيعي وتصبح ما فوق طبيعية. الذات المتطابقة ما فوق الزمانية يمكنها أن تثبت أن الظواهر المختلفة تنتمي إلى نفس الموضوع الوجودي القائم بشكل مستمر. لقد فهم في الماضي تطابق الذات والموضوع نفسيا، على أن الذات تلعب دوراً خاملاً في المعرفة، ولا تمثل إلاّ مستقبلا ومسجلا لتأثيرات أشياء العالم من خلال

أعضاء الحواس، أما الفاعلية فإنها تترك للموضوع. لهذا تعين العلاقة الازدواجية للذات والموضوع التي تفترض وتتضمن انفصالهما. عند انفصال الذات عن الموضوع تتحرر الذات من ارتباطها الطبيعي وينسب لها الدور الفعال، في حين أن الموضوع يصبح خاملاً. لكن داخل واقعة الإنتاج الفعلية لا يمكن الفصل بين الذات والموضوع.

انطلق العلم القديم من صورة العالم الحتمية، وقد آمن بأنه اكتشف القوانين التي هي في الوقت ذاته قوانين الطبيعة ذاتها، وهي قوانين موضوعية مستقلة تماما عن المراقب وأعطت العمليات الطبيعية صبغة حتمية. لذا يعتقد بأن المعرفة العلمية معرفة موضوعية مصدرها العلم، أي أن المعرفة الموضوعية هي الصورة الذاتية لأشياء العالم الخارجي، والذات العارفة ليست أكثر من مستقبل لهذه التأثيرات؛ لهذا يكون الموضوع هو المهم على صعيد النظرية والتطبيق. لكن العلم المعاصر غير فكرة ومفهوم الموضوع العلمي المستقل عن الذات العارفة. إن استقلالية الموضوع وحتميته أصبحت بالنسبة للعلم المعاصر مغالطة لا يمكن القبول بها، ذلك لأن الذات تتدخل بشكل مباشر في تعيين موضوع البحث العلمي. إن الموضوع لم يعد ظاهرة خارجية قائمة بمعزل عن الملاحظ، بل إن الموضوع يفهم كظاهرة وعي، بمعنى أن الوعي، الذات العارفة هي التي تصمم الموضوع، ويكون الموضوع تصميم وعينا الخاص، وتصميم تنظيماتنا العقلية. ويتضح أن الموضوع هو معنى يصمم في الذاتوية؛ ونتاج لها، إنه عملية بحث عن معنى تعايشه الذاتوية، والوعي عامة. ومصدر الذاتوية هو بالطبع الذات الفردية، إن الذاتوية تمثل في الوقت ذاته الصورة العامة المجردة للذات، هي الأنا الشخصي المجرد عن كل ما هو حسي وواقعي، والوعي الخالص عموما. بهذا يكون الموضوع خاصية ترابط الوعي. وعليه يصبح العلم القائم على الذاتوية غير محدد

بوقائع وظواهر العالم الخارجي، وبذلك يكون علم العلم، الذي لا يمكن أن يضع لنفسه حدوداً.

حقق العلم المعاصر فكرة الذات المجردة المصممة والمنتجة من قواها الذاتية موضوع البحث، وأعطى للذات قوة إبداعية فعالة، إلا أن هذه الذات لم تعد الإنسان الفرد، بل «القدرة الفكرية»، «الذاتوية»؛ لهذا تتم عملية تحديد الواقع ومفهومه من خلال الذاتوية. الواقع الذي يتكلم عنه العلم لم يعد واقع الاشياء الخارجية، وانما هو واقع الذاتوية ذاتها؛ أي أن موضوع العلم أصبح تعينا للذاتوية، وهو موضوع مثالي، من ثم فكرة، أو معنى قد يجد ما يمثله في الواقع وقد لا يجد. وبهذا تتجلى القوة الإبداعية للذاتوية. إن الميدان الذي تتجلى فيه هذه القوة الابداعية للذاتوية هو ميدان العلم والتقنية. وهذان الميدانان يمثلان تجسيداً للقوة الإبداعية الذاتوية، وهي تجسيد للروح البشرية. إن «ماهية العلم المعاصر هي الإنتاج. والعلم المعاصر ينتج الواقع الذي يعتقد العلم بأنه يعرفه» (٤).

تسود في العلم المعاصر منهجية وضع أسسها كانط، وهي أن العالم يدور في فلك الوعي. وأصبحت ذات المعرفة وموضوعها متطابين، لأن الموضوع لا يختلف عن الذات التي صدر عنها، وهو تعين الذاتوية، التي توجد مستقلة عن الذات العارفة، أي أنها واقع قائم بذاته. والمعرفة التي تنشأ عن الذاتوية مستقلة تماماً عن ذاتوية العارف، وهذه المعرفة لا تحمل طابعاً ذاتيا، لأنها ليست ذاتية، وانما موضوعية، وفي الوقت ذاته هي معرفة مطلقة تصير بالتالي الواقع الوحيد الممكن؛ وبعبارة أخرى أن « النظرية الغربية تنتج ذاتها كواقع » (٥). في ضوء « ميكانيك الكم ». تتجلى هذه الفكرة على نحو الآتي: «لا يوجد موضوع من دون الذات؛ ولا يوجد لديمومة الزمان.

---

(٤) المصدر نفسه؛ ص ٤٣ .

المستقبل يحصل على كيفية جديدة، يرمز له من خلال قفزة الكم. العالم لا يظهر حتمياً بعد الآن إلخ»(٦). إن العالم كموضوع مستقل خارج الذات ليس هو الوجود المطلق الذي قصدته الفيزياء القديمة، بل هو وجود نسبي، متغير، متنوع، لا يعرف الثبات، وحقيقته لا يمكن أن تصدر عنه وإنما عن الذاتوية. ما هو حقيقي في العالم يندرج تحت قواعد التفكير ومعاييره، بمعنى ما يكون في الوقت ذاته فكرة، أو «موضوع – معنى»، بمعنى ظاهرة وعي تصمم في الوعي ذاته؛ وعلى الرغم من مثاليتها فإنها واقعية وموضوعية، تمتلك وجوداً مطلقاً، و هي بالتالي الواقع والعالم الوحيد الممكن للمعرفة. إن واقعة العلم هي واقعة معرفية تتجلى واضحة في العلم المعاصر وخاصة في دوره الجديد كقوة انتاجية.

## العلم قوة إنتاجية

إن ما يميز الحضارة التقنية – العلمية هو العلم الذي صار في هذه الحضارة قوة إنتاجية أساسية. والتطور العلمي والتقني أدخل تغييرا كبيرا في البنية الاجتماعية – الاقتصادية للبلدان الصناعية الغربية، ولأن العلم يشارك بشكل أساسي في الإنتاج كانت العمليات الإنتاجية القديمة تتحقق بجانبين، الآلة من جانب، والانسان من جانب آخر، حيث يقع تأثير كلا الجانبين في تحول مادة العمل إلى موضوع قابل للإستهلاك. لكن ما أحدثه العلم هو أن الكثير من العمليات الإنتاجية سلبت من الإنسان، وأصبحت الآلة كفيلة بتحقيقها من دون إشراك الإنسان فيها. لقد بدأ العلم وبطريقة اصطناعية فنية يخلق موضوع العمل، ومادة العمل لم تعد مادة أولية خام، وإنما مادة مصنعة لا وجود لها في صورتها هذه في الطبيعة. بهذا يحل

---

(٥) المصدر نفسه؛ ص ٤٤ .

(٦) المصدر نفسه؛ ص ٤٩ .

العلم من خلال تجسيده في وسائل العمل، ومادة العمل محل عمل العامل. الإنسان يقصى من ميدان فاعليته القديم ويفقد تأثيره، ويصبح تابعا للآلة التي أراد أن يخفف بها أعباء العمل ومخاطره وأضراره. لقد صار المجتمع والحياة - مع مرور الزمن - خاضعين للشروط والظروف التي تتطلبها العملية الإنتاجية، وهو ما يطلق عليه «قانونية الشيىء»؛ هذه القانونية التي تتطلبها طريقة الإنتاج العصرية التي يخضع لها الإنسان وتسلبه حريته، وحرية الاختيار بدعوى «جبرية الشيء». إن «جبرية الشيىء» و «قانونية الشيىء» تعطيان بعداً غيبياً، كما لو أن الإنسان لا حول له ولا قوة في مواجهة الظواهر الجديدة. الظاهرتان المسميات «بجبرية الشيىء» و «قانونية الشيىء» تفسران على أنهما قانونان موضوعيان لا دخل للإنسان ولا المؤسسات في خلقهما، وإنما هما نتاج التطور العلمي - التقني ذاته.

يحاول علم الاجتماع الغربي تصوير المجتمع الصناعي المعاصر، على أنه مجتمع يختلف كلية عما أطلق عليه في الماضي بالمجتمع الرأسمالي، لأنه لا يرى المجتمع الصناعي المعاصر طبقيا، كونه يتألف من طبقات وفئات اجتماعية مختلفة لم يعرفها المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر. إن المجتمع الصناعي المعاصر يتألف من طبقات اجتماعية مختلفة بمواقعها في التركيب الاجتماعي، وكذلك دورها في العملية الإنتاجية. لقد ظهرت فئات اجتماعية جديدة منها: قطاع الخدمات، قطاع الخبراء الصناعيين، إنحسار وتراجع القوى العاملة في الصناعة، والزراعة حيث يتراجع الإنتاج الزراعي التقليدي لصالح الصناعات الكيميائية، دخول الحاسوب والاعلام الجديد وغيرها ؛ هذه مظاهر جديدة على دخول العلم كقوة إنتاجية أساسية وضعت حداً لأساليب الإنتاج القديمة. إن الخطأ الذي وقع فيه ماركس في فهم الرأسمالية ينحصر في أنه لم ينظر إليها على أنها مجتمع محدد، وإنما هي

مفهوم لا غير. إن الرأسمالية حالة متطورة كتطور الروح، حيث يصل تمزق الوجود البشري ذروته، ويرى ماركس هذا التمزق في التناقض القائم بين «علاقات الإنتاج» و «القوى المنتجة». إن علم الاجتماع المعاصر يرى في مشاكل المجتمع الحديث نتاجاً طبيعياً للتطور التاريخي للروح البشرية. وعلى الرغم من عدم وجود تاريخ اقتصادي يمكن أن يقارن به التطور الاقتصادي الغربي، فإن هذا لا يلغي إمكانية وجود تطور اقتصادي وتوزيع للثروة من نوع آخر. إلا أن هذا النظام بالنسبة للبلدان الغربية هو الذي يتناسب مع قواهم الفكرية والأخلاقية والتاريخية؛ وإذا كانت هناك إمكانيات تغيير فإنها لن تتحقق إلا من داخل هذا النظام، وليس عن طريق اقحام قيم ومناهج جديدة غريبة عنه. ومع ذلك فإنه صار المقياس لكل نجاح وتقدم في جميع مجالات الحياة.

حقق المجتمع الصناعي المعاصر على الصعيد المادي، وعن طريق النهب والاستغلال المنظم للعالم ما فهمه ماركس تحت الشيوعية وذلك برفع الأجور وتحسن ظروف العمل والضمانات الاجتماعية؛ لكن هذا النظام لم يستطع – رغم ذلك – أن يوفر العدالة الاجتماعية، ولا ظروف عمل متكافئة، لأنها ترسم وتحدد من قبل المؤسسات الاحتكارية الكبرى والطغمة المالية. إذا استطاع هذا النظام أن يوفر على الصعيد المادي نوعاً من الرخاء الاقتصادي في هذه البلدان، فإن نتيجة هذا الرخاء وبال وكارثة بالنسبة لبلدان العالم المتخلفة. إن هذا النظام لم يفعل أكثر من أن يستغل العالم لمصلحته، سواء أكان هذا على حساب الطبيعة، أو المجتمعات. بهذه الطريقة خلقت الحضارة العلمية – التقنية ميادين جديدة، عالماً جديد للإنسان. إن هذا الوضع الجديد يخلق

ظروفاً جديدة لنشاطات الناس في هذا العالم. وهذه الظروف والنشاطات الجديدة يخلقها التطور التقني، لأن التقنية تمثل المعنى والمحتوى للمجتمع المعاصر، أو كما يقول شيلسكي: «تركيب العلوم لا يتحقق بعد الآن فكريا وبشكل خالص، وإنما يتحقق «عمليا»، وهذا يعني في التصميم التقني - العلمي، أو إعادة تصميم العالم الذي نطلق عليه اسم «الحضارة التقنية»[٧].

## الإنسان، التقنية، والسؤال المنهجي

ما يميز الحضارة اليوم عن الحضارات السابقة هو إنجازها العلمي والتقني. لهذا السبب صارت علاقة الإنسان بالتقنية المشكلة الرئيسة لحضارة اليوم. لقد فهم الكثير من المفكرين التقنية على أنها «عضو مكمل»، أو «وسيلة إنتاج». لكن التقنية وتأثيرها اليوم لا ينحصران في كونهما «عضواً مكملاً»، وإنما هي ظاهرة روحية يتحرر بواسطتها الإنسان من جميع القيود. تتضمن التقنية المعاصرة حقاً على «العضو المكمل»، لكن هذا لا يكفي لاستيعاب مفهوم التقنية، ولا يمس جوهرها لأن جوهر التقنية يفترض دائما علاقة الإنسان بالطبيعة وبالعالم. تتحدد التقنية المعاصرة وترتسم من خلال «التفكيك التحليلي» للموضوع في المعنى الواسع للكلمة إلى عناصره النهائية، وهي ليست العناصر الموجودة قبلا؛ إن العناصر تركب حسب «مبدأ التأثير الأقوى». فالتأثير التقني أمر محتم يتشكل في التفكير بشكل واضح، ويعين تركيب المنتوج وتسيير التقدم التقني.

---

(٧) إن العدالة الاجتماعية تنتمي إلى العالم الأخلاقي، إلى الوجوب، إلا أنها لا تمتلك كينونة؛ ولهذا تبقى دعوة اخلاقية لا غير. ينظر:

Schelsky, H'; der Mensch in der wissenschaftlichen Zivilisation, S. 463.

لا توجد علاقة إنسان – طبيعة في الحضارة التقنية العلمية، وانما علاقات إنسان – مواضيع مصنعة، هي بالتالي نتاج التصميم العقلي؛ وهذا يعني أنه الى جوار العالم الواقعي يبني الإنسان في الحضارة التقنية – العلمية عالماً اصطناعياً يعيش ويفعل ويفكر فيه. هذا العالم الاصطناعي نتاج الفاعلية الفكرية للمجتمع، وبالتالي تجسيد وتموضع للوعي. لهذا يفهم علم الإجتماع المعاصر أن علاقة الإنسان – العالم تختفي في الحضارة التقنية – العلمية، ذلك لأن الإنسان في هذه الحضارة يشتغل بنتاجه الخاص، ويعمل مع نفسه. ويصبح هذا العالم الجديد حسب الماهية «تصميماً»، «إنسانا اصطناعيا»، «إبداعا» لواقع ثان يحصل منه الإنسان على علاقة جديدة؛ وهذه العلاقة الجديدة تحدد صلة الإنسان بالعالم وبنفسه، وتتسع بالتالي في الحضارة التقنية – العلمية لتشمل جميع العالم.

يشعر إنسان هذا العالم الجديد كما لو أنه حر من «اضطهاد الطبيعة»، لأن العالم الجديد الذي يعيش فيه الإنسان عالم مؤتمن كونه من صنعه هو نفسه. هذه العملية ذات طبيعة مزدوجة، علينا التعرف على نواة «واقع الإنتاج» الجديد لهذا العالم بشكل أوضح وأكمل، ومن ناحية أخرى أن تصمم وتخلق من جديد الطبيعة الاجتماعية، والنفسية، والروحية للإنسان. إن النظريات الاجتماعية المعاصرة تصور دائماً علاقة الإنسان بنتاجه وبنفسه بإمكان الوعي أن ينفذ هذه العملية لأنه يعرف ما يصمم. إن علم الاجتماع يستخدم المنهج الظاهري، حيث أن العالم ليس إلا ظاهرة وعي. أما العالم الذي يعنيه التفكير الحدسي لا شأن له بعالم الواقع، إنه عالم الفكر ذاته، عالم الوعي الخالص من حيث أن وحداته الواقعية وحدات معرفية، ماهيات فكرية خالصة. إن عالم الظاهرة هذا يصمم في الوعي، وفي الوقت ذاته ترابط للوعي، وهو ما يفهم من أن «الصعود المتواصل للوعي الانعكاسي

ذاته يستخلص مباشرة من خلال الموضعية التقنية – العلمية لإنجازات الوعي»[8].

لا يصمم الإنسان في الحضارة العلمية – التقنية واقع الإنتاج الاصطناعي فحسب، وإنما يصير الأنسان ماهية روحية – اجتماعية، وظيفة علمية – تقنية للإنتاج. صار الإنسان وعيا لعلاقة توسطية من خلال ميدان الانتاج العلمي في جميع ميادين الحياة ومع ذاته أيضاً. مثل هذا الوضع لا يمكن تفاديه. أن يصير الانسان كوعي، كروح يتطابق وفق الفهم المعاصر الغربي مع مفهوم التقنية. إن النظرية الاجتماعية الغربية تختزل العالم الواقعي وعالم الإنسان ومشاكله وقيمه. وقد صارت وظيفة الانسان وقيمه من وظائف التقنية؛ إن « عالم التقنية في ماهيته تصميم، وهو بالتالي الإنسان ذاته. يفكر الانسان في صورة مطبقة عندما يتكلم عن عالم التقنية وكأنها «طبيعة اصطناعية»، وهذه «الطبيعة الاصطناعية» هي «الإنسان الاصطناعي»، الصورة التي تُخلق، أو تتجسد فيها الروح البشرية كتموضع للعالم».

في المنهج الظاهري الحدسي يقصى كيان الانسان الجسدي والاجتماعي والروحي، ولا يبقى منه سوى ظاهرة وعي، لأنه حامل الوعي الوحيد. إنه القادر على اختزال العالم لكنه لا يستطيع اختزال ذاته، لأنه سيختفي كلية وستتعذر بذلك عملية الاختزال. تنزع عن الانسان حسب التفكير النظري الخالص خصائصه المادية والجسدية، ولن يبقى سوى الوعي، الأنا الخالص. إن أنا كهذه لا تمتلك مطالب حياتية فردية، لأنها بلا جسد وبلا كيان جسدي. وبهذا تبدو مطالب التقنية وكأنها مطالب البشر أنفسهم، وتصبح التقنية بذلك الجزء الحي والفعال والمنتج في الإنسان، وما عداها لا شيء. إن وظيفة الإنسان كوعي تنحصر في إدامة وتطوير التقنية ومتطلباتها.

( ٨ ) المصدر نفسه؛ ص ٤٧١ .

إن التقنية هي جزء من خبرة العقل العلمية، وهي بالتالي تركيب أفكار. وهذا الفهم موجود في أساس التفكير المثلبي الذي لا يتوجه التفكير، في ضوئه، صوب عالم الأشياء الخارجية الواقعية، لأن موضوع التفكير ليس العالم الواقعي، أي عالم الأجسام المادية، وإنما هو الوعي ذاته. والموضوع في هذه الحالة ليس شيئا، بل فكرة شيئ. لهذا يتطابق الموضوع مع الوعي تماماء لأنه لا توجد فوارق بين التفكير والكينونة في العالم الروحي، الذات والموضوع، الخارجي والداخلي (الظاهر والباطن). التقنية كموضوع تنصهر على هذا الأساس في الروح، أي في الفكر. لهذا يفقد الموضوع وجوده خارج الوعي، والتفكير يتعرف على ذاته في الموضوع. الموضوع لا ينتهي إلى المفارق، إلى عالم الأشياء الخارجية، وإنما هو ماهوية عقلية، من خصائصها العمومية والمحايثة. بهذه الطريقة تفقد الاشياء والإنسان وجودها الحسي الجسدي وتكتسب بذلك كيفية وخصائص جديدة. وهكذا «يتخلص المبدع في هذه الواقعة من ذاته الأولى ويكتسب من خلال هذه الفاعلية هوية جديدة»[٩].

إن هذا التخلص من الذات الجسدية – الحسية الأولى يعني تحولها إلى تجريد. فالنظريات الاجتماعية الغربية ترى في المعالجة، أو العرض التقني – العلمي للانسان في أنه يجعل منه تجريداً، ومن غير الممكن أن يمنع كي يكون موضوعا عاما وله خصائص. كل هذه الآراء والمعتقدات تريد أن تبين لنا بأن التغيرات في الإنسان والمجتمع ليست محاولة لإظهار سيادة التقنية على الإنسان؛ كما تحاول أن تقنعنا بخطأ من يفكر على أن الإنسان صار عبدا للتقنية، لأنها من منظورها له لا تسيطر التقنية على الانسان، وذلك يعود الى ان التقنية تجسيد للروح البشرية ذاتها.

---

(٩) المصدر نفسه؛ ص ٤٦٨ .

إن التفكير النظري الخالص / الحدسي يقصي العالم المادي وكل ما يمت إليه بصلة، وكذلك يقصى الكيانات الروحية، والاجتماعية، والاخلاق، والدين، وحتى العلوم الطبيعية . السؤال ما الذي يبقى بعد هذا الاقصاء؟ لم يبق عندها إلاّ الأنا وآراؤها في العالم. هذه العملية هي عملية تجريد؛ التجريد يعني حسب التعبير الللغوي الشائع كل ما هو متفكر، أو فكري وبقدر ما يكون ضد المعاش، المتأمل، المدرك والمشعور بشكل مباشر، وهذا يعني أن العيني يبهت ويصير لا تأمليا، أي مفهوميا.

المجرد كمفتكر بشكل خالص هو المفهومي، وهذا يعني انه لا يحتوي في ذاته على الفوارق ولا على الاختلافات كتلك التي تخص العيني. لهذا يكون المجرد عديم التناقض. وعلى هذا الاساس لا تظهر مشاكل اجتماعية كتلك التي نعرفها في أسلوب الإنتاج الرأسمالي هنا . إن النظرية الاجتماعية الغربية هي نظرية الإنسان والمجتمع المجرد، والحقيقي هو التقنية ورأس المال فقط. المجتمع والإنسان ظواهر الرأسمال. لهذا يسبغ على التقنية بعدا عاما بحيث تتخطى التقنية موضوعها النشأوي (الاصلي)؛ التخطي يعني بأن التقنية لم تعد ادات عمل فقط، وإنما هي تجسيد للروح البشرية، هذا يعني بعث الروح في التقنية، لتصير كالله الذي يتوقف عليه مصير البشرية والعالم. من مظاهر تخطي التقنية لوظيفتها الأولية الأساسية كوسيلة عمل، تبرز التقنية «كتقنية تنظيم»، كمنهج للسيطرة ولإنتاج العلاقات الاجتماعية، التي تؤلف محتوى العلوم الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك تحول العلوم التشريعية القانونية إلى نظرية تنظيم؛ كما تبرز التقنية على أنها تغيير وتسيير وإنتاج الحياة الروحية الباطنية والنفسية للإنسان، التي يشار إليها بمفهوم التقنية الإنسانية؛ إن ميدان التقنية الإنسانية هذا يمس العلوم التي تعمل بمجال النفس، التربية، لعلاج النفسي، الإعلام، أبحاث الآراء العامة ... إلخ.

تسيطر التقنية على جميع مرافق الحياة البشرية ( المادية، الاجتماعية والبشرية). ويحاول الانسان بمساعدة التقنية أن يتحرر من سلطان الطبيعة، لكنه يخضع في هذه الحالة إلى جبرية إنتاجه الخاص. إن الوسيلة التي خلقها الإنسان ليتحرر بها من عنف الطبيعة وليؤمن حياة مستقرة، كرس بها كل شيئ من أجل خدمة هذه الغاية، وخلق التقنية التي أصبح تابعا لها مع مرور الزمن. إن التقنية هي «الصنم» الذي على الإنسان العصري أن يخضع له ويعبده. لقد أنتج الانسان بشكل واع وسائل عبوديته؛ انها فيتشية اختارها بمحض ارادته. وعمل إنسان العصر بعدا غيبيا. الانسان اليوم يسبغ على التقنية بعدا غيبيا كما كان الانسان القديم يفعل مع الظواهر والتماثيل التي صنعها بنفسه، كما لو انها تمتلك قوة خفية تتجاوز قدرات البشر ومتعذرة على الانسان؛ لذا لم يبق لكل شيئ. التقنية ترسم وتحدد للناس طرق المعيشة، الاستهلاك، وهي التي تحدد اساليب العمل ونوعيتها، ليس هذا فقط، بل ان الحياة الروحية، الاجتماعية، الجمالية، الحقوقية، الدولة، الانسان، القيم... الخ تصدر عن التقنية ويتحدد بها. ويدل هذا على أن «أية مشكلة تقنية وأي نجاح تقني يصبح في الحال وبشكل لا محيد عنه مشكلة اجتماعية ونفسية، على انها مشكلة قانونية الشيئ التي عينها (وضعها) الانسان في العالم وتبرز هنا مطالب اجتماعية ونفسية لا تسمح من ناحيتها بأي حل غير الحل التقني، حل تصميمي مخطط من قبل الانسان، لأن هذا هو ما هية الشيئ، التي يمكن التغلب عليها»[١٠].

## شرعية «قانونية الشيئ» و «جبرية الشيئ»

إن ما يسمى « بقانونية الشيئ » وجبرية الشيئ » تفهم على أنها حقيقة الإنتاج المعاصر ـ أو انها جوهر الحضارة التقنية ـ العلمية. إن آلية المجتمع،

(١٠) المصدر نفسه؛ ص ٤٤٩ .

كما يفـهم من هذه النظرية، تتم وفق حتـمية « جبـرية الشـيئ » «وقانونية الشـيئ » على أنهـا واقع المجتـمع المعـاصـر. إنطلاقاً مـن هذا المبدأ يفـهم المجتمع الصناعي المعاصـر بأنه لا يعرف علاقات استغلالية وتسلط، بل إنه مـجتمع متكافل متجانس يؤدي وظيفة واحدة ألا وهـي الحفاظ على التطور وعمل التقنية الناجح. إن المشاكل الإجتماعية المعاصـرة من منظور « جبرية الشيئ » و «قانونية الشـيئ » نتاج الحـالة الصناعيـة التي تخلقـها التقنية وليس النظام السـيـاسـي القـائم، أي أن الرأسـمـال والمؤسسـات الصناعيـة الكبـرى والدولة لا شـأن لـهـا بما يجـري في المجـتـمع، ذلك لأن المشـاكل والصـعوبات من نتاج التطور العلمي والتقني وحده. إن ما ينسب لرأسمالية القرن التـاسع عشـر ـ كما يعرض الفكر الإجتماعي المعاصـر ـ لا يمكن أن ينسب إلى الحضارة التقينة ـ العلمية، لأنها ليست رأسمالية.

السؤال الذي يمكن أن يطرح بخصوص « قانونية الشيئ » و « جبرية الشيئ » هـو كيـف يمكن أن يخفـى خلف مفهــوم « سـيادة التقنيـة »، أو « التراكيب الخـارقـة القوية » « لجبرية الطابع التقني » و « جبرية الشـرط الشيئي »، للجـهاز المخصص للسيادة الطبقية، أو لسيادة الأفراد والفئات، من دون أن تناقش. إن مناقشـة « جبرية الشـيئ » و « سـيادة التقنية » بدلا من سيادة الأفـراد، أو الطبقات أمر غير مقبول، ومن الممكن الاعتراض على هذه النظرية بفروض مضادة. توجد خلف الارتباط الشيئي الوهمي السيطرة الشـخصـية للطبقات المنتفعة التي لا تظهر هكذا واضـحة بشكل ظاهر. إن مـفـهوم « سـيطرة التقنية » يخـفي وراءه الأسـيـاد ويحمـيهم، أي أنه يخـفي الطبيعـة الطبقية للمجتمعات التقنية. إن هذه الأفكار تمثل في النهاية عقيدة الفئـة الرأسـمـاليـة التي تحـاول أن تخفـي علاقـة السـيـادة الحقيقـة لإسلوب الإنتاج الرأسـمـالي ـ المدني، كما ويصـاغ ويوضـح في الوقت ذاته « لا ذنب »،

أو « عدم انحياز » التقنية. التقنية وسيلة في يد الإنسان للاستخدام من أجل أغراضه الخاصة. إن ارتباط التقنية والسيادة (« التسلط ») يكمن في علاقة الوسيلة ـ الغاية. التسلط (السيادة) بواسطة التقنية ممكن، لكن تسلط التقنية غير ممكن، إنها تكون بذلك عقيدة (إيديلوجيا) لا غير[١١].

لا يقبل أنصار « جبرية الشيئ » « وسيادة التقنية » بهذا النقد، لأنهم لا يتعاملون مع واقع عيني محسوس، وإنما يتبعون منطقاً فلسفياً. هذا المنطق هو الذي ينتج هذه الأفكار، التي يجب أن يكيف لها الواقع وليس العكس. وكما بينا أعلاه فإن التقنية لا تفهم « كوسائل انتاج فقط » « وإنما » تنظيم كمنهج للسيطرة ولإنتاج العلاقة الاجتماعية، وتبرز التقنية كذلك على انها انتاج وتسيير للحياة الباطنية ـ النفسية للإنسان. لقد صار المخلوق خالقاً. ما خلقه الإنسان بقواه العقلية وما جسده في فاعليته يتسلط بالتالي على الإنسان ويتحكم بوجوده. لكن انصار هذه النظرية لا يرون تناقضاً في منطقهم لأن العلاقة بين التقنية والإنسان تفهم كنوع من التأثير المتبادل، حيث لا وجود للتسلط و السيطرة؛ إن الإنسان يتحقق في التقنية، والتقنية بالإنسان، وهذا يعني أن إنسان المجتمع المعاصر ينتج « قانونية الشيئ التقنية » على أنها علم وعمل. من هذا يفهم أن واقعة المعرفة قد صارت في عموميتها عملية تقنية منظمة اجتماعياً، ولذا فإنها تصور الإستعمال التقني والصناعي والعسكري المعروف من التركيب الهائل اجبارياً واجتماعياً في المجتمع التقني المعاصر. لكن ما هي الكيفية، أي كيف ؟ من الممكن ان يعمل من القسم الثاني للتماثل المقترح وأن يطرح المسار الإجباري الإجتماعي « للتركيب الشيئي » مع تضميناته اللاديمقراطية موضع تساؤل؛ لكن التابع هو القسم الأول للتماثل. عندما صارت « واقعة المعرفة » عملية « منظمة

---

(11) Ulrich, Otto; Technik und Herrschaft, Suhrkamp, 1977, S. 42.

اجتماعيا » يتوجب أن يكون السؤال علميا وسياسيا إلى حد لا تكون المصالح الإجتماعية الخاصة التي تؤثر على العملية الإنتاجية من أجل انتاج المعارف العلمية، وأن تعثر على مدخل الى التراكيب المعرفية للمعرفة العلمية ذاتها. عندما يمكن أن « تؤدي العملية التقنية ـ العلمية للإنتاج إلى الإجبار الإجتماعي، ويطرح سؤال مفاده : كيف تحل الوقائع العلمية وأنواع الوقائع التقنية بديلاً للقرار السياسي والتسلط في المجتمع التقني المعاصر ؟ والجواب هو أن تعمل على وضع النظام والمعايير، ذلك لأن المجتمع التقني من منظور هذه النظرية هو مجتمع ديمقراطي حر حقق جماعية مصالح البشر؛ أما فيما يتعلق بالتسلط والقوة فإنهما لا يمثلان بالتالي إلا سيادة العقل.

إن الحضارة العلمية ـ التقنية، هي عقلنة الواقع والحياة البشرية. في فكرة الديمقراطية والمطالب الناشئة عن عصر التنوير تنبذ العلاقة المباشرة بين الناس كتسلط وسيطرة وتربط بواسطة الأنظمة والمعايير والقوانين العقلانية اللاشخصية . وفي سيادة القوانين يجب أن يكون في الوقت ذاته سيداً وعبداً، ويخلق القرار والتأثير على أصحاب القوة والخاضعين لها.

استطاع هذا النوع من اللاتسييس أن يوضح بأن التقنية المتطورة مستقلة بواسطة فرض « جبرية الشيئ التقني »، وفي النهاية يقود إلى قاعدة شرعية لتسلط المصالح الحرة، بحيث يعمم مفهوم التقنية أيضا قواعد العلاقات الإجتماعية. ولا تحتاج التقنية العصرية إلى شرعية، لأن الانسان يسيطر من خلال التقنية. لأنها تعمل بشكل جيد فإنها لا تحتاج إلا] إلى قرار المبادئ التقنية. من هذا تستخلص النتيجة على ضوء منطق النظرية الاجتماعية الغربية وهي أن الحضارة العلمية ـ التقينة، عصر جديد حيث توجد غايات الناس، الدولة والمجتمع في تناسق. والمجتمع التقني المعاصر

وفق هذه النظرية ليس مجتمعاً سياسياً، والدولة لا تمتلك بذلك وظيفة سياسية، كما لو أن التقنية هي التي تنظم حياة الناس، وهي التي تقرر نيابة عن الدولة على أساس أن التقنية تنظم الحياة الاجتماعية وترسم معالم الحياة الروحية والنفسية للمجتمع؛ وبناءً على ذلك تقوم عدالة المجتمع وديمقراطيته، ذلك لأنه لا وجود لمالك وعامل، مستِغل ومستغَل، وهذا ينافي الحقيقة. إن « قانونية الشيئ » و « جبرية الشيئ » و « سيادة التقينة » تفهم وكأنها القوانين المتحكمة الأساسية في المجتمع. وكما بينا، فإن خلف هذه اللوحة تختفي العلاقات الطبقية غير المنظورة. الديمقراطية التي تقوم على هذه الأسس ليست إلا « دكتاتورية مقنعة » تمثل مصالح الطغمة المالية والمؤسسات الصناعية الكبرى. توفر الديمقراطية الغربية للنظام الاقتصادي القائم حرية مطلقة كي يعيد بناء وتركيب المجتمع وقيمه وعاداته، ومن ثم ضمان الربح تحت مصطلح اقتصادي هو « جبر الشيئ » و « قانونية الشيئ » و « سيادة التقنية» على أساس أن ما يحدث في المجتمع هو نتاج التصور التقني، الضروري من أجل ديمومة الاقتصاد والتقدم. هكذا تبدو ضرورات الحياة والإنسان والمجتمع تقنية ـ علمية للدولة والمؤسسات في خلقها(*).

على الرغم من أن الثورة العلمية ـ التقنية غيرت الكثير في التركيب الاجتماعي، فإنه من الصعب قبول فكرة نشوء علاقة جديدة بين الناس من خلال تعميم الحضارة القنية ـ العلمية بحيث تزول علاقة التسلط فيما بينهم، وتبرز المعايير السياسية والقوانين « قانونية الشيئ » بديلاً لارادة الشعب السياسية. وتبرز « قانونية الشيئ » التي ينتجها الإنسان كعلم وعمل. طبقاً

* كيفما اتفق يبقى هذا هو الأحسن و الذي يستجيب للمطالب النفسية والاجتماعية لأفراد المجتمع.

لهذا الفهم وهذا الوضع تفقد الدولة طابعها السياسي وتصبح اكثر تقنية؛ تنبثق الدولة من القاعدة التقنية الاجتماعية والسياسية. وهذه النظرة لا تتطابق مع طبيعة الدولة الحديثة، حيث صارت التقنية اليوم وسيلة في أيدي الدول للابتزاز والتسلط وخلق نوع جديد من العلاقات الإستعمارية. لوسلمنا بأن التقنية تحدد وتعين الشروط الاجتماعية للأمة، فإن وظيفتها كوسيلة استغلال واستعباد للشعوب الأخرى في ايدي الحكومات الصناعية. إن الدولة الرأسمالية بسبب التقنية قسمت السوق العالمية كل حسب حالتها ليس من منظور اقتصادي فقط، وإنما من منظور سياسي، ايضاً، حيث تستخدم الدول الصناعية التقنية كوسيلة للابتزاز من اجل الاستحواذ والسيطرة على ثروات الشعوب وجعلها من بعد سوقا اقتصادية لتصريف منتوجاتها. إن هذا في اغلب الأحوال ليس مطلبا للتقنية وإنما مطلباً سياسياً للدولة التقنية.

تعد الأسباب التي تطرحها النظرية الإجتماعية اسباباً بصدد سيادة التقنية و اضفاء الطابع التقني على الدولة. وينحصر في انه عندما تبلغ الوسائل التقنية تأثيراً معيناً - بحيث تمكن من التأثير على الناس وعلى الشعب وعلى البحث العلمي والتعليم و الإعلام - تكون الدولة في صورها المختلفة حاملة للتقنية. الأمر الآخر هو انصهار الدولة والتقنية المعاصرة في النفقات المالية التي يتطلبها تطور التقنية الحديثة، الاستثمارات من القوة العامة للأمة، وكذلك تتبنى الدولة لأسباب تقنية تنسيق التقنيات المختلفة لمجتمع اليوم.

## التقنية والدولة التقنية ومشكلة التسلط والسيادة

لقد صارت التقنية، حسب النظرية الإجتماعية الغربية، المنقذ الذي حرر المجتمع الغربي وإنسانه من الصراع و الاضطهاد، حيث اخذت التقنية على

عاتقها مهمة تحرير المجتمع والإنسان. على هذا الأساس يرتبط مستقبل ومصير الإنسان بالتقنية. التقنية وحدها كفيلة بتدمير أو تحقيق طموحات الإنسان والمجتمع. نلاحظ أن الفكر الغربي يسبغ على التقنية معنى غيبياً. إن صور الإيمان الديني المختلفة التي عرفها انسان الحضارة الغربية تحولت هذه المرة إلى صورة التقنية. تحاول النظرية الاجتماعية الغربية المعاصرة نقل الفطرة الدينية في الإنسان من الله إلى التقنية، كما لو ان التقنية هي الحاضر الإلهي. نحن نرى بأن التقنية تكتسب صفات وخصائص الروح، وهي حسب هذا الرأي استطاعت ان توحد المصالح المتضاربة في الأمة وتحولها إلى نوع من التكافل الاجتماعي، حيث انها، كما تدعي النظريات الغربية، اضعفت النظام السياسي وكيان الدولة التي تتحكم بالمسار السياسي - الإقتصادي للمجتمع بدلا من الدولة والأحزاب، وخلقت بذلك حالة جديدة انصهرت فيها مصالح الأفراد لأنها ألغت تسلطهم على بعضهم البعض. إن رأيا في الدولة لا يمكن أن يجد مثيله إلا في الفكر الديني، سواء كان ذلك نظرية لاهوتية، أو نظرية فلسفية صوفية، حيث تختفي التناقضات وتحل بدلاً منها حالة من الوئام والمصالحة الاجتماعية. بهذا تصبح مصلحة الفرد مصلحة الدولة ذاتها و بالعكس. الدولة هي المجتمع، والمجتمع هو الدولة. نحن لا نعرف للآن دولة عبر التاريخ لا قديما ولا حديثا مثلت المجتمع أو صارت تجسيداً له، بحيث تتفق مصالح الأفراد مع الدولة بشكل تام. إن هذا الاعتقاد يعود إلى أن الدولة توحد في ذاتها أصلا جميع صور التقنية في تأثيرها المتطور كنشاط دولة ؛ إنها ترى في الدولة التقنية الحديثة التي لا تسعى الى المنافسة مع الدول الأخرى من أجل السيطرة على الأسواق وعلى البلدان كمستعمرات، بل هي منافسة من أجل أن تكون طليعة في انجازها التقني - العلمي، أي أن غاية الدولة التقنية المعاصرة ليست توسعية، وإنما هي فاعلية التحقيق العلمي - التقني. إن التقنية هي

المؤسسات الصناعية بالدرجة الأولى والتي تملي على المجتمع و على الدولة شروطها من أجل ضمان حالة مثلى لمواصلة التطور وضمان الربح الدائم. ووسيلة الابتزاز والاستغلال العصرية هي التقنية التي تحل محل المدافع والجيوش. فالحرب الاقتصادية ضد الشعوب المتخلفة خلقت في هذه البلدان مشاكل لم تعرفها من قبل. إن تأثير الإعلام العالمي والدعاية والغزو الثقافي مع وجود أنظمة متخلفة وخادمة لمصالح الأجنبي تسببت في حالة من الفوضى والابتزاز لهذه البلدان لم يعرف لها مثيل من قبل. لقد خلقت في هذه البلدان انماطاً من الحياة الاستهلاكية لا تتناسب مع الطاقات والقدرات المالية، أو العلمية، أو الاقتصادية، أو الصناعية. إن الدولة التقنية العصرية أكثر عدوانية من جميع أنماط الدول السابقة، لأن اوضاعها الاقتصادية والإجتماعية والسياسية تقوم على عملية النهب المنظمة التي يمارسها النظام الاقتصادي العالمي الجديد غير العادل، فاقتصاد البلدان الصناعية يعتمد بالدرجة الأولى على تصدير المنتجات للبلدان الأقل تطوراً. والاقتصاد الصناعي المعاصر لا يعرف حدوداً ولا يوجد بلد صناعي ينتج لنفسه، وإنما ينتج للعالم اجمع. المستفيد من هذا الوضع هو مجموعة بلدان تحتكر العلم والتقنية. فدولا مثل اليابان، الماني، وأمريكا تنتج ٥٤٪ من الإنتاج العالمي؛ كما تستهلك مجموعة صغيرة من البلدان المصنعة أكثر من ٨٠٪ من إجمالي الطاقة، في حين لا يستهلك العالم المنتج لموارد الطاقة كالنفط، الفحم، والمحروقات الأخرى شيئا يذكر. إن هذه الدول تسعى جاهدة للحفاظ على هذه الحالة. ونظرية الدولة التقنية الغربية لا تمثل دولة واقعية، وإنما هي فكرة دولة مجردة، لا تجد ما يماثلها في واقع الدول التقنية الأوربية. إن الدول الصناعية الغربية استطاعت للأسباب التي ذكرناها أن توفر لمواطنها رخاءً اقتصاديا، لكن هذا لا يعني أن طبيعة الدولة قد تغيرت. فالدولة الصناعية الغربية هي دولة رأسمالية؛ إنها تمثل من وجهة النظر الاجتماعية

الغربية النموذج الأرقى والأمثل للدولة، كما تحاول أن تبين بأن هذه الدولة ظاهرة أوروبية؛ إنها امتداد للنظريات السابقة التي تعالج التاريخ والأنظمة الاجتماعية ـ السياسية والدولة من منظور « المركزية الأوروبية ».

إن الدول الصناعية المعاصرة الغربية تسعى جاهدة للتأثير على الحالة السياسية و الإلاقتصادية للبلدان التي لا تمتلك مثل هذه الإمكانيات. انها تعيد بذلك بناء الدول المتخلفة سياسيا واقتصاديا لما يتناسب مع مصالحها الخاصة، أي أنها تجعل من هذه البلدان بيئة، أو محيطا تدور في فلك الدول الأوربية المصنعة*. لهذا يلاحظ أن أغلب بلدان العالم المتخلف في آسيا، افريقيا، وأمريكا اللاتينية فقدت استقلالها السياسي والاقتصادي، بحيث أن جميع الأنظمة والحكومات ما عادت قادرة على التحكم في أوضاع بلدانها، لأن القرار النهائي ليس بيدها بل بيد الدول الصناعية المتطورة. إذا كانت الدولة الغربية قد فقدت بعض نفوذها وتأثيرها على الحياة العامة داخل بلدانها، فإنها غدت أداة لخدمة المصالح الاقتصادية للمؤسسات الصناعية الكبرى والمالية. وعلى هذا الأساس تصبح الدعاية الغربية للديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان دعوى فارغة عديمة المحتوى والمعنى. لان الدولة الحديثة خادمة للتقنية، وجهازها السياسي المتمثل في الأحزاب ليس أكثر

---

* أوروبا وأمريكا لم تستثمرا اقتصاديا إلا في البلدان التي يعيش فيها تجمع أوروبي في بعض بلدان أمريكا اللاتينية، أما بلدان شرق آسيا فإن اليابان بالدرجة الأولى هي التي خلقت عندهم هذا الانتعاش الإقتصادي. ورغم الثروات والإمكانيات المادية والبشرية الهائلة في « العالم الإسلامي » إلا أنه لم يتم فيها أي استثمار حقيقي حتى هذه الساعة، وبقيت اسواقا استهلاكية للبضائع الغربية. إن هذا كما اوضحنا أعلاه قرار سياسي اتخذه العالم الصناعي الغربي المسيحي ضد العالم الإسلامي. تغيير الحالة ممكن عندما يظهر لهذه البلدان موقفا موحدا تجاه هذه الحالة، وخلق نوع من التكامل الاقتصادي فيما بينها بغض النظر عن الإمكانيات العلمية والتقنية، لأنها لو بقيت هكذا مفككة ومتعادية فإنها عديمة الشأن والنفوذ، لا سيما أن الغرب لا يعرف ولا يحترم إلا القوة.

من جهاز في خدمة المؤسسات المالية و الصناعية. التعددية الحزبية وحرية الانتخاب شيئ صوري خالص، لأنه لا الحزب ولا الجهاز الدولة هو الذي يتحكم بمسار التطور الاجتماعي، وإنما الجهاز الصناعي والمالي اللذان يحددان للناس ظروف حياتهم ومعيشتهم ونمط الاستهلاك وكميته. الدولة جهاز يساعد الجهاز الصناعي والمالي في توزيع الثروة والدخول التي حددتها المؤسسات المالية والصناعية. لقد صارت الدعاية للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان أساليب لابتزاز بلدان العالم المتخلف، ولها بالتالي تأثير سلبي على المجتمعات التي فقدت استقلالها الاقتصادي والسياسي، وهو ما تظهره أوضاع البلدان المتخلفة حيث صارت الدعوة للديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان وسيلة استعباد للسواد الأعظم من الشعوب ومنفعة لمجموعة من الأفراد التي تمثل مصالح الرأسمال العالمي وليس مصالح بلدانها نهبت تحت ستار التطور والحداثة. هذه البلدان اغرقت بالديون، ولم يكن هذا نتيجة للتطور، وإنما هو التخطيط الذي تسعى له البلدان الصناعية للتحكم بمصادر الثروة والأسواق.

الديمقراطية والحرية الغربية، هي ديمقراطية الجهاز الاحتكاري، وتحرك الدول الصناعية مسار تطور الأحداث في العالم، وتبرمج العالم على النحو الذي يخدم مصالحها، وهي التي تخلق وتتسبب في الأوضاع السياسية العالمية، لهذا فإنها ليست عرضة للخطر، لعدم وجود قوة مضادة حقيقة قادرة على ردع هذه الأنظمة. وعندما شعرت البلدان الصناعية الغربية بأنها من الممكن أن تُهدد من الشرق ( الكتلة الشرقية )، مع العلم أن هذه الدول أضعف من أن تهدد البلدان الصناعية الغربية، نجدها لا تدخر وسعا في محاربة هذا النظام سياسيا واقتصاديا وعسكريا، حتى أودت به، وعادت بعد ذلك للبحث عن عدو جديد شخصته في العدو التاريخي القديم ألا وهو العالم العربي - الإسلامي.

إن فكرة الدولة التقنية اللاسياسية هي فكرة وهمية تتستر على حقيقة النظام الاحتكاري القائم. فرجل الدولة وفق النظرية الاجتماعية الغربية في الدولة التقنية ليس « مقررا » ولا « متسلطاً »، وإنما هو « مخطط »، «محلل»، « مصمم » « ومنقذ ». أما « السياسة في معنى تكوين الإرادة المعياري فإنها تسقط تماماً من ميدان رجل الدولة مبدئياً، السياسة تهبط إلى درجة وسائل مساعدة بالنسبة لعدم كمال « الدولة التقنية »[١٢]. معنى ذلك أن رجل الدولة لا يمتلك وظيفة سياسية، بل إن مهمته تنحصر في سد نقائض الدولة التقنية، أي أن عمله متمم لعمل التقنية. هنا نرى البعد الغيبي الذي يمنحه الإنسان الغربي للتقنية، ذلك لأنها صارت كل شيئ. لقد اقتحمت التقنية جميع مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية ولم يبق له ما يفعله. التقنية تقرر مصير البشر؛ وهي القوة التي لا عهد للإنسان بها من قبل. إن سيادة التقنية تلغي سيادة الإنسان، بمعنى ليس الإنسان من يقرر وإنما التقنية، أي أن التناقض ينشأ بين قانونية الجهاز والوضع المطابق له كضرورة شيئ يشير هذا إلى أنه لا وجود لتسلط الأفراد في الدولة التقنية. أي لا يتسلط أحد على أحد، وإنما تعمل أجهزة للخدمة بشكل عام إذا كان رجل الدولة وجهاز الدولة عامة والأحزاب، لا تمتلك سلطة حقيقية ولا تأثيرا، ولا يمكن أن تتخذ قرارا، فكيف يمكن الحديث عن الديمقراطية والحرية في هذه المجتمعات. أليست الديمقراطية والحرية نوع من خضوع المجتمع المنظم لمتطلبات و شروط التقنية، التي تتحكم بها وتحدد معالمها مصالح المؤسسات الكبرى الصناعية والمالية. إن النظام الغربي « نظام رأسمالي، اقتصاد سوق، ملكية خاصة ومؤسسات حرة، هذه هي القاعدة»[١٣]. إذا كانت مهمة هذه الدولة حماية هذه المصالح فإنها لم تعد جهازا لا سياسيا، بل أداة في

(12) Schelsky, H.; der Mench in der wissenchaftlichen Zivilisation, S. 456.

(13) Albert, Michel; Kapitalismus contra Kapitalismus. Campus, 1992, S. 105

يد أصحاب رؤوس الأموال والمؤسسات؛ و كما يقول ميخائيل البرت: « إن الرأسمالية توجد في أيدي المصارف »[١٤]

الدعاوى النظرية والدساتير الغربية بصدد الديمقراطية والحرية باطلة، لأنها سنت لكي تلائم الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي القائم في هذه البلدان، أي انها تضمن مصالح الجهاز المالي والمؤسسات الكبرى بالدرجة الأولى. إن الأنظمة الدستورية والقانونية جسدت مصالح القوى الفعالة التي تمتلك بيدها عصب الحياة والمال والتقنية. إذا تجلت هذه الحالة مرضية ومقنعة في المجتمعات الغربية فإن مرد ذلك لا يعود إلى العدالة والحرية، وإنما لوجود فائض مالي قادر على أن يسد الحاجات الإستهلاكية للمواطنين. لهذا السبب تبدو قوانين المجتمع التشريعية والتنفيذية مقبولة من السواد الأعظم من الناس لوجود الوفرة المالية. لهذا يصرح انصار هذا النظام بأن المجتمع الصناعي المعاصر تغلب وقضى على علاقات التسلط التي عرفتها الأنظمة القديمة. التسلط (السيادة) في المؤسسات الصناعية يتجلى في صورة سيطرة وأوامر حيث تتراجع القرارات الشخصية أمام الوقائع، أي بدلا من انضباط التسلط ينشأ انضباط الشيئ. ولهذا تعلق النظريات الاجتماعية المعاصرة بأن ديمقراطية وحرية المجتمع وغياب التسلط الفردي تعود بالدرجة الأولى إلى أن المجتمع التقني يحتفظ بكل التشكيلات الإلاجتماعية والطبقات التي عرفتها الرأسمالية في مراحل تطورها الأولى، على أساس ان وجود هذه الفئات والطبقات لا يؤثر على آلية ونشاط المجتمع التقني، لأن من يسيّر هذا المجتمع هو التقنية. وترفض نظرية « المجتمع التكنوقراطي » القائلة بأن من يسيّر المجتمع هو طبقة المهندسين، أي الطبقة التي تشرف مباشرة على تسيير عمليات الإنتاج. إن عملية التسيير العلمية ـ التقنية،

---

(١٤) المصدر نفسه؛ ص ١٠٥ .

تفرضها شروط التطور التقني ذاته وليس الإنسان المهندس، أي كلما كان العلم و التقنية اكثر تطورا كانت مشاركة الجهاز السياسي والإداري أقل. لأن هذه النظريات لا ترى امكانية تدخل جهاز الدولة في رسم وتحديد مسار التقنية، وإن بدت أحياناً بعض الفعاليات الوهمية من قبل هذا الجهاز. بالقدر الذي يستعمل الجهاز الإداري التقنية العلمية المعقدة فإن هذا يدل على قانونية الشيئ المعقدة ألتي تسن وتحدد طريق حل المهمات السياسية. بهذا تصير الدولة وجهازها عمل متمم لعمل التقنية. إن الدولة التقنية العصرية ليست دولة سيادة التقنية وإنما دولة مالكي التقنية. إن « سيادة التقنية » مصطلح وهمي، لكن السيادة « والتسلط عن طريق التقنية » هو المفهوم الحقيقي لواقع المجتمعات الصناعية. عندما أصبح العلم قوة منتجة أساسية من خلال تجسيد العلم في التقنية، فإن هذا لا يعني أبدا أن التقنية هي التي تحدد طبيعة المؤسسات الصناعية ، والحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية. ان التطور التقني أساسي في تحديد نوعية المنتجات؛ لكن التقنية ذاتها لا تمتلك ذوقا، ولا هي التي تدرس حالة السوق، بل تحدد من قبل المالك والجهاز المالي. تدرس المؤسسات الصناعية حالة السوق وإمكانيات ونوع الاستهلاك وليس التقنية، وتهتم المصارف بالشؤون المالية للمؤسسات، وتصبح أحيانا المؤسسة الصناعية ذاتها مؤسسة مالية. في المانيا لا تذهب المؤسسات إلى سوق الأسواق المالية (البورصة) أو إلى العامة، وإنما إلى المصارف عندما يحتاج إلى المال يعرف كل شخص بان المصرف الألماني يتحكم بجزء أساسي من الاقتصاد الألماني، أو مصرف درسدن، أو المصرف التجاري. تمتلك أغلب المؤسسات . مصرفها الخاص الذي يدير لها شؤونها المالية. ويتم كل شيئ كما لو ان المصارف تريد أن تقول: انتجوا أحسن، بيعوا أكثر، ولكن دعوا لنا تنظيم الشؤون المالية. وبإمكاننا القول: إن المصارف

(وشركات التأمين) تمتلك مؤسسات صناعية خاصة بها ».[١٥] لذا فإن مفهوم « سيادة التقنية » يخفي خلفه الطبيعة الحقيقية للرأسمالية الحديثة.

إن احتفاظ وعدم مكافحة المجتمع التقني للعقائد الفكرية المختلفة القديمة والحديثة، وكذلك ديمومة وبقاء الطبقات الإجتماعية القديمة، لا تنبع من طبيعة الديمقراطية، لأن هذه العقائد والطبقات أصبحت عديمة التأثير والفاعلية في عالم اليوم. إن العصر التقني ـ العلمي حصر الوظائف والمهمات الاجتماعية في أيدي المؤسسات الصناعية والجهاز المالي بحيث يصبح من المتعذر على فئة أو طبقة اجتماعية القيام بتغيير في بنية المجتمع، لأنها لا تمتلك القوة والوسائل، ومن ثم تجهل حقيقة الشؤون المالية والصناعية. إن ضخامة « الرأسمال » و « عالميته » تجعل امكانية التحكم به والسيطرة عليه من قبل أي نظام سياسي أمراً غير ممكن؛ ولو شاء نظام معين التدخل في شؤون المؤسسات ورقابة الجهاز المالي فإنه لن يحقق شيئا. يمكن تصدير المال إلى جهات وبلدان أخرى بحيث تخلق في الحال أزمة مالية ومن ثم اقتصادية تطيح بالنظام بسبب ما يمكن أن تحدثه هذه المؤسسات من خلل في عملية الاستهلاك وسوق العمل، ويصبح الشعور بعدم الرضى عارما، ويؤدي بالتالي إلى اسقاط النظام. ان الخطر الذي تراه المؤسسات والجهاز المالي يكمن في إمكانية التدخل في شؤون هذه المؤسسات الصناعية والمالية.

إن الجهاز المالي والمؤسسات تطلب لنفسها حرية مطلقة من دون أي تأثير خارجي، لهذا يعلن بعضهم أن المؤسسات تمثل الصالح العام ولم تعد رأسمالية كما في الماضي. إن الشعور بالرضى لدى الإنسان الأوروبي لا يعود إلى صلاح هذا النظام، وإنما لما يوفره للمواطنين من مال عن طريق

---

(١٥) المصدر نفسه؛ ص ١١١ .

عملية النهب المنظمة للعالم. لو حدث أدنى تغيير في الميزان الاقتصادي العالمي لغير صالح هذا العالم ستنفجر أزمة لم يعرفوا قبلاً مثلها في تاريخهم. إن تدمير الأسرة، الأخلاق، والقيم وغيرها كارثة عند حدوث أزمة اقتصادية حقيقية في هذه البلدان، قد يمهد لأفول أوروبا، أو قد تتسبب في حرب كونية من أجل الاحتفاظ بتفوقها الاقتصادي.

يحاول الفكر الغربي أن يفهم جميع شعوب الأرض، بأن أوروبا وما حققته في تاريخها يمثل حتمية التاريخ و قانونيته، ولم يتبق للشعوب الأخرى سوى القبول بهذه الواقعة. لهذا يتجلى المجتمع التقني الغربي وقيمه، وبناؤه الاقتصادي و السياسي على أنه الحالة المثلى، حالة الكمال التي تسعى لها البشرية. وعلى العالم أن يقبل بهذه الحقيقة، وأن تخضع جميع شعوب الأرض للقيم الغربية. إن ما يفهمه الأوروبي هو على النحو التالي: كل تاريخ العالم غير الأوروبي لم يصل إلى ما وصلت إليه وما حققته الشعوب الأوروبية. فتاريخ الروح الأوروبية مشبع بهذه الأفكار؛ وتاريخ آسيا لا يمثل إلا حالة من الاستبداد والطغيان، ومن ثم فإنه تاريخ لا حركي، ساكن وجامد، بمعنى أن تاريخ آسيا ليس تاريخا، وإنما هو فاتحة للتاريخ، لأن الحضارات الآسيوية لم تعرف حرية سوى حرية إنسان واحد، ألا وهو الملك، ودياناتها أسطورية، ولم تنتج علما حقيقا؛ إن التاريخ الحقيقي الوحيد واستمراريته منذ العصر القديم، والوسيط و العصر الحديث هو التاريخ الأوروبي، حيث عرف الإنسان حسب تصوراتهم الحرية، وديانة عقلية ألا وهي المسيحية، و كذلك علما حقيقيا. من هنا لن تعترف أوروبا بأية قيمة غير اوروبية طالما أنها تمسك بيدها مقاليد الاقتصاد والتقنية؛ حتى أن قضية التعايش السلمي بين هذه الشعوب غير ممكن، إن أوروبا لن تتخلى هكذا بسهولة عن دورها وتصدير ثقافتها إلى العالم الآخر. وهذا جزء من العقيدة الاستعلائية، العنصرية الأوروبية.

# الديانات المذهبية والتدمير الذاتي
# للوجود العربي والإسلام

## الوظيفة التاريخية للديانات المذهبية

من يريد فهم حقيقة الديانات المذهبية يجب أن يكون على وضوح من أنها ليست قضية أفراد لاقت عندهم استحسانا، وإنما هي نتيجة ضرورية لمبدأ التوجهات الدينية المعلنة في أزمان مختلفة ـ العصر العباسي بشكل خاص ـ التي هدفت إلى اختراق الإسلام بعدما كافح الموالي ضد العرب وضد دينهم. طرحت الديانات المذهبية التي شرعها الموالي و تعلمها عنهم بعض الغرباء فكرة وحدة الدين عن طريق تقديم تصوراتهم الدينية على انها سيرة نبوية من صلب الرسالة المحمدية، وهي تقوم عليها وحدة الإيمان. إن الموالي ومن تعلم على أيديهم شرعوا لما هو جوهري وما هو ليس كذلك بالنسبة للعقيدة الدينية، وصنفت من ثم هذه التشريعات تحت دعوى « السنة النبوية ». إنها ألزمت أنصارها، بمساعدة الحاكم بالطبع، بالأخذ بهذه المبادئ دون قيد أو شرط على أنها سنة الأولين، ولم تترك لأحد فرصة الحكم على هذه الآراء والمعتقدات تحت دعوى أن حقيقة الدين ليست موضوعا للبحث لأن هذا سيفتح باب الخصومة و الصراع فيما يخص معتقدات الإيمان، أي أنها لم تترك تعيينا لحكم الأفراد. لقد صارت قواعد الإيمان مجموعة تشريعات فقهية تنسب إلى صاحب الدعوة، ولذا فإنها صحيحة بالضرورة؛ إنها الطريق الصحيح الذي لا يخطأ. لقد مسخ وهمش الإسلام من قبل الديانات المذهبية وتحول من روح حية تحمل في جوهرها التاريخ الكوني منذ بدايته، والذي نشأ وتطور عن الروح الدينية التي ظهرت في هذا

التاريخ كوحي، إلى أقوال وآراء مجردة لهذا الشخص أو ذاك تُقدّم على أنها سلوك نبوي. إن استعراض هذه الكتب يمكن أن يحدث اشكالية كبيرة لذا يجب أن توجد جهة مختصة بالغرض والتفسير غير القابل للاستئناف للحفاظ على وحدة الإيمان بالضرورة. ولو يضفي على هذا العرض والتفسير فهما إنسانيا، ستكون عندها التضحية بالعقل مطلب قوي؛ لكن الديانة المذهبية تفترض أن هذا يجب أن يكون في مصلحة الإسلام والسنّة النبوية، رغم أنها، وهي المنبوذة وبلا روح والتي شغف بها البعض، قبل قرون، أصبحت اليوم شيئا بائسا. ولذا فإن الروح الدينية الإسلامية لا تتلائم مع إلهام أصحاب المذاهب وأنصاره، ويصبح الانتماء إلى أصحاب المذاهب بدلا من صاحب الدعوة. إنهم ينسبون وحدة إيمانهم إلى الرسول (ص) من دون معرفة ومقياس معتمد بدلا من أن ينسبوها إلى أصحاب هذه المذاهب كي لا يتهموا الزندقة . وينجم عن هذا أن رجال الدين هم أصحاب الأمر والنهي، وهم المسؤولون الذين لا يُعترض على أقوالهم لأن وحدة الإيمان لا يمكن أن تضمن إلا عن طريق التمسمك بالإجراءات والقرارات التي شرعها أصحاب المذاهب من أجل وحدة الإيمان. والإقرار بإمامة حافظي الإسلام وشرعه عن طريق اتباع السنة النبوية وتجعل أقوالهم وتصوراتهم عن الإسلام بمصاف وحي صاحب الرسالة الذاتية، ليس هذا فحسب بل يضعون أنفسهم فوق الصحابة لأن الصحابة كانوا قليلي التعليم أو أميين في حين أنهم درسوا بطريقة أو بأخرى على يد معلم. ومع مرور الزمن وتراجع الحياة الثقافية والدينية أصبحت تصورات أصحاب المذاهب غير قابلة للخطأ، وأصبحت تاجا وأساسا لوحدة الإيمان؛ والكلام موجه ضد أفكارهم وتصوراتهم جحود وكفر بالنسبة لأولئك الذين يرون في تصوراتهم الصحة والإلتزام الصحيح بالسنة النبوية بغض النظر عما فعلوه وشرعوا له. من يحتج على الشريعة

المطلقة ويدافع عن البحث الحر وحرية الوجدان الدينية لن يكون باستطاعته الإيمان بتشريعات الديانات المذهبية. لما كانت وظيفة هذه المذاهب الدينية باطلة في الماضي فمن الصعب اليوم - بغض النظر عن جميع الأمور و الملابسات - الإقرار بصلاحيتها للعصر الراهن دينياً واجتماعياً واخلاقياً. لقد انشأت الديانات المذهبية صورا دينية تاريخية عاشت إلى جوار الإسلام وباسمه، وقامت على تصورات دينية مختلفة أُلبست رداءً إسلاميا.

إن أتباع هذه المذاهب لا يلاحظون أن إيمانهم بصدق التشريعات التي يقيمونها في بيئتهم وفي أسرهم وفي المساجد يقوم بشكل استثنائي على تصورات أعجمية بعيدة الصلة بالعرب وبالرسالة المحمدية. إنها لا تتمثل حقيقة الروح الدينية العربية الإسلامية، كما أنها ضعيفة الصلة بالأعراف والعادات العربية. إن الديانات المذهبية وتشريعاتها الأعجمية موجهة في صلبها ضد العرب والإسلام؛ وكانت وسيلة هدم وتدمير للصرح الإسلامي والكيان العربي .

لم تكن التشريعات المذهبية نتيجة لبحث مشرعيها الحر و الواعي، والذين اعتقدوا بأنهم يستنسخون المبادئ الصحيحة للعقيدة الدينية الإسلامية التي يعرفونها هم كانت على حساب الإسلام والعرب. إن المذاهب الدينية وتشريعاتها عملت على الفصل بين التأمل الديني والروح الدينية الإسلامية، وقطعت صلتها بالوجود والتاريخ العربي الإسلامي، وارتبطت بهما عن طريق رباط واه ألا وهو الأحاديث النبوية. وضعت الديانات المذهبية الدين ضمن حواجز ضيقة لا يجوز تخطيها. وحنط أتباعها الإسلام وحولوه إلى مومياء، أي أنهم قتلوا فيه الروح. ومنذ ذلك الحين يعمل الناس طبقاً لهذه التشريعات التعسفية على أنها حدود اللّه ولا يجوز تخطيها، وبهذا سارت الديانات المذهبية باتجاه والحياة البشرية بالاتجاه المعاكس. وخلقت الديانات المذهبية وضعا محرجا لمعتنقيها لا يمكنهم تخطيه، وبذلك تخلفوا باسم الإسلام عن ركب الحياة.

بدأ الناس يمارسون التفاهات والشعوذة باسم الإسلام. وهزت الحالة الكيانات الدينية والأخلاقية والاجتماعية، وتبلور وضع اجتماعي جديد يقوم على صراع الكل ضد الكل. وصارت البلدان تجمعات عرقية ودينية مذهبية تحارب وتكفّر بعضها بعضا. وبدأ الناس يشرعون ويحكمون باسم الإسلام كل على هواه وما يستحسنه(*) ؛ وعمت الفوضى في الدين وجميع الميادين الأخرى. لقد أصبح كل رجل دين يحكم بما يراه مناسباً ومفهوما له بحيث يحصل الإنسان في هذه الحالة على حلول متناقضة لنفس القضية من رجال دين مختلفين، وإن انتسبوا إلى نفس المذاهب، وكلهم يدعون العمل بالقرآن والسنة. وإذا كان رجال الدين يحكمون حقاً بالقرآن والسنة فمن أين تأتي التناقضات، من الممكن تصور بعض التفاوت في الحكم، ولكن لا يجب أن يصل إلى حد التناقض. يبرهن هذا على أن الروح الي تتحكم بالدين ليست عربية بل أعجمية، وهي قادت بالتالي إلى تدمير الإسلام والعرب. إن الإسلام مقيد بأعراف وتقاليد العرب ولكن الله في الإسلام مطلق. إن الضرر الأساسي الذي خلقته الديانات المذهبية هو التضاد المطلق بين الدنيا والآخرة بحيث حولت مركز النشاط و الاهتمامات إلى عالم الآخرة، وجعلت من الحياة الدنيا مصيدة شيطانية لكي تخدع عن طريق التخفيف من التوتر الزماني القصير للنفس ونجاتها الأبدية.

من هنا ابتدأ التزييف الحقيقي للإسلام ولتاريخ العرب. فقد انشأت الديانات المذهبية المتقوقعة « ديانة كونية ظاهرية تابعة ومسلمة بالقداسة »،

(*) لقد عرضت على أبي حنيفة في زمانه ١٧ عشر الف حديث و لم يأخذ منها إلا سبعة عشر؛ وجاء من بعده البخاري بنحو نصف قرن و جمع ما يسمى بصحيح البخاري. السؤال من أين اتى بها إذا كان قد رفضها من قبله أبو حنيفة الذي عاش في العاصمة الثقافية للإسلام ألا وهي الكوفة، علما أن البخاري ليس من أهل هذه المنطقة وغريب عنها ؟

ومع الازدياد المتنامي لسلطة الديانة المذهبيـة تنسـحب وتتـراجع الديانة الإسلامية وقيمها في تجمعات وأفراد معدودين لا يملكون وزنا كبيرا من أجل التأثير على الحياة الدينية والعامة وتغييرهما؛ لذا تراجع بعضهم وانسحب من الحياة العامة ليحفظ نفسه من هذه الفتنة والخيانة. لكن مع انحطاط الأنظمة والحكومات في العصر الوسيط، بسبب التزييف الديني والاجتماعي، وهيمنة المصالح الفردية الأنانية من ناحية، وتقوية النفوذ الأجنبي وتأثيره في السلطة تصدعت وانهارت الديانات ذاتها رغم بعدها عن روح الإسلام وتمثلها لمصالح الفئات الحاكمة. وما عادت هناك إمكانية اصلاح للمذاهب والأنظمة العاملة بها؛ واية محاولة من هذا القبيل محكوم عليها سلفا بالفشل بسبب تنامي الاغتراب عن الأفكار القيمة المعنى الإسلامية(*). ومع ذلك صارت الدعاوى للإصلاح قوية إلا أنها لم تفعل أكثر من تدمير ما كان قائماً، ولم تقدم بديلاً آخر أيا كان. لقد دمرت الحركات الإصلاحية والمعارضة ما كان قائما، وانسحقت معها التصورات والتشريعات الدينية المذهبية التي كانت تمثل الهيكل الذي تعيش فيه الديانات المذهبية الظاهرية، ولم تبق سوى كيانات دينية مذهبية متهافتة تفقد صلتها بالدين، وتصبح أكثر ارتباطا بالقضايا الدنيوية، أي أنها تمثل فكر وأداة السلطة الحاكمة التي لا شأن لها بالدين وبالقيم والشرائع العربية الإسلامية.

إن التشريعات المذهبية نمت وتطورت من خلال ارتباطها بأديان وقيم

* لقد منح الكثير من الأفكار الزرادشتية و المعتقدات صورة اسلامية حيث أنها عالجت المشاكل الدينية بروح زرادشتية و ليست عربية إسلامية. فنسبوا بعض معتقداتها إلى الأحاديث النبوية منها مثلاً « عدم جواز المشي بفردة حذاء واحدة وترك الأخرى ملقاة على الأرض ». وإلى جانب ظهرت أيضاً اتجاهات فكرية باسم الإسلام كالصوفية التي خلطت بين المفاهيم الإسلامية والأفكار الهندوسية والبوذية، كما نسبت أحاديث من هذا العلم إلى الأحاديث النبوية منها مثلا تحريم لبس الحرير الذي شاع في البوذية.

مشرعيها قبل الإسلام وبشكل خاص الديانات الزرادشتية، المجوسية، الهندوسية، والبوذية، وكذلك التشريعات القانونية الرومانية ونظام الإدارة البيزنطي. إن خلط الإسلام بالديانات والأعراف الغريبة صار أداة سياسية للحاكم لا تعنى بالدين إلا صورياً، حيث ينحصر نشاطها في تحديدها لطقوس العبادة، ولهذا ظهرت متناقضة فيما بينها . لقد تفككت المجتمعات في النهاية إلى طوائف وملل. وإن لم تقتل هذه الديانات الإسلام فقد كانت حفارة قبره.. إن الحياة الدينية الإسلامية أقفرت منذ البداية، لكن الطامة الكبرى بدأت منذ الغزو التتري - المغولي وحتى هذه الساعة، فقد استعبد العرب باسم الإسلام ولم يفعلوا شيئاً إلى الآن لا لدينهم ولا لدنياهم. هذه الحالة تسببت فيها الديانات المذهبية التي شرعها الموالي وبعض الغرباء ومعها مات العلم والثقافة، وأصبحت هذه المذاهب رموزاً للتخلف والانحطاط واندحارا للإسلام، وأصبحت الأقوام التي اعتنقت هذه المذاهب «الرأس الميت للتاريخ». إن تشريعات الديانات المذهبية التي هيمنت على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية بعد أن فرضتها الأنظمة الحاكمة على الناس بالترهيب والترغيب حصل خلالها انهيار بحيث أصبح الإسلام جثة هامدة في المعنى الخاص للكلمة، بينما حاولت الديانات المذهبية في الوقت ذاته أن تحول هذه الجثة إلى « مومياء » مع مظهر حياة خداع، لتبدو كأنها حية. لذا علينا اليوم كما فعل بعضهم بالأمس أن نشرّح هذه الجثة ولو عضواً عضواً، وأن نثبت بشكل واضح بأن هذه الديانات المذهبية ميتة و بعيدة عن روح الإسلام. لقد كانت مهمة ووظيفة الديانات المذهبية سلبية ومدمرة عندما حاولت أن تبرز بشكل حاد بعض المواقف العقائدية وأن تعمقها ( منها مثلا التشريعات القضائية، والشرعية و أنظمة القضاء...إلخ) من أجل أن تعوض بها القضايا والأحكام التي أقصتها من الإسلام خدمة لمصالحهم.

لقد أظهرت التشريعات المذهبية نزعة تدميرية للرسالة المحمدية وتشريعاتها، وبرزت بهذا الصدد من الوجهة العملية فاعلية سلبية على صعيد الأنظمة الاجتماعية و السياسية القائمة. إن الإسلام لا ينفصل عن العادات والأعراف العربية، بل إنه جعل من الأعراف العربية وصايا إلهية، بمعنى أن هذه الأعراف صارت نظاماً إلهيا وعلى العرب أن يتبعوها لا لأنها أعراف، بل لكونها وصايا إلهية، ولأن اللّه أراد ذلك. يجب أن تطاع الأعراف لأنها تمثل الإرادة الإلهية المعلنة. إن الشعب الوحيد القادر على تحقيق هذا المطلب في تطبيق والصايا الإلهية هم العرب لا غير لأن الوصايا الإلهية هي أعرافهم الخاصة. وهي القوانين الإلهية المقدسة، قوانين حياة العرب التي تمثل الأعراف التي كان فيها فخر وسعادة العرب، بينما جردت الديانات المذهبية الأفكار القيمة المعنى الإسلامية من ارتباطاتها النفسية والأخلاقية والاجتماعية العربية وحولتها إلى تجريدات، أي مفاهيم مجردة بلا محتوى، وكل منها يحاول أن يمنح هذه التجريدات محتوى خاصا مستقى من تراثه وعاداته، وهكذا تقتل روح الإسلام. إن المذاهب الدينية قطعت عمليا الصلة بالقيم والأعراف العربية التي قام عليها الإسلام، ولا ترى بذلك صلة مباشرة باللّه، بينما يطلب اللّه في الإسلام الطاعة من عباده. ماذا يراد هنا بالطاعة ؟ تعني الطاعة من منظور الرسالة المحمدية الالتزام بالعرف الذي صار وصايا إلهية. أما الديانات المذهبية فإنها تفهم تحت القيم والأعراف ما هو معروض في تشريعاتها من قبل صاحب المذهب بحيث يصير هذا الأخير بمثابة وسيط بين الإنسان واللّه، وهو تقليد لم يعرفه العرب لا في جاهليتهم ولا في إسلامهم. وكان ارتباط العرب بالوحي مباشراً عن طريق طقوسهم وأعرافهم و قيمهم. لهذا السبب تقود الديانات المذهبية إلى نتيجة مختلفة تماما عن تلك التي تطلبها الرسالة المحمدية، ذلك لأنها (الديانات المذهبية) لا يمكنها أن

تتلقى هذا من الأرادة الإلهية مباشرة. إن التشريعات المذهبية ينظر لها أصحابها كإلهام أو وحي من الإرادة الإلهية، وهكذا يُرفع وجدان صاحب المذهب إلى درجة الحاكم الأعلى والوحيد في المسائل الدينية و الأخلاقية، بمعنى أن يوضع الاستقلال العرفي في مكان الارتباطات الخارجية (القيم والأعراف العربية)، وبهذا يغادر الأرضية الإسلامية. إن النقل المدون للارتباط الخارجي إلى تشريعات و قوانين متمثلة ظاهرياً تصبح بذلك استقلالية الوعي الأخلاقي للديانات المذهبية داعية الخير وحامية الفضيلة للشعب؛ إنها تعمل بذلك على عزل الإسلام عن تاريخه وقيمه وقوانينه الخاصة، وأن يعرض الإسلام على أنه تعين ذاتي وسيطرة وانضباط نفسي عرفي (أخلاقي)، ويصير بذلك أصحاب المذاهب مربي الشعب والداعين الحقيقيين للحرية . وهكذا يكون من السهل على كل فرد أن يصبح حاكم الأمة والمشرع لها طالما أنه يشهد أن لا إله إلا اللّه، واتبع فقها مذهبيا، ويصير بذلك داعية للخير والحرية. لقد ساهمت الديانات المذهبية في تدهور وانحطاط وتمزق الشعوب والأقوام والدين، حيث يدعو الناس مرة إلى الحرية والتحرر من كل شيئ، ومرة يتزمتون لمواقف معينة . إن الخصم الحقيقي للإسلام هو الديانات المذهبية التي شرعها الموالي وبعض الغرباء والتي كانت قوة تدميرية للإسلام على الصعيد العملي، ولم تقدم إنجازا ايجابيا للدين والمجتمع على الصعيد النظري.

إن المهمة التاريخية المعروضة تحققت في الديانات المذهبية بشكل واع تماما، ذلك أنها تتخيل دائما أنها تمتلك الإسلام الحقيقي الصادق النقي في جميع مراحل مساراتها. وهدف هذه العملية يكون محايثا للديانة المذهبية كغاية تحفيزية يمكن أن يفهمها الشخص الذي يقف بالطبع في الخارج ويتابع بنظرة فاحصة غير متحيزة مسار هذا التاريخ في أطواره المختلفة. إن

المستوى والإمكانية المتحققة للآن هي أن الديانات المذهبية إفراز طبيعي لهذا الواقع الممثل في تشريعاتها، ومن ناحية أخرى وصلت أخيرا عند نقطة لم يعد معها ستر فراغها الباطني (الداخلي) وانحطاطها الديني. لقد بدأ الكثير من المثقفين يدركون هذه الحقيقة ولو كل على طريقته وما تسمح به معارفه.

لم تستطع الديانات المذهبية التخلص من ظاهرة تاريخية كالأفكار القيمة المعنى الإسلامية التي أماتتها هي ذاتها باطنيا، لأنها لا يمكن أن تختفي بين عشية وضحاها من مسرح التاريخ، وانما يجب عليها أن تتخلص منها قطعة قطعة وبذا تتعرض إلى الفساد و التفسخ تدريجياً. وبرز تضاد حاد بين الديانات المذهبية وتشريعاتها التي صدرت في العصور الوسيطة. إن التناحر بين الديانات المذهبية والثقافة لم يكن عن طريق قفزة، وإنما بتحول تدريجي تختلط في مستوياته المختلفة العناصر الأساسية المكافحة لبعضها البعض في علاقة قياس (Massverhaeltnis) مختلفة كما لو « أنها تظهر في صورتين ضبابيتين على ستارة صورة أكثر وضوحاً دائما، وأخرى تصبح باهتة أكثر فأكثر ». إن الديانات المذهبية ليست سوى مرحلة انتقال من إسلام الوحي العربي إلى أفكار الثقافة، لكنها ثقافة متخلفة و بالية تقف في خصومة غير معلنة مع الإسلام في مواقف مهمة، ولهذا وقعت الديانات المذهبية منذ ولادتها حتى الآن في تناقض لأنها في جميع مراحلها وأنماط حياتها عانت من مشكلة توحيد التناقضات التي لا يمكن أن توحد بسبب طبيعتها المختلفة.

بعد هذا الغياب الطويل للروح الدينية الإسلامية للرسالة المحمدية، عليها أن تعود الآن إلى التفكير بجرأة في ماهيتها الباطنية الخاصة بالعواقب لما هو موروث وما هو مكتسب من الدين و التاريخ العربي وممثليه، وبكل ما يعتبر بمثابة مكتسبات تطور الروح، واعلان الحرب على هذا الواقع. لقد عرف العرب بأن الديانات المذهبية تقود إلى التدمير الذاتي، ليس للإسلام

فحسب وإنما للكيان الذاتي للعرب أنفسهم، وهو ما حصل فعلا عبر هذا التاريخ. وهذا ما عرفه العرب لاحقاً، أما الديانات المذهبية فقد كانت مشغولة في أن تتمتع بنتائج تشريعاتها التي حققت لأصحابها مواقع قوية في السلطة والمجتمع، وحققت الديانات المذهبية مهمتها وهي إفراغ الرسالة المحمدية من الروح الدينية الخاصة بها، بينما لم توفق الاتجاهات المحافظة في هذه الديانات، والتي تتعارض في بعض مواقفها مع تشريعات الديانات المذهبية - في إنجاز شيئ لا لنفسها ولا لمعتنقيها، وبهذا تخسر آخر ما تبقى لها من إمكانيات تعتمد عليها في ديمومتها واستمراريتها.

## الإسلام والثقافة

لم يكن الدين الإسلامي معاديا للعلم والثقافة كما في الكثير من الأديان الأخرى التي لم تظهر ميلا للعلم، وتناقضت معه ومع كل ثقافة. إن الإسلام ارتبط منذ البداية بحياة العرب وتمثلها ورفعها إلى مصاف قوانين إلهية مقدسة. والعلم الذي تكلم عنه الأولون لم يكن بالمعنى المعهود لهذه الكلمة في حضارة اليوم، بل جرى التركيز على معنى العلم بالمعنى الضيق ومفاده الاجتهاد في معرفة و فهم الوصايا الإلهية وشروط تطبيقها بشكل صحيح. وعلى الرغم من أن الإسلام هو، أيضاً، « قضية شعور وإحساس » فأنه في الوقت ذاته « عرف شعبي » للعرب. إن التصورات بالنسبة للدين أساس للإحساس لا بد منها، لكنها يجب أن تكون بقدر الإمكان أقل تجريدا، وأقل مفهومية ووضوحاً، ولذا يجب أن تكون أكثر تأملية وتصوراً وتخيلية ووضوحا عند إثارة المشاعر الدينية بالأحاسيس الأكثر قوة من خلال التصورات. الديانات المذهبية فصلت الإسلام عن بيئته وتراثه وحصرته في تجريدات ومفاهيم ميتة غير واضحة، وعزلته عن الحياة الروحية والثقافية، وبذلك يبدوا الإسلام للوهلة الأولى، بسبب الديانات المذهبية، كأنه معادي

للعلم بسبب وضوح وتأملية الحياة الروحية والثقافية. وهكذا يصير العلم الذي يجلي عدم وضوح تخيلات التصورات مدعاة للإشمئزاز والقرف عندما يكون الإحساس الديني قويا متوهجاً. إن الديانات المذهبية تشريعات دينية وليست ديانة حقيقية، ولهذا فإنها تظطرب وتصبح غير ممكنة التطبيق لأنها بلا ارتباطات، وبلا مقدمات تاريخية كتلك التي تمتلكها ديانة الوحي. لقد كان نشوء جميع الديانات المذهبية عن طريق التخيل وليس العلم، ومن الصعب على النقد التاريخي العلمي أن يثبت وأن يبين الأسس التاريخية المسلم بها في هذه الديانات.

استعارت الديانات المذهبية، كما هو معروف، الكثير من الأفكار والتصورات من مصادر دينية وثقافية غير إسلامية وغير عربية، واعتمدتها في حل المشاكل الدينية والاجتماعية. وبالقدر الذي ولجت دائرة التصور الديني في الميدان المعرفي النظري (الفلسفي) تكون قد شحنت « بعدم الاتزان والتناقضات في خلطها اللانقدي للصورة والمفهوم بالضرورة ». إن وظيفة العلم الدينية الحقيقية الإسلامية تتلخص في الكشف عن قبح عناصر التصور المتنافضة وإعادة العرب إلى مصادر دينهم الصحيح ونبذ الديانات المذهبية.

لقد دافعت الديانات عن مشاعرها الدينية الخاصة والمزيفة، واعتبرت نفسها بأنها هي القضية الأساسية المهمة للحياة، ولا يظهر شيئ إلى جوارها إلا و يكون عديم القيمة والأهمية، و لهذا وقفت بكل قواها ضد ولوج العلم في دائرة تصوراتها. ولم يخرج من هذه المذاهب عالم حقيقي لأنها اعتبرت ولوج العلم في دائرة تصوراتها يضر و يعرقل عمل تشريعاتها. ولم تحاول الديانات المذهبية أن تعرف شيئا عن النقد التاريخي للمقدمات التاريخية لصور إيمانها؛ فقد أغلقت باب العلم والاجتهاد، ولم تكترث بأي نقد لدائرة تصوراتها. ووقفت ضد جميع المحاولات وحاربتها لأنها كانت منذ البداية

عقيدة الحاكم. ولم تسمح بوجود منافس لها، وحاولت القضاء على أي اتجاه ديني يخالف تشريعاتها بغض النظر عن مصدره. ودافعت عن تجريد المفاهيم ولم تسمح بأن يُضر بها، بل تمسكت بمبادئها على أنها الوحيدة المهمة والجوهرية والصحيحة. إن المذاهب تقوم بصياغة العناصر التصورية طبقاً لحاجاتها وليس طبقا لتفكير عقلاني كما في العلم، لأن الديانة المذهبية يقين ذاتي فلا وجود للعلم فيها، وعندما يسمح الدين للعلم بولوج عالم تصوراته ترى المذاهب نفسها مضطرة أن تلقي بهذه التنافضات على عاتق رجال العلم؛ لأن في كل أزمة جديدة تفقد الديانات المذهبية جزءاً من مصداقيتها، وتضعف لدى عناصرها روح الأيمان. ومثل هذه الحالة هي إعداد لأزمة جديدة قادمة.

إن نفور وكراهية الديانات المذهبية للعلم جعلا من وضعها صعبا تجاه العلم، ولم تستطع بعد ذلك المصالحة والتعامل معه، ولذا مات العلم تماما بعد هيمنة الديانات المذهبية على الحياة الدينية والإجتماعية، وقد تجلى هذا في أعتى مظاهره في فترة للهيمنة التركية على العالم الإسلامي، فقد انحسرت مهمة الدين والدولة في تلك التشريعات البالية التي أنشأها الموالي وبعض الغرباء باسم الإسلام، وحاربوا بذلك العلم والعلماء، وأعلنوا أن دياناتهم المذهبية هي الكل في الكل، وهي الأول والآخر وكأن المسلم لا يحتاج بعد اليوم لشيئ غير هذه الديانات.، المسلم لا حاجة له بعد الآن بالعلم، لأن الخير والشر، التقدم والتخلف حسب معتقدهم من اللّه؛ فهو على كل شيئ قدير. بهذه الطريقة حُجر على العلم وعاش الناس باسم الإسلام والجهالة والتخلف والضلالة. لقد خلقت هذه الحالة في وعي الآخرين تصورا كما لو أن الإسلام هو العدو اللدود للعلم والعلماء، و أصبح بذلك ضعيفا وواهيا أمام العلم لا حول له ولا قوة في درء الترهات والسخافات التي تنسب إليه. لقد حرم الدين

والإنسان المسلم من الإنجازات العظيمة التي حققها ويحققها العلم يوميا.
وما يلاحظ بادئ ذي بدء أنه لا وجود لإيمان حقيقي في الديانات المذهبية يمكن أن يرد فعلا إلى الإسلام لأن الإسلام ظاهرة نفسية في الإنسان العربي من الصعب على الغرباء تمثلها بصورتها التاريخية الأولى، ومعنى ذلك أنه لا وجود لحياة دينية. بعد انفتاح « العالم الإسلامي » على الحضارة الغربية التي بهرته بدأت تكيل اللوم على الإسلام، إنهم يطابقون الديانات المذهبية التي شرعها الموالي و الغرباء مع دين محمد (ص) العربي، بوصعه رمز التخلف والانحطاط، وعملت وفق هذا المبدأ جميع الأحزاب و التجمعات السياسية القومية والعلمانية و الشيوعية ...إلخ حيث أنها وضعت في صلب عقائدها العمل على محاربة الإسلام على أنه العدو الأول الذي يجب القضاء عليه. لقد بدأ الناس يستبدلون وقائع حياتهم المتحجرة الميتة بالأفكار العلمية الغريبة التي تتخلف عنها مداركهم العقلية قرونا، وأشاعت بذلك حالة من الفوضى والصراع الذي تسبغ عليه الروح الهمجية المتخلفة، وأصبح الدين بمفهومه الواسع عاجزا عن الدفاع عن نفسه أمام المنطق العلمي الجديد، ولأن حملته والقائمين عليه رموز التخلف والإلانحطاط التاريخي. لقد هددت الحياة الدينية في دارها حيث أن هذه الحالة الجديدة خلقت وضعا فكريا واجتماعيا لم يسبق له مثيل في تاريخهم وأصبحت العلاقة بالدين عادة من الماضي أكثر منها عبادة أو انتماء. وخسر الناس عمليا كل ما يملكون من دون أن تحصلوا على بديل يساعدهم في تجاوز أزمتهم المتفاقمة والمتزايدة يوما بعد يوم. لقد هدد العلم المعتقدات الدينية قديمها وحديثها، وهز بذلك أركان الحياة الدينية و الإجتماعية، لأن الديانات المذهبية والقائمين عليها ليس بمقدورهم - ولا يمتلكون الوسائل الضرورية الفكرية والعلمية - للدفاع عن قيمهم و مبادئهم ضد هجوم الأفكار و التصورات العلمية في الكون والمجتمع. إن الدين بإمكانه أن يدافع عن نفسه وعن معتقداته عندما يدخل

في حوار و مناقشة علمية بحيث يلتزم الدين بالعلم ونتاجه « على أنه جزء من الميدان العقلي للإيمان ويوظفه بذلك لصالحه ».

من الواضح أن استخدام العلم كلاهوت في الدين له نتائج سلبية على الحياة الدينية، ذلك لأنه يتبع أهدافه الخاصة بوسائله العلمية، ولا ينمي غايات الدين بل يضر به. إن اللاهوت إيمان صادق دائما فيما يتعلق بالتناسق بين الأهداف اللاهوتية والدينية. والديانات المذهبية لاهوت يحاول أن يسبغ على نفسه ومعتقداته صبغة وإيماناً صادقاً، لكن لا بد من ظهور التناقضات والاختلافات بينهما، ومن ثم تسعى الديانات المذهبية إلى رأب الصدع الناشئ بين الدين و المذهب؛ وعن هذا ينجم في النهاية وهن وتعطيل للمشاعر وللقيم الدينية التي تقود أخيراً إلى ازدياد البدع والشعوذة والخرافات اللاهوتية، وتتجدد الاختلافات والتناقضات بشكل أكثر حدة وضراوة.

كانت الديانات المذهبية وتشريعاتها اللاهوتية منذ البداية ميتة؛ واشبه بالجثة المحنطة، والدين الذي تخدمه جعلت، أيضاً، جثة محنطة. لقد قامت الديانات المذهبية بانجاز كبير من حيث أنها سنت لنفسها طقوسا وشرائع غريبة نسبتها إلى الرسالة المحمدية، لكن هذا النجاح السريع الذي سجلته ورسمت من خلاله معالم حياتها الدينية أظهر ضعفا، وأصبحت التشريعات بما فيها المشاعر الدينية هزيلة ومهزوزة لا تلبي المطالب الحياتية ولا مطالب الإيمان، إن الناس المتعلمين ينظرون ويتطلعون إلى الديانات المذهبية وتشريعاتها باشمئزاز، ولكن هذه الديانات تحاول في الوقت ذاته، رغم ضيق أفقها وضحالتها، أن تعمي الجهلاء وأنصاف المتعلمين من معتنقيها بصحة مبادئها تحت ستار الالتزام بالقرآن والسنة وحياة الصحابة. أما فيما يخص النقد الديني الصحيح لهذه المذاهب فإنه لم يسجل نجاحا يذكر لأنه ضعيف

ولا يمتلك سلطة مركزية كتلك التي تمتلكها الديانات المذهبية، لأنها تشريعات حكام؛ ولهذا يضيع جهد و تعب اولئك الذين يعنون أنفسهم بهذه المهمة الصعبة. إن القيمة الدائمة والعلمية المذهبية هي قيمة نقدية وسلبية من الانجازات اللاهوتية التشريعية التي حطمت المقدسات التاريخية والقيم والأعراف التي ترتبط بالعقيدة الإسلامية العربية .

لم تقف الرسالة المحمدية موقفا عدائيا من العلم، بل وقفت ضد جميع الأديان والثقافات الوثنية التي لا تؤمن بإله واحد. أما الديانات المذهبية فإنها في اختلافها عن الإسلام وقفت موقفا عدائيا من العلم لأنها ربطت تصوراتها الدينية بوقائع الثقافات الوثنية التي نشأ عليها أصحابها قبل الإسلام، والتي استعملتها كمصادر مساعدة للحياة الأرضية، والتعود على هذه الروح في شروطها المعطاة. إن الإسلام ديانة ترتبط بالغيب من ناحية، و بالحياة الأرضية من ناحية أخرى، لكن الديانات المذهبية حرفت هذا الدين عن دعواه الأرضية والسماوية، وحولته إلى أقوال ومفاهيم مجردة لا أرضية ولا سماوية. ومن الصعب العمل به في أي من هذين الميدانين. كما أنها أقامت صلحا مفتوحا لحقوق الآخرة مع حقوق اصلاحية لعالم الدنيا، ومعنى ذلك أنها أقامت شيئا وسطا بين ديانتها وأنظمة العصر الوسيط وماتلاها؛ وبهذا صارت الديانة المذهبية ظاهرة دنيوية في خدمة الحاكم، ففقدت بذلك صلتها بالإسلام عمليا، ولم ترتبط به إلا صوريا وبالاسم. إن أنصار هذه الديانات لا يثقون ولا يعترفون بالصور الحقيقة للأفكار القيمة المعنى الإسلامية ما لم تقدم في إطار مذهبي. وصارت الديانات المذهبية هي الدين الحقيقي وما عداها بدعة وتحريف، وجرّت انصارها إلى الاهتمام بالمصالح الدنيوية جداً، ولا رأي لهم بالذي يعنيه كون الشخص مسلما ومؤمنا.

يستغرب العربي كيف يمكن للشخص أن يضع ارتباط الديانات المذهبية بالدين بنفس مستوى الارتباط بالوطن، وتصبح هذه الديانات حاملة للسمات القومية لهذه الطائفة أو تلك، لهؤلاء القوم أو اولئك. ينتج عن هذا أنهم في حالة دعواهم للإيمان يكونون عندها أبعد ما يكونون عن الأفكار القيمة الإسلامية، ومن هنا يظهر أن تدينهم لا ديني. وما يثير الغرابة أن العرب أنفسهم، بسبب الجهل والتخلف التاريخي، يدافعون عن الديانات المذهبية كما لو أنها إرثهم أو أنها هي الإسلام ذاته، وليست الأداة التي قمعت العرب وهتكت حرماتهم وسلبتهم أوطانهم. وهكذا يصبح الولاء للديانة المذهبية أقوى من الانتماء العرقي القومي، وبهذا يعادي العربي نفسه ووطنه. إن هذا لا يرد إلى الدين بل إلى انسحاقهم التاريخي وفقدان وجودهم الإجتماعي والسياسي الحر اللذين تسبب فيهما الغرباء الذين أدخلوهم في الإسلام بحد السيف. وهذا يبين لنا كيف يمكن أن يكون المرء لا دينيا في المعنى الإسلامي الصحيح. إن الذي تسببت فيه الديانات المذهبية هو انها وضعت للعربي مقاييسا كيف يتخلى بواسطتها عن مصالحه القومية والوطنية في هذه الفترة القصيرة من الحياة الدنيوية لكي ينقذ نفسه في الآخرة. فالمطالب المعهودة لنا هي أن توضع الوطنية القومية فوق الديانات المذهبية، لأنها لا تختلف عن الروح الإسلامية، كما وأن أعراف المجتمع وقوانين الحياة العربية فوق الديانات المذهبية وتشريعاتها، لأنها سنت من قبل الموالي والغرباء أعداء العرب التاريخيين(*). إن هذا يبرهن بأوضح ما يكون عليه البرهان على أن تقديرات الديانات المذهبية للدنيا و الآخرة تخلق في وعينا انقلابا مباشرا في

---

* لم يعتنق الكثير من الموالي في العراق وسكان ايران الإسلام. لم يكن مثلا خالد بن برمك مسلماً، بل كان يدير شؤون معبد لديانة لم تكن زرادشيته خالصة بل خليط مع اديان اخرى. ويقال إن أبي حنيفة صاحب أكبر مذهب، والمعلم الأول لأصحاب الديانات المذهبية رفض التشهد قبل وفاته.

أنها تضع « الغائية دنيويا فوق المشاغل والاهتمامات من أجل السعادة الأبدية ». إن الديانات المذهبية تحاول أن تقوض ما يكون ممكننا في الكفر عن طريق التباشير الدينية، والوعود بصدد أبدية النفس، وتفسخ الجسد وكذلك في تأثير وسائل الرحمة التي شرعتها.

إن الديانات المذهبية معادية للعلم، ولا ضرورة لإيضاح هذا الأمر لأن تاريخها شاهد على ذلك. الديانات المذهبية لاهوت، واللاهوت مثير للشك بما فيه الكفاية. ولذلك فهما منفصلان تماما عن العلم الذي يكون خطرا عليهما. إن العلم الذي يتفق مع الديانات المذهبية سيكون تأييدا ومصادقة عديمة القيمة والمعنى لأن التشريعات لا تحتاج إلى مصادقة؛ أما إذا تناقض العلم مع هذه الديانات المذهبية فإنها ستنظر إلى العلم باعتباره علماً فاسداً، لأنه لم يعانق هذه الديانات فإنه بحث عديم الفائدة في الأشياء الأرضية التي يمكن أن تكون مثيرة من وجهة النظر الدنيوية إلا أنها عديمة النفع والقيمة بالنسبة لهذه الأديان وتشريعاتها. جل الديانات المذهبية تصب اهتمامها على التعليم الذي يخدم مصالحها وتشريعاتها التي تصب في مصلحة الحاكم؛ وعندما لا تكون اهتمامات التعليم للديانات المذهبية منصبة في الدفاع عن الدين الأم فإنها تخدم بذلك قضايا دنيوية من أجل مصالحها الخاصة إلى جوار الاهتمامات الدينية التي تصير شكلية وعديمة النفع لأن هذا التقسيم للمصالح العامة البشرية المقيدة يعمل على الإساءة والإضرار بالإسلام، طالما أن الديانات المذهبية تتمثل تشريعاتها على أنها اهتمامات ومصالح تعليمية دينية وهي تبتعد كلية عن الدين وتصبح دعوى أرضية متخلفة تجاوزت على الأفكار القيمة المعنى الإسلامية التي صدرت عن النفس العربية في تاريخيتها وصارت شرعا دينيا. تزعم الديانات المذهبية أنها تمثل الاهتمامات التعليمية، مدعية أنها تتبع الغايات الثقافية الدنيوية من أجل تقدم

الإيمان الديني في الأزمات المادية مع الثقافة. لكن الحياة ومعالمها الثقافية في الربوع الإسلامية ما هي إلا تشريعات الديانات المذهبية، وهي أبعد ما تكون تاريخيا في ماضيها وفي حاضرها عن الثقافة، ذلك لأنها نوع من الإيمان الميت وعديم الروح.

لقد كان العلم وما زال ظاهرة غريبة تعاديها الديانات المذهبية لأنها ترتبط بخلفية ثقافية أسطورية قائمة على الخرافات و الأساطير التي عرفها الفرس بشكل خاص، وما تسرب من الديانات البوذية والبرهمانية والقوانين والشرائع الرومانية. لقد طرحت الديانات المذهبية تشريعاتها و أفكارها بديلاً للأفكار القيمة المعنى الإسلامية على أنها التعريفات الجديدة للإسلام، وهمّشت الحياة الدينية الإسلامية العربية. وتركت هذه الحالة بصماتها على العرب خاصة بعد اختلاف مصالحهم وانسحاقهم الاجتماعي لأنهم يقبلون بالمذهب الذي يفرض عليهم. أو الذي فيه منفعة أكثر لهم. وصهرت الديانات المذهبية قيماً وأفكاراً شتى من مصادر دينية وثقافية مختلفة، وأعطتها صورة إسلامية، وصارت من ثم شهادة إيمان والتزام بالدين الإسلامي، خاصة عندما رُبطت بالرسالة النبوية وسنة الرسول، وذلك هو الظاهر الوهمي للعقيدة الدينية الإسلامية. إن مشرعي الديانات المذهبية وأنصارهم بعد أن عزلوا دياناتهم عن الروح الدينية الإسلامية العربية أفرغوا الإيمان من المحتوى الإيجابي ومن الإرتباط الأخلاقي، لأن ارتباط الدين بحياة الشعب يخدم أخلاقية الموضوع الديني، وعندما يعزل الدين عن شعبه فإنه يصير لا أخلاقيا. لهذا ترى الديانات المذهبية تدعو إلى السذاجة والتفاهة في الإيمان بدعوى أن الإنسان الذي لا مشاكل له، ولا اعتراضات، أو عدم وضوح في عقيدته الدينية يكون ذا وجدان مؤمن، ومن الصعب حرفه عن الطريق الصحيح؛ وتطلب هذه الديانات المذهبية من معتنقيها أن لا يسألون عن حقيقة

مـا يؤمـنون بـه. إن خلـط الإسـلام مـع الأديان الوثنيـة والموقـف المعـادي للعلم وضـع الأسـاس للخـلافات الـدينيـة الدائمـة ليس مـع الإسـلام العـربي، بل بين المذاهب ذاتهـا، إذ ما أن ظهرت هذه الديانات المذهبية إلى حيز الوجود حتى بدأت الحرب ضد كل من يخالف آرائها ومعتقداتها، متهمة الأحزاب الأخرى بالكفر والزندقة والمروق عن النهج الصحيح للسنة النبوية؛ وبهذا صارت الإنجازات الدينية غير مرتبطة الإسلام، بل بأصحاب هذه الديانات ودعاتها كما لو أن ما يعملون به وما يرونه صحيحا هو الصحيح، ومن الواجب اتباعه في الدين.

الديانات المذهبية تركيب جديد من الأفكار والمعتقدات الدينية الإسلامية بعد تجريدها وإضفاء محتويات غريبة عليها، وهو ما دعاها للابتعاد عن العلم ومعاداته، وسمحت لنفسها أن تصبح عقيدة دينية منغلقة على نفسها، وأنشأت بذلك لنفسها عالما خاصا تتوحد به ومعه وتجعل منه ممكنا. الديانات المذهبية ما كانت يوما في ماضيها وفي حاضرها ثقافة شامخة وشابة في اختلافها عن الإسلام العربي الذي بعث الحياة في واقع اجتماعي مضطرب وفوضوي، وإنما كانت ثقافة ميتة ومتفسخة وعتيقة أكل عليها الدهر وشرب؛ فقد ولدت الديانات المذهبية باسم الإسلام عتيقة وبالية لأن المصادر التي استمدت منها مبادئها وقيمها من الأديان والثقافات القديمة الميتة، فطبعتها بطابعها الخاص، ومنحتها في الوقت ذاته روحيتها الخاصة. إن مثل هذه الديانات التي قدمت ثقافة ميتة بالية هي الوحيدة التي يمكن أن تهزم الإسلام، وتلتهم ما يصل إليها من أفكار و قيم دون خطر. إن التغير الذي وقع في الحياة ـ خاصة في العصر الثقافي الزائل ـ لم يستطع أن يدمج هذه الديانات المذهبية فيه، وعدم اندماج هذه الديانات المذهبية في الأطوار الثقافية وانفصالها عن الحياة العلمية قتلا لدى معتنقيها الرغبة في الحياة،

وحب البقاء، وقضت بذلك على الإبداع وحب العمل، « وتّغلبت » هي وتشريعاتها « كوصفة طبية لأمراض الزمان ». بعد أن انقطعت الصلة بين تشريعات الديانات المذهبية بالروح العربية الإسلامية صارت هذه الديانات تجريدات مفاهيم لا صلة مباشرة لها بالإنسان وبالحياة الطبيعية إلا وهميا، بحيث صارت الأفكار القيمة المعنى الإسلامية ذات الارتباط الوثيق بالعرب وحياتهم تخيلات وأوهاماً باسم الإسلام والله، ولذا ما عاد بمقدورها أن تقدم اتجاها، ولا توجيها لبناء أو تعليم ديني وثقافي.

لقد انشغلت الديانات المذهبية في تعليب الأحاديث التي سمتها بالسيرة النبوية، وسيرة الصحابة وتجاوزتها بطريقة ما، فنشأ بذلك منهجا خاصا بها وحدها. ومع كل ادعادات الديانات المذهبية بصدد التزامها بالقرآن والسيرة النبوية إلا أنها في مقاييس الأفكار القيمة المعنى الإسلامية لا إسلامية، وإنما هي اهتمامات ومصالح مراتبية خالصة ودنيوية بشكل استثنائي، الغاية منها ضمان مصالح الموالي في الدولة الجديدة. إن الديانات المذهبية الممثلة لمصالح الحاكم بحاجة إلى شيئ ثابت يتمسك به الجميع من أجل وحدة الدعوة التي تدعو اليها الديانات المذهبية؛ لقد حققت هذا في دعوات منها السيرة النبوية وأهل البيت(*)...إلخ. ولم تكن هذه الدعوات في واقع الحال أكثر من أقوال مجردة ميتة، أما ما فعلته في واقع الحال فهو أنها جلبت معها القيم والأفكار الوثنية الأعجمية من تراثها القديم، وبعض الأفكار الهلينية التي غزت هذه المجتمعات في تلك الأزمان، فخلقت بذلك نظاما ونهجا تشريعيا باسم الإسلام، ذلك لأنها تحتاج إلى مثل هذا النهج التشريعي على الأوضاع الرائعة والباهرة التي حققتها لنفسها وللحاكم، ولكي تستطيع

---

(*) إن هذا يصدق، أيضاً، على الإتجاهات الشيعية أيضا على الرغم من موقفها المعادي للأنظمة الحاكمة.

بالتالي الوقوف ضد العرب وإسلامهم. وصارت هذه الإتجاهات الدينية وهذا الأسلوب ناجحين خاصة بعد أن أقصت العرب كلية من مراكز الحكم، وأنضوت تحت لواء هذا المذهب أو ذاك، حيث استطاع الموالي الهيمنة على مقاليد الأمور الدينية والدنيوية، فأشاعت بذلك طقوسا وعبادات غريبة عن العرب وأسلافهم. إن هذا النوع من التأمل يتفق مع التأملات الغيبية للديانات الوثنية، لذا نراها مدت يدها إليها، وصارت بذلك نفايات لثقافات وأديان شتى، وأهملت الروح العربية الإسلامية التي لا تعرف التعقيد ولا الغموض ولا الخداع. لقد بين مسار التاريخ حق دعوى العرب، وخوفهم على أنفسهم ودينهم من سيطرة وهيمنة الديانات المذهبية، لأن هذا يعني بعث الوثنية المعادية للإسلام وللعرب، وتدميرها، ومن ثم عزل الإسلام عن الحياة.

إن مثل هذه التأويلات تكفي للقضاء على الأمل في أن ينتعش الإسلام مرة ثانية، أو أن يكون بمقدوره أن يحيي الديانات المذهبية من دون أن يدخل معها في تناقض، أو يفقد هويته السامية العربية التي ثبتها له الوحي ويصير من المتعذر تماما انصهار أو اندماج التعاليم المذهبية سواء في الإسلام أو في التعليم الثقافي المعاصر؛ تظهر الديانات المذهبية استقلاليتها عن الإسلام وعن العلم والثقافة، وستكون بذلك حجر عثرة كبيرة وعائق امام الحركة الروحية والثقافية والعلمية في البلدان الخاضعة لها. الديانات المذهبية هي الملثلة الشرعية للدين الإسلامي، لهذا يبدو للعيان وكأن الإسلام ظاهرة التخلف والانحطاط، ويصير من الصعب جدا انتشال الإسلام من المأزق الحرج الذي فيه. إذا كانت الديانات المذهبية تتستر على نفسها خلف ادعاءات وهمية كاذبة تنسبها إلى الرسالة المحمدية، وتنغلق من ثم على المبادئ التي شرعتها لنفسها تحت دعوى الخوف من البدع والأباطيل، أو الخوف من الثقافة والعلم، فإنها تعمل على محاربة الإسلام باسم الإسلام، وتشيع قيما وافكارا غريبة وقديمة وبالية، وهي الوحيدة التي تحمل سمات

ومعالم الروح الدينية الإسلامية وتقوي جميع الدعوات والاتجاهات المعادية للإسلام وتاريخه، وهو عداء مباشر للعرب دون سواهم، لأنها تقوي عناصر التعليم الثقافية التي لا تنتمي إلى الدين الإسلامي والتي تقف ضد كل نزعة دينية بسبب التناقض الحاد القائم بين الديانات المذهبية والعلم من ناحية والثقافة عامة من ناحية اخرى. بهذا يصبح العلم والثقافة الحديثة هما المهيمنان السائدان في حياة الإنسان، أما الدين فإنه يفهم كظاهرة للتخلف ويحمل في كيانه عقلية اسطورية خرافية. إن أصول ومبادئ الديانات المذهبية لم تقم على أسس علم التاريخ، أو العلم الطبيعي بل على استعارات ساذجة وتافهة من وعي العامة، وبعض التصورات والمعتقدات الدينية والإسطورية للأديان والثقافات التي اعتمدتها في بناء تشريعاتها. وهذه الديانات لا تستطيع أن تواجه أو ترد على أي اعتراض ونقد يوجه إليها سواء كان هذا من وجهة نظر العلم الطبيعي أو العلم التاريخي لأن أصولها لا تنتمي إلى أي من هذين الميدانين. عند الاستشهاد بوقائع العلم ووقائع التاريخ العربي السامي يكون عندها من غير الممكن التمسك بمعتقدات وتصورات هذه الأديان. الدين ليس ملحقا ميكانيكيا لتأمل كوني مضاد له، وانما هو كيان عضوي ينمو ويرتبط بالتأملات الكونية الكامنة في صلبه (كالقيم والأفكار والأعراف والعادات والتقاليد والبنى النفسية والإجتماعية ...إلخ). لذا عندما يقتلع الدين من تربته لن يكون بعد ذلك عضوا حيا في يد الإنسان، « وإنما عضو مقلوع من كيان حي ممزق كالشجرة التي تقتلع ساقها من التربة ».

إن الديانات المذهبية التي تنسب نفسها للإسلام عملت على تطويق الإسلام وتدمير كيانه، وطرحت نفسها وتشريعاتها كبدائل وكتعريفات جديدة للأفكار القيمة المعنى الإسلامية، والغت ارتباط الإسلام بشعبه وتاريخه. لذا فإن الأمر المطروح اليوم هو بعث الروح الإسلامية العربية وإزالة آثار هيمنة

الديانات المذهبية الأعجمية على العقيدة والواقع العربي. إن في عزل الدين عن الثقافة، وجعل الثقافة ظاهرة معادية للدين تحت دعوى أن الدين مسؤول ليس عن التأملات الكونية الغيبية فقط، وإنما ايضا عن التأملات الكونية المفارقة (الشؤون الدنيوية). عن هذا يصدر انه لا معنى لوجود ثقافة خارج الدين، وبذلك تصير الديانات المذهبية مع طابعها التأليهي مبتذلة لا يمكن قبولها من الوعي المعاصر. إن الابتذال يبرز على جميع الأصعدة النظرية والعملية والأخلاقية، وكذلك على صعيد الإيمان ذاته. إن مبادئ وأصول الديانات المذهبية الغريبة حصرت الدين في مجموعة أقوال وأحكام لا يعرف مدى صدقها وصحتها في ماضيها وحاضرها، ولو كان بعضها صادقا فإنه بسبب أعجمية المشرعين، ويصعب العمل بها وفهم أبعادها التي نشأت وتطورت في بيئة عربية، وفي ظرف استثنائي عاشته الجماعة الإسلامية في صحبة النبي محمد (ص). إن دعاوى الديانات المذهبية يرفضها الوعي المعاصر بسبب معاداتها للعلم والتعليم والثقافة المعاصرة كونها لا تتفق مع قيمها ومبادئها، وترى الجبرية في كل شيئ، فالأشياء والمخلوقات تتحرك بإرادة اللّه لا غير، وتعمل وفق إرادته وكأنه لا وجود لقانون طبيعي يتحكم في مسار الأشياء. بينما في الواقع تعمل الأشياء والمخلوقات وفق قانونية محايثة فيها؛ لأن أشياء العالم مرتبطة فيما بينها، ولذا يوجد تأثير متبادل للواحد في الآخر، وهكذا شأن الطبيعة العضوية الحية حيث أنها توجد في ترابط فيما بينها من ناحية، ومع الطبيعة اللاعضوية من ناحية اخرى، وكلها تعمل وفق قانون حتمية صارم. عن هذا ينشأ انفصال تام بين تصورات ومبادئ الديانات المذهبية وبين التعليم والثقافة المعاصرة التي تعالج الوقائع عن طريق الكشف عن آليتها وكوناتها الخاصة، بينما تغلق الديانات المذهبية هذا الباب وتعزي كل شيئ إلى اللّه بطريقة غبية جاهلة، بحيث يصبح الإيمان باللّه « قضية مخالفة للمنطق وللعقل الذي يختلق الإلحاد في صورة «مذهب طبيعي»

مادي. إن الطريقة التي تعرض فيها الديانات المذهبية تأملاتها الكونية المفارقة عن صلة اللّه بالعالم ترجع كل شيئ في الكون إلى اللّه لأن كل ما يحدث آنيا ومستقبلا، كما حدث في الماضي، يرجع أمره إلى « اللّه المفارق »، ولا شيئ يتخطى هذه القاعدة إلاّ في حالة المعجزة؛ وفيما يخص التأمل الكوني العلمي للوعي المعاصر فإن هذا « يتم عن طريق إله محايث مسيّر للعالم عن طريق قوانين ثابتة ». من هذا المنطلق يصبح التناقض بين المبادئ والتأملات الكونية للديانات المذهبية والتأملات الكونية للعلم مستعصية على الحل ما لم تقع القطيعة مع أفكار ومبادئ الديانات المذهبية في جوهرها. إن الأقوام الجزرية والعرب منذ ظهورهم على الأرض الذين عرفوه كانوا يعيشون معه في إنسجام. بعد ظهور الإسلام كوحي إلهي جديد ثبت كل ماهو إيجابي في حياة العرب من قيم وأعراف وتقاليد وعادات، وجعل منها شرعا ووصايا إلهية. إنها قوانين حياة العرب التي تمثل الأعراف التي كان فيها فخرهم وسعادتهم. فالمبادئ القانونية للدين الإسلامي هي مبادئ الحياة النفسية والإجتماعية والعرفية للعرب. لقد صارت فكرة الثواب والعقاب مثلاً قضية إلهية بعد أن كانت أمراً خاصاً بالعشيرة. وصار للإنسان حق قانوني في الثواب والأجر وهو حق شخصي؛ وصار أمر الأخذ بالحق عقوبة من أجل القضاء على الشر. بهذا صار الحق القانوني في الثواب والأجر ذا طبيعة مزدوجة، الطبيعة الأولى هي التعود على فهم العقاب الإلهي، والطبيعة الثانية كأجر عدالة، فعل انتقام تتطلبه العدالة، لأن النفس رهينة الجسد ضد الإرادة، ولأنها محاطة بغرائز شريرة. وكان العرب في جاهليتهم أحراراً في تعاملهم مع اللّه ومع الإنسان؛ وكانوا يؤمنون بأن اللّه خالقهم كما خلق العالم، ويعرفون القدرة الإلهية، ويعلمون، أيضاً، أنهم لا شيئ حيال اللّه، إلا أن أعرافهم لم تكن أعراف خضوع وتبعية عمياء للإرادة الجبارة للّه، بل إن اخلاقهم لم تكن إملاءات خارجية غريبة عنهم كوصايا. ابتدأت الأخلاق

الصحيحة للعرب في جاهليتهم واسلامهم باستقلالية أعرافهم. وما فعلته الديانات المذهبية هو استيرادها لأخلاق وأعراف عريبة عن العرب باسم اللّه، وهي أخلاق خضوع وتبعية وعبودية لم يعرفها العرب يوما في تاريخهم. مهما كانت أخلاق التبعية والخضوع هذه ذات قيمة إلا أنها قاصرة ولا تصلح كوسيلة تربية. لو وضعت اخلاق التبعية والخضوع والعبودية هذه بديلا للأخلاق الأصيلة العربية فإن ما ستقوم به في النهاية هو مكافحة خرقاء لأعراف العرب دون سواهم لأنها طرحت كبديل، أو كتعريف جديد لأخلاق وأعراف العرب الصحيحة، أي أن أخلاق العبودية والتبعية والخضوع الوهمية للّه في الديانات المذهبية كافحت العرف العربي الصحيح والوحيد. والنتيجة التي نستخلصها من هذا كله أن أخلاق التبعية والخضوع والعبودية الوهمية للّه لا أخلاقية ولا إسلامية، لأنها كانت أخلاق خضوع وتبعية وعبودية للحاكم فقط. لذا لا يجب السماح لأعراف وأخلاق العبودية والتبعية والخضوع المزيفة للّه في الديانات المذهبية الأعجمية في أن تكون مبدأ أخلاقيا « فوق أو إلى جوار الإرادة الإلهية ». من هنا يستنتج أن أخلاق العبودية المزيفة للّه في الديانات المذهبية لا أخلاقية. لأن العرف والأخلاق ظاهرتا الروح يجب أن يبلغا مستوى من النضج اللازم ليكونا مستقلين. إن الوعي الأخلاقي يتضح له أن الأفعال الناتجة عن عمل خضوع وتبعية لإرادة غريبة لا تمتلك قيمة أخلاقية بالمعنى الصحيح. فالقيمة الأخلاقية تبتدئ أولا في التعين الذاتي لتشريعية ذاتية تجد نفسها في تضاد مع الوعي الديني المذهبي في الميدان الأخلاقي، الذي لا ينفصل عن القيم والأعراف الأعجمية التي تطبعه بطابعها الخاص.

يتجلى عند مقارنة الأفكار ومبادئ الديانات المذهبية مع الأفكار الأساسية للثقافة الحديثة عمق الهوة والتناقض القائم بينهما والمستعصي

على الحل، وليس غريبا أن يظهر التناقض حتى في القضايا الثانوية، ومن النادر أن يظهر اتفاق وانسجام في نتائج المبادئ والأفكار الأساسية للديانات المذهبية . وإذا كان يبدو من الممكن ظهور بعض القضايا التي تمس الديانات المذهبية والثقافة وتكون ضرورية لكل منها فإنها لن تكون ذات قيمة خاصة يتفقان عليها. إن تشريعات ومبادئ الديانات المذهبية ومبادئ التعليم الحديث وأنظمته تقف في تضاد وفي خصومة أبدية بعضها مع بعض؛ وهذه الخصومة تكون ضرورية من أجل المراجعة والتحقيق في أصول هذه الأديان من أجل رد الاعتبار للأفكار القيمة المعنى الإسلامية، وإذا لم يتحقق ذلك فإن الغلبة ستكون في نهاية الأمر للثقافة الحديثة الغربية على الإسلام والديانات المذهبية، وهذا يضر بالعرب دون سواهم لأن الإسلام ليس ديانة فحسب بل تاريخ وثقافة. وإذا لم يتحقق شيئ من هذا فإن روح التدمير القديمة ضد العرب والإسلام ستتواصل عن طريق قمع الحريات باسم الديانات المذهبية التي تعيش كأداة ارهاب، أو أفول هذه الديانات بما فيها الإسلام ليس بالاسم بل بالفعل.

لا يدع الإيمان الصارم النتائج المنطقية لتطور الأفكار في التاريخ مجالا للشك في انتصار الثقافة الحديثة الغربية لا سيما ان الديانات المذهبية لا تمثل إلا ظاهرة التخلف القديمة التي تتواصل في أقوام لا تمثل شعوبا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، وإنما تجمعات « بشرية » مختلفة لم تعرف ثقافة، ولم تمتلك ولم تنتج ثقافة خاصة بها. إذا بقي الإسلام متخفيا خلف الديانات المذهبية الأعجمية فإنه سيتشكل مركز، وهذا المركز موجود لكن من الممكن ان يتخذ مدى اوسع واعنف تتبلور فيه مساعي الثقافة الحديثة في صراعها ليس ضد الديانات المذهبية، بل ضد الإسلام بشكل خاص، الذي يصير من وجهة نظر الثقافة الحديثة العدو الحقيقي الذي يهدد كيانها،

والذي يصير رمزا للتخلف والانحطاط. يحمل الصراع الحاضر بين الدولة والديانات المذهبية في جنباته طابع صراع تدميري من كلا الجانبين. ليس من الصعب التشخيص والتمييز بين « الأهداف اللاواعية للتاريخ » و « بين الغايات الآنية المدركة من قبل الوعي » . تريد الديانات المذهبية اخضاع الدولة وجعلها تجمعا طائفيا واقليميا للتجمعات والأقليات التي تنتمي إلى نفس المذهب، أما الدولة فإنها تحاول بدورها أن تجعل الديانات المذهبية اتحاداً تفرض عليه وصايتها. لكن المعنى العميق لهذا الصراع هو حسم المسألة فيما لو يمتلك الأولوية بالنسبة للوعي الإنساني الحديث عالم الغيب أم عالم الشهادة، السماوي أو الأرضي، الأزلي أو الفاني؛ هل يوجد معنى لإسلام حقيقي في الديانات المذهبية وما هو الحد الذي تتمثل فيه أحزاب معارضة داخل التجمعات ؟ وهل تعرف المصالح المذهبية التضامن فيما بينها من ناحية والمذاهب الأخرى والإسلام العربي بشكل خاص من ناحية أخرى ؟ إن انتصار الآراء المذهبية الأعجمية انتصار للنزعة الشعوبية الطائفية الموجهة ضد العرب والإسلام. وهذا ما يؤدي إلى كارثة بحق العرب بالدرجة الأولى، لا سيما أن هذه المذاهب لا تلتقي مع الإسلام والعرب إلا بالإسم. في حالة انتصار النظام القائم للدولة على هذه الديانات المذهبية فإن مهمة القضاء على أعدائها سيكون يسيراً للغاية، ولا يتطلب منها جهدا كبيراً. إن في صلب هذه التجمعات البشرية صراعات عرقية وطائفية إلى جوار « الصراع الثقافي ». والصراع الطائفي والعرقي يقود بالنتيجة إلى تمزيق وتفتيت وحدة هذه التجمعات، أما صراع الديانات المذهبية وأفكارها عموما ضد الثقافة، فإنه يمثل صراعاً يائساً نهائياً للأفكار المذهبية قبل أن تنسحب وتتراجع من مسرح الأحداث، لأن انتصارات الثقافة الحديثة الغربية ومكاسبها تدافع عن نفسها ضد خصومها، وتحشد جميع قواها الخارجية في صراع حياة أو موت، وسيكون النصر حليفها إذا بقيت الأمور على حالها دون تغيير.

## الديانات المذهبية بين العرب و الموالي

إن التشريعات المذهبية هي عزل واستثناء لوجهات نظر إيمانية وتعليمية ذات مصادر مختلفة تزود القارئ بمشهد خصومات وصراعات حزبية دينية مختلفة وحادة، ونعلم أن جميع تشريعات الديانات المذهبية ظهرت في العصر العباسي على أيدي الموالي الذين مكنهم العباسيون من تبؤ مراكز مهمة في الحياة الدينية والسياسية، ومع هذه الحالة تفاقمت النزاعات الدينية والعرقية. بعد سقوط دولة الفرس وتدمير عاصمتها المدائن عاش الكثير من الإيرانيين وقتها في العراق، وبدأوا صراعهم ضد العرب الذي اتخذ في البداية شكل حركة مطالبة بالمساواة خاصة في العهد الأموي. لهذا انضموا إلى الحركات المعادية للدولة الأموية. لقد دعم الموالي الحركة العباسية والحركات الشيعية الأخرى إلى أن تحقق للعباسيين الانتصار على الأمويين بمساعدة الفرس. وفُتحت الباب على مصراعيها امام النفوذ الأجنبي في البيئة العربية، والذي وضع حدا لسلطان العرب وعزلهم ثانية عن العالم، فعادوا مجددا إلى حياة البداوة والعصبية القبلية التي أراد الإسلام ازالتها إلى الأبد. لقد ذكر القرآن الكريم بأن الله يريد أن يخرج العرب بهذا الدين « من الظلمات إلى النور »، وكلمة ظلمات مرادفة لكلمة « جاهلية »، والجاهلية هي العصبية القبلية. لقد اصبحت مهمة القضاء على العصبية القبلية مطلبا دينيا، كونها حالت دون تشكيل وعي قومي لدى العرب، وهي التي جعلت منهم قبائل متحاربة، وحالت دون توحدهم في شعب. إن القضاء على العصبية القبلية يصوره الإسلام على أنه انتقال من الظلمات إلى النور، ويفهم النور من هذا المنطلق على أنه ظهور العرب كشعب موحد. لقد شخص الإسلام مبدءاً بسيطا يقوم على تثبيت أعراف العرب كقاعدة أخلاقية يتطور على أساسها وعي ديني، قومي. وركز الإسلام من ناحية على مفهوم الله

الواحد، وجعل من تزمت البداوة لأعرافها إحساساً قومياً يمهد لها الانتقال من الفوضى إلى النظام. إن الإسلام « عقد واتحاد » بين العرب والله. يقود بالتالي إلى تعميق العلاقة الدينية.

لكن ما حدث في واقع الحال هو العكس، إذ سيطر الغرباء على الحياة الدينية و السياسية، وصبوا غضبهم على العرب دون سواهم، واختلقوا ديانات خاصة باسم الإسلام. إن ظهور الديانات المذهبية يمثل بحد ذاته مرحلة تطور متأخرة لواقع الحياة الدينية و السياسية، فلقد سنت الديانات المذهبية لنفسها شرعا يمنحها الحق الكامل في التصرف بالدين والدولة. إن هذه الديانات عكست بالدرجة الأولى ليس الإسلام ومشاكل العرب، بل متطلبات المرحلة الجديدة من أجل إحكام القبضة على الدين والسياسة. لقد تواصلت النتاجات الخاطئة للديانات المذهبية في صور التطور المتأخرة لتشريعاتها؛ وتم تجاهل واهمال جميع تناقضاتها التي نوه بها العدو والصديق، وانكرت هذه التناقضات بشكل واع محاولة أن تسبغ على نفسها نوع من الإحساس الديني المعقول المعتمد على نفسه، الذي تبرره تصوراتهم الدينية. عندما تتطور حقائق علمية ويصبح معنى الحقيقة العلمي قوة متسقلة قائمة بذاتها، لم تعرفه هذه التجمعات البشرية لا في ماضيها ولا في حاضرها، واعية بهذه التناقاضات ومستنكرة لها، فإن هذا يقود إلى برود الإحساس الديني يفقد بذلك سيادته وهيمنته على النفس. إن معنى الحقيقة لا يستطيع أن يؤثر ويعرقل سيادة الإحساس الديني في النفس طالما أنه مازال دافقا ومتوهجا؛ أما معنى الحقيقة العلمي فإنه لن يستطيع أن يقنع الذهن بوجود تناقضات.

وجدت الديانات المذهبية في العصر العباسي واعتبرت الآراء التعليمية والفقهية لصاحب المذهب هي الصحيحة والوحيدة غير القابلة للتغيير. لقد

طابقوا بين تشريعاتهم والإسلام، وبما أن الشريعة الإسلامية لا تتطور ولا تتغير فإن تشريعات الديانات المذهبية لا تتطور ولا تتغير. ولهذا السبب ما زال انصار هذه الديانات يتمسكون بهذه الأحكام الشرعية التي صدرت في العصر الوسيط. إنهم يعتقدون بأن شرائع واحكام هذه الديانات ما هي إلاّ تعريفات جديدة لـلأفكار القيمة المعنى الإسلامية التي وجدت منذ البداية في هذه الديانات. إن الديانات المذهبية حركة فكرية نظمها الموالي ضد الإسلام والعرب لسحب الوصاية الدينية من العرب من أجل السيطرة على الحياة الدينية والسياسية؛ فخلقوا بذلك أول انقسام خطير في الدين والدولة. إذا كان الإسلام كما تفهم العامة والخاصة قد آخا بين الناس، فقد حولت الديانات المذهبية ما يسمى « بالأخوة الإسلامية » إلى صراع حاد بين العرب والموالي والغرباء على جميع الأصعدة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وعملت الديانات المذهبية على اسقاط تاريخ تطور العقيدة جزرياً و عربيا. وارتبطت بالإسلام وهميا وصوريا عن طريق ما يسمى « بالسنة النبوية » أو « أهل البيت » أو « الإمامة »، وما شاكلها من هذه الأقوال والمفاهيم. وتسببت هذه الحالة في ظهور نتائج اعتبرت من بعد على أنها نتيجة متفق عليها لذلك الزمان و للمراحل اللاحقة من تطور حياة هذه التجمعات. لقد تواصلت هذه العملية بكل الوسائل والسبل حتى بعد الكشف عن الأصول الباطلة لهذه الشريعة التي تلغي مسارات هائلة من تاريخ تطور العقيدة الدينية الإسلامية، وتواصل تقديم صورها الخاصة بديلاً لوقائع الحياة الدينية العربية. صحيح أن تاريخ الديانات المذهبية وعقائدها ترتضي وتقبل بأشياء منفرة ومرفوضة من الذهن (العقل)، لكن هذه الأشياء المنفرة ما هي إلا نتائج منطقية للتناقضات القائمة في مبادئها الأساسية المنافية للعقل، إن عقيدة الديانات المذهبية « نسيج مصطنع تكوّن عن طريق حياكة تدريجية متواصلة، ولكن بعد الانتهاء منها لا يبقى سوى لفائف من الغزل غير نافعة وغير قابلة للاستعمال ». إن أسباب التناقضات الأساسية لمبادئ الديانات

المذهبية تحث دائما وفي كل مرة على اختلافات وخداعات مصطنعة من الصعب التعرض إليها بأي شكل من الأشكال إذا أقر الإنسان مرة مقدماتها الأولية؛ إن مكافحة النتائج بسبب منافاتها للعقل يجب أن يقود بالضرورة إلى مكافحة المبادئ الأساسية لنفس السبب. ما الذي يفعله بعضهم ؟ انهم قد يعترضون على النتائج ويخدعون انفسهم ويحتفظون بالمبادئ الأساسية اسميا، لكن ما يجري في الواقع هو تعرية محتواها الخاص، ويتخيل الشخص نفسه من ثم على أنه مسلم.

اعتمد اصحاب الديانات المذهبية وجامعو الحديث على بعض ما هو شائع لدى العامة، لكن المحتوى الأصلي لتصوراتهم الدينية صدر عن بنات نفوسهم التي لا تعرف لها أصلا عربيا أو اتصالا صحيحا مع العرب. بل ذات موروثات غريبة عن الإسلام وتاريخه. إن أصحاب الديانات المذهبية وجامعي الحديث تمسكوا اسميا بالقرآن والسنة النبوية التي شرعوها من أجل الدعاية والإمساك بالمفاهيم التعليمية الإسلامية، إلا أن هذه المفاهيم التعليمية جوهريا لا تمتلك الكثير من المحتوى أو الصلات بالأفكار القيمة المعنى الإسلامية العربية، بل إنها ارتبطت بتصورات وتأملات غريبة رداء إسلاميا، بمعنى أنها منحتها صورة إسلامية، وهكذا صار الإسلام تشريعا دينيا لهذا الشخص أو ذاك بحيث لم يبق من الإسلام في واقع الحال غير الإسم. إن العربي بالكاد يجد في نفسه صدى لهذه الآراء والتصورات التي لا تطاق. ولا نعرف من هذه الديانات سوى أن ثمة إلها يتربص بنا شرا، ويراقب جميع حركاتنا الصغيرة والكبيرة؛ إنه إله مجرد. أما العقيدة الدينية فهي أيضاً تجريدات لمفاهيم وأفكار وقيم شتى ذات مصادر مختلفة لا ترتبط بحياة الناس، ولا تمثل مصالحهم المباشرة، ولا تعكس وقائع ومشاكل الناس، لذا ترى الناس يؤمنون بشيئ ويعملون وفق قوانين وطقوس لا تمت إلى الشيئ الذي يؤمنون به بصلة، بمعنى إنهم يفكرون في أنفسهم ودينهم

بطريقة ويعملون وينشطون بطريقة أخرى. إن الديانات المذهبية جعلت المسلم يعيش في عالمين متناقضين ومختلفين يوجدان في صراع دائم. والإنسان في مثل هذه الحالة من الصعب عليه أن يتكلم، وأن يفهم بعد الآن شيئا اسمه العدالة الإلهية، أو أن يطبق قيم ومبادئ الديانات المذهبية ذاتها في الحياة. إن وجود الديانات المذهبية بصورتها الغريبة، التي استغلت من بعض الحكام، أدت إلى ظهور الفوضى في الحياة الدينية والسياسية بحيث أن الكثير من الناس بدأ يتجرأ على الإسلام والله، وبدأت دعاوى كثيرة للكفر والإلحاد بعد أن اكتشف ضحالة وتناقضات المبادئ الأساسية لهذه الأديان. لقد هيمنت على الأقوام والمجتمعات وحياتها التبعية المذهبية و العرقية؛ فهذا التجمع يوالي هذا المذهب، وهذا الشخص يوالي آخرا، وهكذا دواليك. ومع مرور الزمن صار المذهب هوية جديدة لهذه المجتمعات البشرية، وأصبح الدفاع عن المذهب دفاعا قوميا وعرقيا.

من الصعب اليوم القبول بعقائد الديانات والتمسك بها أيا كان مصدرها. وعلى الإنسان أن يسقط هذه التعاليم و العودة إلى المنابع الصحيحة للرسالة المحمدية في تاريخيتها كموقف تعليمي ونظري، وكمركز من أجل بناء تأملات كونية حديثة اسلامية قادرة على فهم تناقضات العصر ومطالبه وإمكانية التعامل معه. إن ما يقدم من قيم وأفكار باسم هذه الديانات يجب أن يقصى من حيز التداول لأنها غريبة وبالية لا تستجيب لمطالب الإنسان المعاصر. والمطلوب اليوم هو الاحتفاظ بالإسلام في تاريخيته من أجل امكانية معالجة الوقائع الأحادية التاريخية واخضاعها للمعايير الإسلامية، أي الأفكار القيمة المعنى الإسلامية، لكي يستطيع الإسلام بذلك أن يكون جزءاً من ظاهرة الحركة والتطور الوجوديتين. إن ما فعلته الديانات المذهبية هو محاولتها لتصميم لوحة الحياة الأصلية والنظرية للإسلام إنطلاقا من مواقف فكرية ذاتية خاصة باصحاب هذه الديانات مستندين في

دعواهم على مجموعة أقوال تنسب إلى صاحب الدعوة. لقد كان هذا التصميم المغرض ينحاز إلى عالم تصورات يبتعد أكثر فأكثر عن الإسلام وطقوسه وأعرافه.

لقد دمجت مستويات تطور عقائدية (فكرية ودينية) مختلفة مع بعضها البعض في هذه الديانات. أما الأجيال اللاحقة التي اتبعت هذه الديانات فإنها مقطوعة الصلة بهذه المحاولة؛ إنها لاتعرف عنها شيئا في عموميتها، بل إنها تستطيع أن تتعامل وتفهم كل مرحلة في خصوصيتها، أي أنها تأخذ بها هكذا كما تجدها من دون أن تعرف لها مصدرا . إن الذي يقرأ ويتابع ممارسات أصحاب هذه المذاهب لا يكاد يرى فيها ظاهريا ما هو مخالف وما هو مسيء للإسلام، ذلك لأنها تتكلم طوال الوقت عن الإسلام والقرآن والسنة النبوية، ومن يعمل بها يجب ان تكون احكامه وشرائعه صحيحة، وأن تفهم وكأنها تعريفات جديدة للأفكار القيمة المعنى الإسلامية، أي أنها تتفق وتتطابق معها، لكن من يتبصر فيها لا يرى أكثر من كلمات وتعابير فارغة مجردة لا تمثل الروح الدينية، ولا واقع الحياة الاجتماعية أو النفسية أو السياسية. إن هذا يعود إلى عقمها وفراغها، وما تحتويه هو مايقدمه لها صاحب الديانة من محتوى. وهكذا صيغت على هيئة مفاهيم، ولكن بمحتوى فرضته الحالة النفسية والفكرية والعرقية للمشروع، وثبتت على أنها قوانين اسلامية صارمة صالحة لكل زمان ومكان كالإسلام، على الرغم من تعددها وتنوعها وتناقضها واختلافها فيما بينها؛ فكل حزب من هذه الأحزاب الدينية المذهبية يرى في أحكام صاحب المذهب الذي ينتمي إليه أنها وحدها الصحيحة التي يجب العمل بها. ولو افترضنا، وهذا في الأساس فرض باطل، أن الديانات المذهبية عملت شيئاً إيجابياً للدين ولمعتنقيه في زمانها، فإن هذا لا يمكن أن يعمم على التطور اللاحق لأنه من غير الممكن أن يعثر

فيها اليوم على فائدة مناسبة، ولهذا لا يمكن أن تكون قاعدة لتأملاتنا الدينية، أن تمثل الإسلام في الماضي وفي الحاضر، أن تغدو تواصلا للروح العربية ـ الجزرية .

إن الملاحظ والشائع في الديانات المذهبية هي تلك الثنوية (الازدواجية) الفظة في تعاليمها التي صنفت الناس إلى طائفتين مسلم وكافر، أتباع الشيطان وأتباع الرحمن؛ فالمسلم هو من اتبع شرائع هذه الديانات التي تقف في تناقض حاد مع الإنسانية الكونية للوعي البشري، بحيث صارت وسيلة إرهابية قائمة على التهديد والوعيد وإثارة الرعب في نفوس الناس من عقاب اللّه وكأنه جلاد يتربص بعباده شرا، متسترين بذلك على دياناتهم التي خلقت من أجل أهداف لا إسلامية ولا عربية، وهي بالتالي مصدر الإثم والشر لأنها تحملهما في أسسها ومبادئها، ولأنها قامت منذ البداية على نوايا سيئة. وأشاعوا لهذا الغرض القتل والإرهاب باسم هذه الديانات تحت دعوى الدفاع عن الإسلام ضد الكفر و البدع. كان الصراع في الماضي في « دولة الخلفاء » و « الدولة الأموية » صراعاً سياسياً و قبلياً على السلطة، ولم يمس جوهر الإسلام، لكن شكل الصراع أخذ بعدا آخر بعد هيمنة الموالي في العصر العباسي حيث تطور إلى حقد وكراهية مذهبية وعرقية. ومن حينها ظهرت الشعوبية والطائفية. لم يعد الدين واحداً بل صار مذاهب وانتماءات، ولم يعد ممكنا التمسك بعقيدة واحدة. وهكذا صارت التصورات التي تعرضها الديانات المذهبية عن الإيمان واللّه والخير والشر وهلمجرا المعايير الحقيقية التي على الإنسان اتباعها لأنها التعريفات الجديدة للإسلام. إن الشريعة الدينية والنظام القضائي المذكورين في القرآن الكريم هما قيم وأعراف وتقاليد العرب التي منحها الوحي القداسة في جعلها وصايا إلهية. من الممكن للإنسان أن يعرف كلاميا كل هذه الأمور إلا أنه لن يدرك ماهيتها،

وبالتالي يصعب عليه التعامل بها ومعها، ذلك لأنها نتاج النفس. الإنسان لا يعرف إلا الأشياء التي صنعها، أما الأشياء الغريبة فلا يمكنه إلا وصفها من الخارج، أما ماهيتها فتبقى محجوبة عنه، لأنها تنتمي إلى النفس، أي أنها من حيثيات النفس، وبعبارة أخرى تنتمي إلى العالم الروحي للشعب الذي أنجزها، وتعكس بذلك مستوى التطور التاريخي والاجتماعي. فالإنسان ابن شعبه ونتاج عصره، وهو يمثل بالتالي نموذجا تتجسد فيه مستويات تطور الحياة الروحية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية للأمة. وحصيلة هذه الشرائع والقوانين تعكس من خلالها مستويات تطور الأمة الروحي والفكري والثقافي، أي أنها تمثل « روح شعب ». ومن هنا يمكن القول بأن التشريعات القانونية والاجتماعية تحمل في ذاتها سمات ذاتية وتاريخية خاصة بالأمة التي انتجتها دون سواها، التي لا يجوز تعميمها بأي حال من الأحوال. إن تعميم شرائع وقوانين شعب على شعب أو شعوب أخرى يعني تجريدها، والتجريد في مثل هذه الحالة يعني « تقييد الإيمان الديني بالميدان العقلي الذي يجعل الإيمان ميتا وعقيما...أي أن تموت الحياة الدينية الباطنية للوجدان، ولهذا لا تجنى الثمار التي تنتظر منه حيث يعّود ممثلي الدين الشعب على الخطأ، ووضع التأمل الكوني الديني بمكان الدين، أو أن يبحث عن الوظائف الدينية أساسا في ميدان التصور؛ « لذا عليهم أن لا يستغربوا عندما يقبل ممثلو التأمل الكوني النظري بهذا الخطأ الساري بلا نقد، ويعتقدوا أنه يجب أن يستبدل في القناعة الحق الأصلح لتأملهم الكوني النظري ليس التأمل الكوني الديني وإنما الدين ذاته عن طريق التأمل الكوني النظري للعلم »(*). إن هذا سيجعل من العمل بهذه الشرائع عملاً قسرياً اضطهادياً، لكن ما يحدث في العادة هو أن تحمل على هذه التجريدات محتويات مختلفة من ثقافة القوم الذي استثمرت فيه هذه التجريدات. بهذا

(*) شتان بين الكلام عن مليون دولار وامتلاكه .

تفقد القوانين والشرائع الدينية محتواها الديني المطلق الذي حصلت عليه من الوحي وتصبح من ثم قوانين وضعية لا يمكن أن تنسب لا للعرب ولا للوحي؛ إنها تصير تجريدات ومن دون خلفية تاريخية.

إن الإمكانية الوحيدة المتاحة من أجل بقاء الإسلام واستمراريته وجعله ظاهرة حضارية ثقافية إلى جانب كونه ديانة وحي هي الاحتفاظ بالأصول التي قام عليها الإسلام العربي تاريخيا. وهذه مهمة العرب دون سواهم لأنهم أهل هذا الدين، وهم « ذات العلاقة الدينية »، وعماد هذا الدين ومادته. إن الشروط المطلوبة لتحقيق هذا المشروع تتطلب توفر الآتي: أولا الحفاظ على العرق العربي(*) من الزوال عن طريق انصهاره في الأقوام الأخرى؛ ثانيا نبذ جميع الديانات المذهبية وتحريمها على أنها نتاج حركات أعجمية لا تنتمي إلى إسلام العرب، ولا ترتبط لا بتاريخه الديني ولا الاجتماعي ولا النفسي. إن النفس العربية وحدها هي التي يتطابق نشاطها الروحي والفكري مع محتوى الدين الإسلامي لأنه ظاهرتها الخاصة، أي أن النتاجات الفكرية و الروحية والدينية للعربي قديما وحديثا لا تتناقض مع الأفكار القيمة المعنى الإسلامية، ذلك أنها تمثل امتدادها وتواصلها التاريخي. عندما يبحث العربي في الدين وقيمه ومبادئه فإن هذا يعني أنه يبحث في المادة التاريخية القديمة على معان جديدة للوقائع الحياتية التاريخية، الجديدة التي يجد صداها في نفسه، أي من حيثيات النفس العربية، ولهذا لا يمكن أن يتخطى العربي الروح الدينية الإسلامية، ذلك لأنه لو جاز القول بإمكانية تخطيه لهذه الروح فهذا يعني أن عليه أن يتخطى نفسه، أي أن يخرج من جلده، وهذا غير ممكن، ولم يتحقق لأحد حتى الآن. هكذا يمكن أن نبقي على الإسلام والعرب.

(*) المقصود بكلمة عربي هنا هو كل أبناء العشائر العربية بغض النظر عن عددهم وليس المستعربة .

# الديانات المذهبية والرسالة المحمدية

بدأ عصر التدوين في العصر العباسي، الذي اكتملت فيه معالم الحضارة ، عن طريق نشوء دولة صاحبها تطور علمي وثقافي، وهي السمة الملازمة للحضارات . ولا تسمى الحضارة حضارة إلا بسبب الإنتاج الثقافي والعلمي والفني والأدبي والمادي. لقد كانت الرسالة المحمدية متداولة مشافهة بين العرب، لا يتكلفون في عرضها وممارستها لأنها من حيثيات نفوسهم وجزء من تاريخهم، هذا إن لم تكن كل التاريخ الثقافي الواعي للعرب. حتى بداية العصر العباسي لم يعرف الناس كثيراً عن طبيعة المرحلة السابقة سواء العهد الإسلامي الأول، أو دولة الخلفاء، أو الدولة الأموية، بل إن معرفة الأوضاع في تلك الأزمان انحصرت بالأجيال التي عاشت فيها واختفت معها، ولم يبق منها إلا ما يتداوله الناس من روايات وأخبار من الصعب التحقق من صحتها ومصادرها بسبب انقسام الناس إلى احزاب واقوام متصارعة يكافح بعضها بعضا*. ظهرت الحاجة إلى التدوين بسبب اختلاط الأعراق والأجناس وتضارب الأهواء والآراء بصدد الدين والدولة مما أثار إرباكا في حياة الدولة الفتية الدينية و السياسية. لقد ظهرت في هذه الأثناء مهن جديدة مثل رجال الدين الذين كلفوا من قبل الحاكم أن يشرعوا الأحكام والقوانين للدولة، وبهذا ظهرت حاجة ماسة لمعرفة المصادر التي يمكن أن

---

(*) يقول أحدهم ان الغربي يتناول القضايا العربية الإسلامية ويخضعها لمعيير الثقافة الغربية وتراه يتكلم عن العقل العربي والثقافة العربية ناسبا إليهما أعمال الموالي والغرباء؛ هل امتلك هؤلاء الغرباء ثقافة خاصة بهم يخضعون بها الأفكار القيمة المعنى الإسلامية ؟ إن ما يصدق على الغربيين يصدق، أيضاً، على الأعاجم عندما يتعلق الأمر بالدين أو الثقافة.

يستقى منها للأحكام والتشريعات الجديدة. مالذي نجم عن ذلك ؟ لا شيئ سوى غربلة ما هو شائع لدى العامة من أخبار الدعوة الإسلامية والصحابة، وأخذ ما اعتبروه منها صحيحا خاصة تلك التي تخدم مصلحة الحاكم من جهة وتوجهاتهم الدينية من جهة أخرى. بعد أن ثبتت الأخبار الصحيحة عن حياة السلف وأصبحت تدرس وتعلم على أنها الدين ذاته صارت معرفة هذه الأقاويل معرفة الدين ذاته، ومن يقرأها فإنه على الطريق الصحيح الذي رسمه صاحب الدعوة. ومنذ ذلكم الحين بدأ الصراع العقائدي المنظم بين المذاهب والاتجاهات الدينية المختلفة. جمدت هذه الحالة الجديدة الإسلام العربي واستبدلته بتجريدات مفاهيم ميتة ، وقد صار الدين بسببها فاسدا لا رجاء فيه لأنه همش القرآن و الإسلام العربي كمصدر تاريخي للحياة. لقد انفصلت الديانات المذهبية عمليا ونظريا عن الإسلام بصورته العربية الأولى لكي يكون بالإمكان إحداث اختيارات ضرورية للقضايا و الأمور الواجب مطالعتها والتي تقوم عليها الديانة الجديدة. إن قواعد الدين والإيمان تقوم الآن على معرفة تشريعات الديانات الجديدة التي وضعها أصحابها يوما والتي حفظت وبقيت على ما هي عليه على الرغم من تطور الأبحاث التاريخية والدراسات بخصوص معرفة الأصول الصحيحة للإسلام.لكن النقص العام حتى في الدراسات و الأبحاث الحديثة يعود بالدرجة الأولى إلى أنها هي، أيضاً، تتعامل مع الإسلام كظاهرة مجردة معزولة عن العرب، لذا فإن ما تفعله هذه الدراسات هي محاولة إثبات صحة أو غلط تجريدات مفاهيم الديانات المذهبية، لهذا تبقى بعيدة عن روح الإسلام العربي. لقد أشاعت الديانات المذهبية الفوضى والاضطراب ليس لدى العرب وحدهم، بل في نفوس معتنقيها لأن العقيدة الدينية لا يمكن أن تقوم على تجريدات مفاهيم، بل يجب أن ترتبط بحياة القوم بشكل مباشر. لهذا تركت الديانات المذهبية

أنصارها يفكرون بطريقة تجريدية تختلف تماما عن وقائع الحياة وفاعليات الناس؛ إن هذا يقود بالتدريج إلى إضعاف الإحساس الديني، لا بل وأكثر من ذلك الشك في صحة الأديان طالما أنها تتناقض كلية مع حياتهم ومطالبهم اليومية.

لقد تحدثت الديانات المذهبية عن النبي محمد (ص) والسيرة النبوية وحولتها إلى ديانة. لكن السؤال من هو محمد وما هي ديانته، بقيت رغم ذلك قضية ثانوية؛ لا يمكن أن تكون الحال على نحو آخر. كيف يمكن لأعجمي أن يتعامل مع ثقافة أو ديانة غريبة عنه ؟ يكتفي الغريب بالظاهر الذي يحصل عليه إما من الكتب أو من المحيط الذي يتصل به، أما ماهية الدين أو الثقافة فتبقى محجوبة عنه. بعضهم ألف الكتب الضخمة باسم الإسلام جمع فيها معلومات تاريخية، أحاديثاً، عروضاً وتفسيرات، وقد كان قسم منها يبين قدرة وكفاءة غير عادية للمؤلف، لكن السؤال هي ما علاقة هذه الكتابات بالدين ؟ هل أن الدين يعني تأليف الكتب؟ ما الذي تحققه هذه الكتب، ومن الذي يحتاجها ؟ لا يبعث الدين ولا يعاش عن طريق الكتب، بل تكون هذه الكتب وسيلة لتدمير الدين وإضعاف للإيمان، لأنها تمزق الوعي الديني بسبب اختلاف مصادرها وتنوع افكارها وتضارب بعضها مع بعضها الآخر. الدين حياة أو نمط حياة، وإذا لم يكن كذلك فلا معنى له ولا قيمة، لأن الفلسفة أقوى منه في تصميم صور نظرية مجردة عن الله والألوهية والخير والشر...إلخ. إن للدين خاصية لا يمتلكها أي ميدان من ميادين الثقافة الأخرى على حياة الناس إذا كان الدين « عرف شعب »، بمعنى أن هذا الدين يجسد قيماً وعادات وطقوساً وتقاليداً واعرافاً للشعب، ومن سماته في مثل هذه الحالة المباشرة والبساطة، لأنه يصير السلوك اليومي المألوف للعامة. لهذا أكرر أن الدين لا بد له أن يحمل سمات وخصوصية القوم الذي

ظهر فيهم. لو تصورنا ظهور الإسلام في بيئة غير البيئة العربية، هل كان سيطلق على الإسلام نفس الإسم، وهل ستكون نصوصه وأقواله وأحكامه معروضة بنفس الأسلوب ونفس الطريقة ؟ الإسلام اسم مشتق من اللغة العربية ويحمل خصوصية هذه اللغة وامكانيات التعبير فيها. تبدو هذه المسألة لمن لا يعرف قيمتها ومعناها، ولم يسبق له أن تعرض لأمور كهذه، وبشكل خاص الغرباء، ضرباً من اللغو. إنها تبدو لهم فارغة وعقيمة؛ ولو تعرض المرء لهم بمثل هذا السؤال فإنه سيجيب: ما علاقة الدين بمثل هذه الأمور؛ الدين وحي منزل للعالم أجمعين بغض النظر عن أصولهم وألوانهم. إن مثل هذا السؤال يحيّر الغريب. فطرح سؤال كهذا على غريب يفهم منه كما لو أنه يسأل عن الشرعية التي تبيح للغريب إصدار الفتاوى والأحكام باسم الإسلام، وهو ليس الأصل، بل إن تصوراته عن الدين استقاها من الكتب أو السماع والتي شرعتها في الغالب عقول غريبة. إن سؤالا كهذا سيفهمه الغريب على أنه عدوانية وعنصرية بحقه، لكنه عندما يخرب تاريخ العرب و تراثهم باسمهم فإن هذا مباح له و ليس فيه شيئ من العنصرية. عندما يقال للغريب أن أحكامك هذه غريبة ولا تتناسب مع حياة العرب وأعرافهم، أي أنها غريبة عنهم، يمكنك أن تسمع منه رداً على أن ما حكم به صادر عن القرآن والسنة وأحكام الأئمة. هذه نكبة يعيشها الناس يوميا ممزوجة بالعنف والقتل والإرهاب، سواء من جانب الحاكم أو القوى التي تعمل طبقا لهذا الشرع. إن الديانات المذهبية تسعى إلى أن تسبغ على تشريعاتها معان مطلقة، وتقدم نفسها من ثم على أنها تعريفات جديدة للإسلام، وبهذا تضع نفسها على مستوى واحد مع الإسلام. الناس لم يعودوا عمليا يقدسون الإسلام، بل الديانات المذهبية باسمه، التي تحمل سمات وخصائص هذه الأقوام، وعليها يقوم وعيهم القومي الجديد. لقد اغترب العرب في دينهم وفي حياتهم بسبب

الديانات المذهبية التي فرضت عليهم، والتي خضعوا لها بالتالي بحيث صار العربي يتكلم عن الإسلام وصاحب الدعوة وعن العرب وتاريخهم بنفس اللغة الجديدة المجردة التي صاغها الأعاجم من أجل بناء عالمهم الفكري والروحي. بهذا ينفصل العربي عن دينه وبيئته وصار ينظر إلى الإسلام على أنه ظاهرة غريبة وديانهة هبطت عليه من السماء لا صلة لها بهم ولا بأسلافهم، وكأن العرب لم يعرفوا اللّه من قبل ولم يصلون ولم يحجون. في حين أن التاريخ يشهد عكس ذلك. إن الإيمان باللّه والإسلام بهذه الطريقة المجردة عديم المعنى، لأنه لا يمكن إنتاج الواقع بالفكر، أي من أفكار مجردة؛ عن الأفكار لا تصدر إلا افكار وليس الواقع ووقائعه. إن اروع ما في الإسلام هو ارتباطه بالتاريخ والحياة العربيتين، بينما تتكلم الديانات المذهبية عن هذه القيم بلغة التجريد، التي تجد استعمالاتها في كل اللغات والثقافات والأديان؛ خلاصة القول إن تجريدات المفاهيم في الديانات المذهبية أقصت عمليا الإسلام العربي التاريخي من ميدان الحياة.

عاش الرسول (ص) وترعرع في بيئة عربية لم تؤثر عليها ثقافة أعجمية بشكل مباشر. دعت الرسالة المحمدية إلى إله لم يكن غريبا ومجهولا للعرب، بل عرفت اللّه وآمنت به قبل الإسلام بزمان طويل؛ لقد كان اللّه هو الإله الذي عرفته وعبدته جميع الأقوام الجزرية قديما باسم إيل(*). ليس اللّه وحده وإنما الشريعة الدينية والنظام القضائي في الإسلام عربيان أيضا. ليس منقصة للدين، وإنما بالعكس، هذا يجعل من الإسلام حقا وريثا شرعيا تاريخيا لأعظم الحضارات، واستمرارية حقيقية لديانة الوحي التي عرفتها الأقوام الجزرية دون سواها. لقد عاش النبي محمد (ص) في دائرة تأملات عصره

(-*) ظهر الإله في الألف الخامس ق.م في ربوع الحضارة السومرية، ولم يكن صنما بل أن العرب عملوا منه صنما.

وشعبه، وقد مارس الأعمال والنشاطات المألوفة في بيئته. لقد انتشرت تأثيراته وفاعلياته وتوسعت طبقا لنموذج الحياة العربية البدوية. لقد غيرت الدعوة الإسلامية طبيعة العلاقة بالله. لم يكن للدين والآلهة تأثير ونفوذ في حياة العرب لأن ديانتهم الحقيقة في الواقع هي الولاء للعشيرة. لقد كانوا يدعون إلى الله ويصلون له صلاة المطر في حالة الجفاف، وهي الصلاة التي يمارسها المسلمون اليوم ايضا في حالة الجفاف. لقد جمع العرب في الكعبة وحولها قرابة ٣٦٥ إلها، وكان الله سيد الآلهة جميعها. وكانت الدعوة الإسلامية دعوة باسم الله. لقد كانت مكة وتوابعها في الواقع متحفا دينيا تجمعت فيها الإلهة من دون معنى ديني محدد، ولذلك لم تلعب الألهة دورا كبيرا في حياتهم. ويلمس القارئ للشعر العربي الجاهلي أثرا للآلهة حتى في أشد المواقف حرجا وخطورة. ويرتبط الوجود العربي اليوم كما في الماضي بالعشيرة، واختفاء العشيرة يعني اختفاء العرب. وهذا هو أغلب الظن السبب في فناء الكثير من الأقوام والعشائر الجزرية التي اختفت من مسرح التاريخ بعد ضعف روابطها العشائرية، وتحولها إلى أقوام حضرية لأن وضعها الاجتماعي الجديد لم يولد عندها وعيا تعوض به النقص الذي تسببت فيه هذه الحالة الاجتماعية الجديدة، ولهذا كانت عرضة للزوال والفناء. مثل هذا الوضع نلمسه في الإسلام الذي حارب العصبية القبلية على أنها مصدر الشر وعائق أمام توحد العرب، لكن ما أن وهنت العلاقات العشائرية حتى صار العرب فريسة سهلة لغيرهم، أسهم الغزو الإسلامي في التسريع بانسحاق العرب أمام الأقوام التي فتحوها. إن العشيرة ضمن أنماط العلاقات القديمة قدر هذه الشعوب والأقوام. وعندما يحل نمط اجتماعي جديد محل آخر يصبح من الصعب على القديم أن يواصل مساره كما في الماضي؛ انه يضعف ويضمر ومعه تضعف وتضمر الأعراف والقيم الثمينة

التي نشأ عنها، وتطور معها النمط الإجتماعي . إن هذا يصدق على العشائر، الأقوام، وكذلك الحضارات. إن الحضارة، أو الديانة لا يمكن أن ترمم أو ترفع بقيم ووسائل غريبة. وإذا كان الإسلام ديانة أممية بالمعنى العام و المجرد، ومن دون مراعات للأوضاع الاجتماعية والتاريخية للعرب فإنه يكون بذلك موجهاً ضد الوجود العربي، وإذا كان قوميا بالمعنى العام والمجرد فإنه يقود بالتالي أيضا إلى تدمير الوجود العربي بعد أن يدمر قاعدة وجودهم العشائرية؛ لكن ما يمكننا قوله هو أن الإسلام و صاحب الدعوة بقيا من دون ريب في المسار المعهود للوعي الديني للعرب، ومع أنه لم يمس قوانين وأعراف العرب بسوء، إلا أنه مع ذلك وجه اهتمامه في الوقت ذاته ضد تعددية الآلهة وعبادة الأصنام؛ وبهذا وجه انظار العرب إلى الإيمان بالله وحده ونبذ الآلهة الأخرى. إن الرسالة المحمدية رسالة دينية عربية، ومن يشك في ذلك فإنه يكشف عن تحيزه وجهله بالإسلام وبتاريخ العقيدة الدينية للعرب.

إن الديانات المذهبية تنظر إلى القرآن على أنه رواية قصص تاريخية عن النبوءة والأنبياء حاولت أن تتعرف عليها من الروايات اليهودية، وفهمت الأفكار القيمة المعنى الإسلامية ذاتيا، وعقلتها طبقا للخلفية الفكرية والثقافية لأصحاب المذاهب. واحتوت الرسالة المحمدية وتضمنت جميع القضايا والمشاكل الموروثة في زمان الدعوة، واستعار القرآن الكثير من رموز البيئة. إن الخدمة الفضلى للرسالة المحمدية لا تنحصر في فاعليتها التعليمية (مهنتها التعليمية)، وعملها التربوي في أنها علمت الناس شيئا جديدا، ولا في أنها أغنت العناصر الموجودة عن طريق تزويد الأوضاع المتغيرة طابعا جوهريا جديدا، وإنما في إخراجها التقاليد المتقوقعة (القديمة) والضارة إلى طريق مفتوح من أجل بناء وخلق واقع جديد وإنسان متعلم. هذا المشروع

يشمل كل العرب الأكثر حاجة وفقرا، أيضاً. وهكذا فتحت الدعوة النبوية أفقا تاريخيا جديدا من أجل اخراج العرب من واقعهم المزق الفقير والمتعادي، كما مكنت ووسعت التعليم الثقافي والديني مع نظرة متفائلة ومتفتحة وواثقة بنفسها. لقد نقلت الرسالة المحمدية التصورات والعروض الساذجة الشعبية إلى مستوى تأملات « تصويرية - حسية ». أن الرسالة المحمدية قد تجذرت فيها، عدا عن الإيمان الديني الشعبي الشائع لدى العرب ، وتاريخ النبوءات، دعوى إلى شيئ جديد ألا وهو الإيمان بإله واحد ونبذ التعددية الدينية،وكذلك نبذ وتحريم ما هو سلبي في أعراف العرب. إن هذا قد منح الرسالة المحمدية بعدا تاريخيا لأنها ثبتت للعرب في ماضيهم الجزري وحاضرهم المبادئ التي تواصلت في تاريخ النبوة في تاريخ الأقوام الجزرية الثقافية والبدوية. لقد تعرف العرب عن طريق الدعوة النبوية على الماضي في صور قصصية وأفكار طبيعية يعرفها العرب من وقائع حياتهم اليومية، إلاّ أنها قدمت ومنحت هذه القصص و الأفكار معان محددة وقيمة لكي يمكن الاستفادة منها في المستقبل من أجل بناء الوعي الديني القومي الجديد، الذي يصير بمقدوره دائما أن يعيد بناء كيانه إنطلاقا من تلك المعايير التي وضعتها وحددت معالمها الرسالة المحمدية. التي وضعت نصب عينيها هذه الأهداف وثبتها القرآن من أجل بناء وعي وواقع عربي موحد يتجاوز ضيق أفق الوعي القبلي، والواقع المزق للبداوة مع أسس نظرية وفكرية وأخلاقية، ليست وليدة الصدفة، بل إنها قيم وأعراف تبلورت عبر مسار التطور التاريخي للأقوام الجزرية، لكن شيئا من هذا لم يحدث بسبب سوء فهم الرسالة المحمدية من قبل العرب أنفسهم بسبب تسرعهم في الغزو، وفتحوا على أنفسهم بابا جديدة من المشاكل قبل أن يتمكنوا من تحقيق المشروع الإسلامي كطريقة حياة حيث انقض عليهم الموالي والأعاجم الذين ادخلوهم في دينهم بحد السيف وسلبوا منهم الوصاية الدينية والإدارة السياسية، وصارت الرسالة

المحمدية في صورتها التاريخية أمراً قديماً خصاً بالرسول (ص) والصحابة، ولا يمكن تكرارها. ولذا مات الإسلام وتيبس؛ لقد صارت الرسالة المحمدية « ورقا يابسا من الماضي » بقايا عهد قديم مجهول. كان يجب على الرسالة المحمدية أن تنفض عن نفسها هذه الأدران في عملية التصور التاريخية ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يترك العرب، بسبب التخلف والجهل واعتناقها للديانات المذهبية، من أجل إعادة الاعتبار للرسالة المحمدية وتشخيصها على أنها الوحيدة، أي أنها الدين الوحيد ونبذ الديانات المذهبية على أنها ليست من الإسلام في شيئ، ولا صلة لها بقيم وأعراف وتاريخ العرب، بل تصورات دينية أعجمية، نفايات ثقافات وأديان شتى؛ المطلوب من العرب أن يعقلوا هذه الرسالة كما صورت وعرضت تاريخيا في القرآن، وما عاشه العرب من طقوس وعادات في ماضيهم وحاضرهم، والأمر الآخر هو تمثل السيرة النبوية الصحيحة، إن كان ممكنا تحديد مثل هذه السيرة، وفهم المعاني القرآنية في عينيتها التاريخية، وليس كتجريدات مفاهيم تحتمل التأويل وتقبل بأي محتوى يقدم لها. القرآن لم يتكلم عن دولة لاهوتية وحتى انه لم ترد كلمة دولة في القرآن.إذن ما الذي ارادته الرسالة المحمدية ؟ هل هي الدعوة إلى إله واحد، أم انها تدعوا إلى اكثر من ذلك ؟ من المعلوم أن الحضارات الكبرى هي نتاج ديانات كبرى، لذا يمكننا أن نستنتج الآتي، وهو أن الإسلام يرى ويدعو ضمنا إلى دولة عربية تتوحد فيها قبائل العرب لكي يظهروا كشعب موحد تقوم حياته على مبادئ وأسس الشريعة الإسلامية التي في صلبها شريعة عربية. لم يدع الإسلام إلى حكم ديني أرضي بل ارتأى تواصل الروح الجزرية - العربية التي نشأت وتطورت في رحاب الديانات التوحيدية. إن استمرارية وتواصل هذه الروح يعني في الوقت ذاته استمرارية وتواصل الروح الدينية ذاتها، ذلك لأن الروح العربية هي تواصل

وامتداد، وهي الصورة الحية الطبيعية للروح الدينية الإسلامية وديانة الوحي عموما. إن انتصار الروح الدينية الإسلامية وسيادتها لا يعني بأي حال من الأحوال فناء هذا العالم وبداية عالم جديد، بل ان انتصار الروح الدينية الإسلامية يضمن بالتالي ظهور العرب كشعب موحد في التاريخ، هذا من ناحية، وتواصل هذه الروح في المستقبل من أجل ارساء دعائم ثابتة مستقرة لحركة التطور التاريخي وتغيراتها، بمعنى انها ترسم سلفا معالم التطور التاريخي. إن اخفاق هذه الرسالة بشكل نهائي يسبب في الوقت ذاته فناء العرب، وإذا بقيت شرانم منهم فمن الصعب توحيدهم من دون الإسلام. صدق ابن خلدون عندما قال: « العرب لا تتوحد إلا بالدين ». كل إنسان يلمس اليوم التدهور والانحطاط في حياة العرب وهو نتيجة منطقية مطلوبة تسببت فيها الديانات المذهبية وإن استمرت الحال على هذا المنوال فالقادم سيكون قاتلا ولا خلاص منه؛ إنها النهاية البائسة، لأننا لن نستطيع ان نجدد أنفسنا او نعيد بناء كياناتنا الاجتماعية والسياسية طبقا لمطالب العصر وضرورات لزمان التاريخية. القرآن يزخر بمثل هذه الوعود مذكرا العرب انه لا بديل لهم غير هذا الدين، وهو فرصة أخيرة تمنح لهم. لقد سرد القرآن قصص الكثير من الشعوب والأقوام التي انقرضت واختفت من مسرح التاريخ على الرغم من قوتها وجبروتها لأنها تخلت عن العناصر الأساسية التي قامت عليها هذه الحضارات. الإسلام هو العنصر الأساسي في الوجود والثقافة العربية، وهو الذي نشأ بدوره على قيم وأعراف هذه الثقافة، لذا فإنه من أجل الاحتفاظ بالإسلام يجب أن تحفظ مقوماته التي نشأ عليها ألا وهي العرق العربي وتقاليد واعراف العرب. الإسلام ثقافة وعقيدة العرب وهو الذي يقوي كيان الأمة الظاهري والباطني، الداخلي والخارجي. الإسلام بالنسبة للغرباء دين لا غير أما بالنسبة للعرب فإنه قدر وجودهم. لقد تحددت الرسالة المحمدية في القرآن الذي عرض استمرارية وتواصل ديانية الوحي ومن ثم

قدم الاقتراحات والنصائح بصدد السلوك العملي الصالح والابتعاد عن التصرفات والأعمال السيئة. كانت هذه من الوظائف والنتائج الكبرى للرسالة المحمدية، أي أن الإيمان الديني الإسلامي أراد انشاء مرافق ومنشآت على الأرض للعرب. كان النص القرآني واضحا وهذا محتواه الأصلي، وكل ماعداه كان تكرارا لمحتوى معروف من أقوال ومواعظ العرب ولم يصطدم بشيئ جديد غريب يخالفها.

القرآن الكريم يزخر بمواقف متضاربة، موقف ينسخ آخر، لذا تتبين له وجوه شتى، أي أنه « حمال أوجه ». إن الآيات والسور القرآنية تعلن م ناحية مواعظ وحكماً، ومن ناحية اخرى وعيداً وتهديداً ومخاوفاً. ولو بحثنا عن مصدر هذه الاختلافات والتنوعات فإنه يرجع إلى طبيعة المنطقة واوضاع العرب آنذاك. فلم تعرف المنطقة العربية استقرارا؛ إنها في حالة حرب دائمة وهجرات تجعل من الصعب جدا استتباب الأوضاع. وهكذا كان الحال في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده. وقد تفاقم هذا الوضع بعد الغزو العربي للبلدان المجاورة، مما دفع بالتالي إلى عدم الاستقرار في المنطقة، واصبح من الصعب على دولة ان تحتفظ بكيان سياسي واجتماعي ثابت، ذلك لأن الحروب والهجرات تضعف هذه الكيانات، الأمر ما يؤدي بالتالي إلى سقوط الدول والحضارات. تسببت هذه الحالة في اندثار وهلاك الأقوام الجزرية التي لم يعرف عنها شيئا إلا على صفحات الكتب. لقد راعت الرسالة المحمدية هذا الأمر بحيث قدمت قيم واعراف العرب بشكل نسقي منظم بعد أن كانت مبعثرة وغير موحدة. وكان الإسلام دعوة تبشيرية للعرب بواقع ومستقبل افضل يقوم على اتباع الوصايا الدينية التي تعبر في الوقت ذاته عن الوعي القومي الذي يصير في الوقت ذاته وعي بالله، بمعنى وعي إلهي. إن الوعي الديني، القومي الجديد يرتبط مع الإيمان بواقع التبشير العربي في

مستقبل موحد. والرسالة المحمدية لا تنفصل بالطبع عن شخص الرسول (ص). إن من لا يريد أن يرى الارتباط بين الرسالة والنبي فإنه يهزأ من الفهم التاريخي الداعي إلى أننا يجب أن نرى في شخص الرسول ذلك العربي البدوي الذي تشبع بعادات وأعراف شعبه، وليس ذلك الشخص الذي يجرد عن كل انتماء وثقافة، ومن ثم جعل الإسلام ورسوله بلا هوية، لأن الإسلام سيكون في هذه الحالة رياءً ونفاقا بحق العرب لأنه سيسلبهم هويتهم، ويخلق بذلك واقعا مغتربا لا يستطيع العرب التعامل او التعايش معه. عندما تفصل الرسالة وداعيها عن بيئتها تصبح سخرية وتهكما، ومن الصعب العثور في هذه السخرية من التاريخ على شيئ سوى « تناقضات عقل قديمة للوجدان الديني » لأنها تمثل صهر عناصر وتصورات لا يمكن توحيدها من أجل بلوغ صورة عامة تلبي حاجة الإحساس الديني. إن مثل هذه الطريقة لا تتلائم أصلا مع دعوى العقل، كما انه لا يمكن العقل بها لا نقديا ولا علميا ولا تاريخيا.

عندما يدعي أصحاب الديانات المذهبية انهم يؤمنون بالإسلام كما آمن الرسول (ص)، فالسؤال هو: كيف آمن الرسول ذاته بنفسه، وبأي معنى آمن بنفسه (في ذاته) ؟ الإسلام لم ينفصل عن التقاليد الجزرية ولم يؤكد الإسلام ولا صاحب الدعوة على أن الإسلام ديانة جديدة تماما، ولا هو بنظرية دينية جديدة، أي أن الرسول ما كان ليدعي بأنه مؤسس دين جديد لم يكن معروفا لأحد من قبل، بل إنه قال إن دينه امتداد لدين إبراهيم. الإسلام يعني بعث جديد للديانة الإبراهيمية. الجديد في الإسلام عرضه وطرحه للشؤون الدينية من رؤية عربية. إن من يدعي أن فاعلية الإسلام أدت إلى ظهور دين جديد يشير الى شيئ من عدم الإيمان وجهل بحقيقة الإسلام وتاريخه. الجديد في الإسلام ارتباطه بالعرب وقيمهم وأعرافهم، ارتباطاً مصيريا، وقد أصحبت

الدعوة إلى الله دعوة إلى الدنيا والحياة. ومن هذا يُستنتج ان تدهور الواقع العربي يعني تدهور الإسلام ذاته وفناء العرب يعني نهاية الإسلام. وتمزق الإسلام إلى ديانات مذهبية يخضع لها العرب ذاتهم يعني، أيضاً، ضياعهم تدريجيا، وهو ما حصل ومازال يحصل إلى اليوم. إن ما حدث تاريخيا للدين الإسلامي والإسلوب الخاطئ في فهمه والتعامل معه بعد موت صاحب الدعوة بدءاً بالخلافات على السلطة وانتهاءً بالغزو الخارجي الذي أثر في الواقع وفي الوعي العربي كثيرا. ما هو إلا فترة قصيرة حتى تغيرت جميع المعالم الدينية والدنيوية بحيث صار السعي من أجل الغنائم والثروة غاية دينية. بعدها بفترة قصيرة بدأتَ التأويلات الدينية والأحاديث الكاذبة عن الرسول (ص) والصحابة التي استمرت وتواصلت في الديانات المذهبية. والسؤال هل يمكن اللجوء إلى مثل هذه التأويلات من أجل الإلمام بالروح الدينية الإسلامية العربية ؟ إن اصحاب الديانات المذهبية يقصدون بوعي تفسير رمزي لا تاريخي، أين يبقى عندها الإستناد إلى القرآن والسيرة النبوية ؟ إن هذه الطرق و الأساليب الملتوية منفرة عديمة القيمة تاريخيا. هكذا نشأت الديانات المذهبية بشكل تعسفي ولا تاريخي.

بعد أن أقصيت في الديانات المذهبية عروبة وتاريخية الإسلام التي حاولت الرسالة المحمدية أن تنفذ عن طريقها رسالة تبشيرية قومية للعرب من أجل انشاء واقع عربي موحد، أي ان يصير العرب شعبا موحدا بدلا من عشائر متحاربة، لو تتبعها الرسالة المحمدية وفحصنا نصوص القرآن نراها تعج بالأمثلة والذكر من أجل أن يجعل العرب هذه القضية في صلب العقيدة الدينية. إن النصوص الدينية تتكلم العرب وواقعهم وعن العالم وتاريخه وتقلب أحوال الشعوب والأمم وعرض العبر وتقديم الحلول من اجل تسهيل

عملية التحول في حياة العرب عن طريق تثبيت الإيجابي في قيمهم وأعرافهم وتقاليدهم على أنه شريعة دينية، وصايا إلهية. كان يمكن أن يتم التحول بسهولة ويسر لو بقيت مقاليد الأمور بيد العرب. لكن بعد أن توسعت العرب وزادت الغنائم اختفت الوظيفة الدينية للإسلام، وأصبح أداة لتحقيق التوسع . ليس هذا بالطبع نتيجة طبيعية للرسالة المحمدية؛ لأنها لم تكن دينا توسعياً ومثل هذا السلوك لا يصدر بالتأكيد عن الإيمان بالطبيعة التوسعية لهذا الدين، فقد كانت الرسالة المحمدية في الوقت ذاته رسالة ثقافية، عربية لأنها احتوت على جميع عناصر الثقافة التي امتلكتها الأقوام الجزرية والعرب بحيث صارت الدعوة الإسلامية ظاهرة ثقافية، والثقافة جزء من هذه الدعوة لأنها اهتمت وعالجت جميع مرافق حياة العرب، ولم تنحصر مهمتها في الشؤون الدينية ومسألة الإيمان بالله والثواب والعقاب والجنة والنار...إلخ. الديانات المذهبية صارت من بعد عدوا وخصما للثقافة، وقد عم الجهل والفوضى والتخلف بعد هيمنتها لأنها مشبعة بروح أسطورية من ثقافات وأديان شتى غريبة عن الديانات والثقافات الإسلامية التي لم تعرف لا علما ولا ثقافة حقيقية، بل إن الديانة والثقافة جزء من العقلية الاسطورية. لهذا صارت الثقافة ظاهرة الكفر لأنها حسب دعواهم تبعد الإنسان عن دينه وربه.

إن الديانات المذهبية بعد أن عزلت الرسالة المحمدية عن شعبها وتاريخها لم يتبق منها سوى الإسم، ولم تعد بعد ذلك رسالة ذات غاية من أجل اصلاح الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية بل دعوة إلى إله مجرد؛ إنها تبعث التشاؤم في النفس. إن النزعة التشاؤمية للديانات المذهبية التي تخلقها في نفوس معتنقيها تخالف ليس التعليم عامة والتعليم الحديث بشكل خاص، بل إنها تقف سلبيا تجاه النظرة التفاؤلية إزاء العالم الأرضي، أي أنها تقف

ضد الروح الإسلامية مع إلهها وخلقه، ضد الإسلام الذي كان هدفه الأول إصلاح وتجديد العالم والواقع الإجتماعي والأخلاقي للعرب. عمليا القي خارجا بكل ما هو خصوصي وأصلي من الرسالة المحمدية. ما الذي يتبقى منها في مثل هذه الحالة ؟ الشيئ الباقي هو رموز وأقوال مجردة لا غير. لقد انحصرت مثلاً قضية الأخلاق والثواب والعقاب، وأصبحت لا صلة لها بواقع العرب وتقاليدهم. إن اخلاقا تقوم على الثواب والعقاب وحدهما ليست أخلاقا ولايمكن العمل بهما، لأن أخلاق أمة هو ما تعيشه في حاضرها، إنها مشروطة تاريخيا بقيم وعادات وطقوس القوم. كيف يمكن لقوم أو تجمع بشري أن يكون اخلاقيا ولم يكن يوما ذا كيان اجتماعي وثقافي مستقل، بل مستعمرات خاضعة لنفوذ الأسياد ؟ ما هي المعايير الأخلاقية سواء على الصعيد الديني أم الإجتماعي ؟ كيف يتسنى لمثل هذه الأقوام أن تسن لها شرائع وقوانين ؟ الخير والشر عموما مفاهيم مجردة؛ لكن ما يعرفه الإنسان في واقع الحال قيم واعمال محلية عن الخير والشر يطور عنها المفهوم العام. الخير والشر في هذه الحالة يحملان السمات والخصائص القومية للأقوام. القانون المجرد لا يمكن العمل به في هذه الميادين لأن الناس تتصرف وتسلك طبقا للمعروف والمعهود لديهم، والتي هي بالتالي نتاج قواهم النفسية التاريخية. لذا فإن المواعظ والإرشادات لا تجدي نفعا في هذا الميدان.

منذ هيمنة الديانات المذهبية الأعجمية على الواقع الاجتماعي والديني والسياسي ظهرت بوادر الحياة اللاأخلاقية التي لا تتناقض مع روح الرسالة المحمدية، ومع الأفكار القيمة المعنى الإسلامية فحسب، بل ومع الحياة الطبيعية عموما. إن دعاة الديانات المذهبية عاشوا في بيئة غريبة عنهم في قيمها وأعرافها واخلاقها، لهذا شعروا بانفصالهم عنها، وكما كان من المتعذر عليهم العمل بمقتضى الحياة الأخلاقية والعرفية الشائعة في هذه الربوع، لم

يبق لهم سوى حصر الأخلاق بقضية الثواب والعقاب. ما الذي يحصل في مثل هذه الأحوال ؟ إن ما يحصل هو تفاعلهم مع واقع لا ينتمون إليه ويتطلعون إليه بعيون غريبة ومن الخارج، لكن الدولة هي التي خلقت أجواء مناسبة لمثل هذه الآراء والمعتقدات وفرضتها على الناس بالقوة بحيث صار الإنسان يسمع أمراً ويرى شيئاً آخر تماما. لقد تمزق الواقع وحدث أشبه ما يكون بالانفصام بين ما يدعى له وما يعاش يوميا. لقد بدأوا يتكلمون عن الخير والفضيلة والشرف وسواها يسيقون لذلك الأحاديث والروايات عن الرسول (ص) والصحابة معتقدين بأن هذا يكفي من أجل جعل الواقع الإجتماعي دينياً وفاضلاً. هنا تغرس الرذيلة باسم الفضيلة والشرك باسم الإيمان، والأكثر من هذا كله هو تغريب العربي عن دينه وبيئته. لقد صار الإسلام تصورات دينية لأصحاب الديانات المذهبية. إن من يطلع على واقع البلدان الإسلامية من الداخل متخطيا تلك القشرة البراقة الظاهرية (الوهمية) التي تتشدق بالخير والشرف والفضيلة وغيرها يجد نفسه واقفا في بيئة أكثر انحلالا ولا أخلاقية، ولأنها بسبب التغيرات العرقية والمذهبية الدائمة لم تتمكن من أن تخلق لنفسها كياناً اجتماعيا ثابتا تتطور عنه قيم وأعراف وأخلاق أصيلة خاصة بالقوم، بل بقي كل شيئ فوضويا تتصارع فيه تصورات ومعتقدات شتى من مصادر مختلفة؛ وهكذا بقي الإسلام كغيره من الظواهر عديم التأثير والنفوذ اللهم إلا من الكلام الفارغ الذي يتشدق به دعاة هذه الديانات. لهذه الأسباب وغيرها لا يبقى في العلاقة الأخلاقية للرسالة المحمدية شيئ حقيقي وأصلي قابل للاستعمال، وإن وجد ما هو قابل للإستعمال فإنه يتقلص ويختزل إلى مجموعة أقوال لا يدرك بعدها وعمقها لا العرب ولا حتى صاحب الدعوة ذاته. لقد خلقت الديانات المذهبية بذلك صعوبات كبيرة لها لأنصارها لا مخرج منها سوى تقديم الرسالة المحمدية في أقوال جمعوها ونسبوها إلى صاحب الدعوة، و تمت الدعوة لها على أنها

الرسالة الصحيحة؛ لقد قدمت الأقوال والأحاديث كشعارات من الصعب تبين واستقاء معانيها وقيمها التاريخية. بالنتيجة تتجاوز مواعظ ودعوات أصحاب الديانات المذهبية بصدد الرسالة المحمدية والقرآن فيما يتعلق بتعسفية عروضهم ورمزيتها وتصميمها نتاجات الرعيل الأول من المسلمين العرب في هذه العلاقة، ولا مثيل لهم وسط العرب و الأعاجم لأنهم خلقوا ديانات جديدة لم تستمد من التراث العربي الجزري. إن الأقوال أو ما يسمى بالأحاديث النبوية لم تكن في صورة مجردة بل قدمت في صورة تعابير مجازية يسهل تأويلها اللاتاريخي واللانقدي من قبل الفكر، لأن الصور المجازية تخضع العلاقة بالتأويل طالما أنها استأصلت مرة من أصلها التاريخي النفسي. إن الخطأ الأساسي الذي ارتكبه الغرباء يتلخص في أنها تبحث أولا عن القيمة التاريخية في شخص محمد (ص)، أي في تأثيره الشخصي على البيئة بدلا من دعوته؛ إنها ترى وتقدس في الرسول كونه مؤسس ومشرع لديانة كونية جديدة وتتجاوز بذلك على التاريخ وحقاقه، وتخالف بذلك القرآن الذي يشير إلى أن الإسلام تواصل وامتداد للروح الدينية الإبراهيمية، لكنه أخذ بعدا ومظهرا خاصا تتجلى عن طريقه ومن خلاله سمات وقيم وأعراف حياة العرب. بعد أن تمزقت الرسالة المحمدية بسبب هيمنة الديانات المذهبية على مقدرات الدين والدولة ظهرت هناك حاجة ماسة لعقيدة يدافع بها هؤلاء عن أنفسهم ومعتقداتهم الدينية ضد العرب التي كانت خصمهم الوحيد. لذا تراهم شرعوا في بناء دياناتهم الخاصة، ولهذا احتاجوا إلى صور فكرية وأحاديث من أجل ارساء قواعد الديانات الجديدة، وظهرت حاجة ماسة لتنويع المصادر فمنهم من عني بجمع ما يسمى بالأحاديث، وآخرين بالأمور الفقهية، وآخرين في التأريخ. وقد اجتهد في هذه الميادين عمليا الفرس دون سواهم. إن الشعب الفارسي هو الشعب الوحيد الذي غزاه العرب والذي يصدق عليه

عرقيا اسم شعب؛ كانوا شعبا حضاريا وثقافيا؛ وامتلكوا تاريخا طويلا تطورت من خلاله لديهم قدرات فكرية وتنظيمية لم تعرفها أي من الأقوام الأخرى التي غزاها العرب، وهو ما ميزهم عن سواهم؛ ولهذا كانوا أول من تمرد على العرب بسبب شعورهم الاستعلائي على الآخرين على أنهم شعب ذو حضارة وثقافة، وكانوا يرون أنفسهم أرقى من العرب. بينما كانت أغلب الربوع الأخرى مستعمرات رومانية عاشت فيها أقوام جمعت من كل أوب (من كل بقاع الأرض) عبيد الرومان، والطائفة الأخرى هي الأقوام المغولية، التركية وهي أقوام همجية أبعد ما تكون عن الثقافة. لقد اجهد الفرس انفسهم في هذا الميدان، وجمعوا ما يسمى بالأحاديث، وشرعوا الفقه، وسجلوا الأحداث التاريخية. كل ما يعرف اليوم باسم الثقافة الإسلامية هو في صلبه تراث الموالي الفرس. لقد كان الكثير من الأحاديث والقصص وسواها تتناقله العامة بغض النظر عن صحتها وخطئها، لكن الجديد الذي عمله الفرس هو تدوينها وتصنيفها وتثبيتها على هذا الأساس كدساتير بعد أن كانت الناس تتناقلها مشافهة. لم يكترث هنا كثيرا بمسألة الصح والخطأ، وما هو مربك ومحير وضار بالدين وبالناس، بل أن الأهم من هذا كله هو إرساء دعائم الديانة الجديدة والاعتراف بها من قبل العامة والخاصة وكذلك الحاكم ايضا. لقد صارت الرسالة المحمدية أحاديث متناقلة. إن انزال الدين إلى مستوى أحاديث وقصص هو في الوقت ذاته عدم احترام لهذه الرسالة التاريخية، ذلك لأنهم حولوا الرسالة المحمدية بلا مراعاة لشيئ لكي يجعلوا منها صالحة للعمل والخدمة. لقد حلت الديانات المذهبية محل الإسلام أما الرسالة المحمدية في صورتها العربية فإنها تصير « مجهولة بالنسبة للشعوب الأخرى، ولن يدرك معناها وقيمتها التاريخية إلا كتعبير أولي (بدائي) قديم لعلاقة دينية فردية ». ومن هذا يفهم أن الرسالة المحمدية ظاهرة تاريخية خاصة بالعرب لا

شأن للموالي والغرباء بها، وهي تجربة دينية خاصة بشخص الرسول ولن تتكرر، ولذا عليهم أن ينشأوا لأنفسهم دياناتهم الخاصة كبديل لتجربة الدعوة النبوية، والتي لا تبرز فيها هذه الدعوة إلا في صورة مجردة لا غير.

أشاعت الديانات المذهبية على أن الإسلام ديانة عالمية كونية جديدة لا تخص شعب أو أمة وانما هي للناس أجمعين. بهذا العمل تكون قد عزلت عن بيئته وقطعت صلاته التاريخية بالنبوة والتاريخ الجزري العربي؛ وصار صاحب الدعوة مؤسساً لدين جديد، والرسالة المحمدية حاملة لنظرية جديدة. بينما واقع الحال آخر تماما. الإسلام علم العرب أن يؤمنوا باللّه الواحد، وهي مع ذلك لا تنفصل عن تحقق تبشير قومي. لكن الذي حصل في الواقع هو أن الديانات المذهبية لم تعمل شيئا ذا قيمة أكثر من أنها جعلت فيما بعد من الأقوال والأحاديث والقصص عن الرسول (ص) نقطة لديانة مذهبية باسم الإسلام، وان تحرف وتفسر الدعوة في معنى هذه الديانات. الرسالة المحمدية بغض النظر عن كونها رسالة سماوية إلا أنها في الوقت ذاته حركة ثقافية وسياسية تعكس سمات وبيئة النفس العربية، وتمثل بالتالي نتاجا لها. من هذا المنطلق ليست الرسالة المحمدية ديناً جديداً في حياة العرب، بل إنها رفعت الوعي العربي إلى مستوى أرفع و أكثر تنظيما، أي أنها ارادت أن تخلق وعيا موحدا دينيا وقوميا، أي أن الإسلام صهر العناصر المختلفة للبيئة العربية في محتوى وصورة جديدة؛ اما الجديد حقا فهي الديانات المذهبية التي خلطت وصهرت عناصر ثقافية ودينية لحضارات مختلفة وقدمتها على أنها تعريفات جديدة للإسلام، وتكون بذلك قد قدمت إسلامها في صورة رموز وتصاميم وعروض تعسفية جديدة حقا. لو أن الموالي لم يتمكنوا في العصر العباسي من السيادة والهيمنة وإقصاء العرب من ميدان الدين والسياسة لما استطاعوا نسج مثل هذه الأفكار الدينية، ولما تمزق

الإسلام إلى مذاهب ولأحتفظ بروحه وأصله العربي من دون تزوير واختلافات. كان مشروع الدعوة النبوية توحيد العرب في إطار هذا الدين بينما نرى اليوم أن العرب بدلا من ان ينتمون إلى العشائر كما في الماضي أصبحوا ينتمون إلى المذاهب وكل يدعي أن الحق معه من دون أن يعرف السبب، ومن دون أن يجتهد لنفسه، بل يتبعون تصورات وآراء الموالي والغرباء في الإسلام. لقد قدمت الديانات المذهبية نفسها على أنها التعريفات الجديدة للإسلام، وكل ديانة تدعي انها الأصح من غيرها وتخطأ كل الأديان الأخرى. الديانات المذهبية انطلاقا من دوافعها ونتائجها الاجتماعية و السياسية عمل انتقامي مارسه الموالي ضد العرب اولاً والإسلام ثانيا. لقد صار الإسلام وعاء لاحتواء التصورات والعقائد الدينية الجديدة. لم يبق من الرسالة المحمدية سوى ورقة بيضاء نسخ عليها ما وثق تاريخياً، وما صدر عن هذه الأديان هو ما ترغب فيه الديانات المذهبية ألا وهو الفراغ حر بلا عوائق من أجل الدعوة إلى أفكارهم الخاصة في العالم دون منع اسم الإسلام، أي الدعوة إلى افكار غريبة باسم الإسلام. إن من يسمع بكلمة قرآن وسيرة نبوية يفهم منها أنها دعوة إلى الإسلام في صورته العربية البدائية الأولى، لكن ما يحدث فعلا هو عزل تلك الصور البدائية عن الحركة الدينية للديانات المذهبية. لو أن الديانات المذهبية سجلت فعلا الحقائق التاريخية وثبتتها لفهم الدين والتعامل معه لكن هذا أمراً في غاية الأهمية والعظمة؛ إن الذين يدعون استنادهم إلى علم التاريخ يسخرون من الحقيقة التاريخية التي تمثل المحتوى الحقيقي لتاريخ ودين العرب وليست حدثا مجردا. بعد أن عمل دعاة الديانات المذهبية مسحا سطحيا لجميع المعتقدات الاحتوائية للديانات والثقافات الغريبة عمدوا إلى انقاذ اسم الإسلام من العقائد الغريبة التي يخافون أن تتسرب إلى الإسلام، ولهذا شدوا الرقع المختلفة وربطوها مع بعض تحت أسماء

مذهبية شتى تنسب نفسها جميعا إلى الإسلام والسنة النبوية، وتزاوج بذلك الإسلام مع أفكار دينية وثقافية مختلفة، ويدعون من ثم أن الرسالة المحمدية كانت هكذا دائما منذ بدايتها. ما هي الرسالة المحمدية، وكيف آمن النبي محمد (ص) برسالته، وكيف دعا لها؟ أسئلة سوف لن يكون بمقدور الغريب الإجابة عليها. إن بعث روح الرسالة المحمدية في زماننا هذا مستحيل لأنها ترد بالتالي إلى الديانات المذهبية. كان بإمكان العرب ان يبعثوا هذه الروح حي، ويجعلونها تتواصل فيهم لو أن مسار التاريخ الديني ضل بأيديهم.باستطاعة العرب وحدهم الإبقاء على روح الإسلام حية لأنها روحهم الخاصة. ولو افترضنا أن الأعاجم اتبعوا فعلا الرسالة المحمدية، وأن ما شرعوه وما نسبوه إلى الإسلام والأحاديث النبوية صحيح مئة بالمئة ويتفق عليها الجميع بلا اعتراض لما أمكنهم، مع ذلك، ممارسة هذا الدين بالطريقة التي يفهمها ويعيها العرب، لأن الإسلام على الرغم من انه ديانة وحي إلا انه في الوقت ذاته ارث عربي سامي يرتبط بحياة العرب*، كما أنه ظاهرة نفوسهم وعلامة من معالم حياتهم الثقافية. إن كل ما يصدر من الأعاجم باسم الإسلام ليس من الإسلام، وحتى لو كانت الأحكام في ذاتها صحيحة، فإنها تبقى تجريدات لا ترتبط بالحياة النفسية والثقافية والفكرية والدينية للعرب.

إن في عزة المحمدية تكمن بقايا من سلطة الإيمان القديم الذي يقوم على الإحترام المتين الصارم من الماضي في الشعب قبل الرسالة، وقبل الرسول (ص) التي تقوم على الإيمان بالله، الإيمان الذي يعيش ويبقى على قيد الحياة

(*) إن الوقائع الأحادية نتاج النفس التي ليس بمقدور غريب أن يكتشف ماهيتها الحقيقية. عندما يدرس الباحث ظاهرة غريبة فإنه يخضعها لمعايير ثقافته لكي يتسنى له أن يرسم لها ابعاداً تجعل منها مفهومة لنفسه وللآخرين من بين جنسه.

من جراء قدرة الاستمرارية للقوى الروحية التي تعيش أزماناً قد تطول وقد تقصر. الإنسان العربي يمكن ان بيني على احترام البقاء والعيش من أجل أن يخلق بعد تدمير السلطات المتداعية من أجل الرسالة المحمدية قبولا أكثر اكتمالا واستسلاما. لقد قضت الديانات المذهبية بلا رحمة على أي نوع من السلطة والنفوذ العربيين، وصار بمقدور أصحاب الديانات المذهبية أن يتفاهموا وأن ينسجموا فيما بينهم دونما حاجة إلى سلطة ونفوذ النبي، أو الصحابة. إن طرح مسألة العودة إلى الرسالة المحمدية ضمن الشروط والأوضاع القائمة سوف لن يمتلك ميزة أيجابية من أجل بناء أسس حديثة للشريعة الدينية الإسلامية، وإنما ميزة سلبية ذلك لأنها بالنسبة لأهداف الديانات المذهبية فارغة من المضمون العقائدي (الايدولوجي)، ولهذا إرتأوا سن تشريعات جديدة تستجيب لمطالب الوضع القائم الذي تهيمن عليه القيم والأفكار الغريبة التي لا تتفق مع قيم وأفكار وأعراف العرب.

# لا إســلامية الديانات المذهبيــة

اشـاع أصـحـاب الديانـات المذهبية النقد ضد خصومها تحت دعوى أن الديانات الأخـرى مـخـالفة للقرآن والسنة بغض النظر عن القـائل ومن يكون، ومنحوا أنفسـهم الحق في تمثيل الرسـالة المحمدية لكي تمنح نفسـها شرعية دينية. واحـتلت أسـمـاء اصـحـاب الديانات المذهبية مكان وسـمـعة الأولين من العرب ذلك لأنها هي التي قضت على سمعتهم وصار الناس بمن فيهم العرب ينسبون أنفسـهم إلـى الديانات المذهبية التي تدين بـهـا . لو يسـأل المرء هؤلاء، هل كـان النبي مـحـمـد (ص) صـاحب مـذهـب أو على مذهـب، وإن كان كـذلك فإلى اي المذاهب ينتمي ؟ بهذه الطريقة تقضي الديانات الذهبية لا على الروح الدينية الإسـلامـية وممثليـها مـن العرب، بل إنهـا قضت على سـمـعـة صـاحب الدعـوة، وكل مـا ارتـبط بـهـا تاريخـيـاً عـلـى الصـعـيـد النفسـي والاجـتـمـاعـي والأخـلاقي. عندمـا يـعـمل اللازم حـيث لا يعطى بعـد ذلك سـبـبـا يسـتـحق بمقـتـضـاه الرسـول (ص) والصـحـابة أكثر مما يستحق أصـحـاب الديانات المذهـبـيـة عندهـا يصـيـر لزامـا على الإنسـان أن ينظر إلى صـاحب الدعـوة والصـحـابة بنفس المنظار الذي ينظر فيه إلى أصـحـاب الديانات المذهبية، وأن تقاس الأفكار القيمـة المعنى الإسلامية بأفكار وتصورات أصـحـاب الديانات المذهبية، وأن تتطابق معهـا . إن آراء وأفكار أصـحـاب الديانات المذهبية اثبتت على أنها غـيـر صـالحـة للتطبيق لا في زمـاننا فـحسب، بل وفي الأزمـان التي شرعت فيها . إنها آراء ومـعتقدات نظرية هامشية لا يعمل بها أحد، ولا حتى أنصـارهـا ؛ إنهـا ليست دينا بل جزء من الوعي القومي المحلي لهـذه الأقـوام. إنهم لم يحاولوا التوفيق بين شرائع وأحكام هذه الديانات والمطالب العصرية

بل إنهم ينعزلون عن العالم والتاريخ؛ لا يمثلون إلا أنفسهم، ذلك لأنهم لم يفعلوا شيئا لديانتهم ولحياتهم بحيث يمكنهم احتواء واستيعاب العصر. إن معتقدات وآراء أصحاب الديانات المذهبية وأنصارها تضع نفسها خارج مرحلة التطور التي يختار الإنسان المناسب من أطوارها المختلفة. يحدث الاختيار والإنتخاب وفق دوافع ومراعاة تقع خارج مسار تطور مرحلة الأفكار والمعتقدات المهيمنة؛ ويتعلق الأمر هنا بالثقافة وقيمها. تقترب الديانات المذهبية في حشر القضايا الدينية القرآنية من معانيها إلا أنها تسعى في الوقت ذاته إلى تبرير تدمير إيمان الوحي بسبب الاحترام الذي يحمله الناس للقرآن والسنة النبوية. إن هذا لا يمكن اعتباره عملاً مخلصاً بحق الدين و النبوة. لقد وضعت هذه الشعوذات من قبل أصحاب الديانات المذهبية وزيد عليها من قبل انصارها. صحيح أن الدعاة يقبلون بالقرآن كنص للمواعظ يستقون منه المواقف والتعابير لخطابهم ومواعظهم، لكن هذا يحدث بعد تدمير سلطته ونفوذه، ناهيك عن سوء الإستخدام والمضاربات في حقه. إن هذه الاستعمالات والمضاربات وهذا النوع من السلوك يمكن اعتبارها تسلية بريئة إذا لم يراد بها أن توقظ عن طريق الاحتفاظ بالصورة الفارغة للظاهر، وبالمثل يحتفظ جوهر الديانات المذهبية وتشريعاتها في عروض الكلمة الإلهية (كلمات الوحي). عن طريق الإيهام والتعاويذ تحاول الديانات المذهبية أن تخدع الناس بظاهر الاستمرارية التاريخية الملاحظة مع الرسالة المحمدية، بينما يدمر في التخلي عن إيمان الوحي ونفوذ وسلطان النص المقدس. إن هذا الارتباط الدائم لا شفاء منه في الحقيقة و الواقع. بعد هذا لا يوجد سبب يجبر دعاة الديانات المذهبية ان يبحثوا عن نصوص ومصادر غير تلك التي شرعوها بأنفسهم والتي تمثل الإيمان الديني في ماضيه وحاضره ومستقبله، أي انها تنشأ المقياس الأكثر تطورا بالنسبة لقياس قيم الضروب المعروضة. تعتمد الديانات المذهبية على معتقدات غريبة تتوقف على مراعاة

العروض الصورية. وبما أن الديانات المذهبية تأثرت واعتمدت الكثير من الأفكار والمعتقدات الغريبة الدينية والثقافية(*) لكن ما يقر هو ما يعثر عليه، وما يعثر عليه هو مصطلح الأفكار المتمثلة والمعروضة من قبلها لأنه لا يعيش باطنيا أي نوع من السلطة والنفوذ.

عندما يؤسس أصحاب الديانات المذهبية معتقداتهم عن طريق اقتباس بعض الآيات والأحاديث فإن السبب وراء ذلك ظاهري (خارجي) فقط، إنهم يخدعون أنفسهم في السعي إلى ربط تفكيرهم بعلاقة وثيقة مع القرآن والسيرة النبوية أكثر من أي كتاب او شيئ آخر. إن هذا الخداع واضح وغير صحيح لأنهم ينفرون عمليا من جميع المعتقدات النظرية العقائدية المبدئية للقرآن والسنة، لأن الأفكار القيمة المعنى الإسلامية بصورتها البدائية العربية لا تنسجم ولا تخدم المعتقدات الغريبة عنها. إن الرأي الإيجابي في أصحاب هذه الديانات هو أنهم قيدوا توفيقيتهم الدينية بقضايا جانبية يشوهونها تماما أكثر من ذلك عن طريق التفسير اللاتاريخي من جانب المعنى. إن توفيقية الديانات المذهبية لا يمكنها أن تدعي مصلحة ايجابية لأنها تفيد كدليل مادي على النقد التدميري التخريبي، ومن الممكن أن تكون موضع اهتمام للحد الذي يبقى الإيجابي التدميري في القوة التاريخية الذي يجبر على مواصلة الصراع. يتساءل المرء بأي حق يسمي أصحاب الديانات المذهبية وأنصارهم مسلمين، علما انهم لم يأخذوا شيئا مباشرا من العرب ؟ إذن بماذا تؤمن الديانات المذهبية ؟ إنها تؤمن بان محمدا (ص) مؤسس الديانة الإسلامية لا غير. لذا فإن الصورة التي تعرض بها الديانات المذهبية

---

(*) في الرسالة المحمدية كان الإسلام في الوقت ذاته ظاهرة ثقافية للروح العربية، والثقافة جزء من الدين، وهو عكس ما حصل في الديانات المذهبية التي جعلت من الثقافة شيئاً والدين شيئاً آخر، ويقفان في تضاد وخصومة بعضهما مع بعضهما الآخر.

إيمانها بالرسالة المحمدية لا تاريخية. لو نتجاهل هذا الأمر فعلا عندها لا يمكننا الإقرار بأن الصفات الصورية لمؤسس الدين تكفي عن طريق الإيمان بالدين للانتماء إليه. السواد الأعظم يؤمن بأن الرسول (ص) هو صاحب الدعوة ومؤسس هذا الدين، ولو أن الإيمان الديني الإسلامي الخاص يقوم على الإيمان بالرسول كمؤسس للإيمان لكان هذا دورة جوفاء فارغة. فالنتيجة الحاسمة لهذا التفريغ هي الإيمان بالرسالة المحمدية وصاحبها على انها نتيجة يوضح فيها الإيمان من أجل التبعية إلى الديانة الإسلامية وهو امر لا يتعد به؛ كما أن السمة الحاسمة لهذه التبعية هي ان يبحث عنها في مكان آخر غير الإيمان بالرسالة المحمدية، أي في مكان آخر غير الذي بحث فيه عن الرسالة المحمدية ألا وهو البحث في التاريخ الطويل القديم للإسلام. في هذا وحده يكمن تمزق الرابطة مع الإسلام التاريخي.

ليس من الواضح دائما أن هناك في العالم علامة للتمييز بين التبعية للدين الإسلامي عن تلك التي يرفض فيها المسلم المذهبي سلطة التقاليد، وجواز إمكانية البحث كما في الإيمان. وفيما يخص محتوى الرسالة المحمدية فإنه كما هو معروف غير ممكن بسبب آراء الديانات المذهبية. وقد اوضحنا ذلك في ان هذا المحتوى يقع خارج الديانات المذهبية، كما ان مبادئ الديانات المذهبية تجاوزت الحدود حيث توقف الاستمرارية التاريخية مع المحتوى الجوهري للإسلام . تنحصر الدعوة في أن دعاة الديانات المذهبية لم يتبينوا بعد النتائج النهائية لمبادئ دياناتهم، أو أنهم يقفون على ضلالة فوق النتائج الحقيقية لمصادر البحث التاريخية . وهذا لا يمكن ان يستمر بعد الآن أمام التقدم العلمي السريع وإن كان خارج الربوع الإسلامية، ولن تسلم من هذا حتى الضلالات التي يعمل بها للآن، والتي تصير بلا قوة ولا مقاومة بالنسبة للوعي. إن النتيجة المنطقية والوضوح الجديرين بالاهتمام هي أن الديانات

المذهبية تتمسك بآراء وافتراضات باطلة ينظر اليها على أنها مسخ وتشويه، وليست تطويرا أو كشفا للإسلام والقرآن، علما أن هذين الأخيرين في صورتهما الخالصة العربية يعقلان كأساس كاف لبناء حياة جديدة قادرة على احتواء مظاهر العصر وتناقضاته.من هنا يمكن أن يطرح السؤال بصدد امكانية أن يكون الناس مسلمين بمعنى الرسالة المحمدية ؟ الجواب سيكون مختلفاً، فالغريب لا يمكنه أن يؤمن بالطريقة التي شرعتها الرسالة المحمدية التي تمثل استمرارية الروح الجزرية العربية وديانة الوحي. إن الغرباء عندما يشرعون لأنفسهم لا يعملون بالرسالة المحمدية بل يستعيرون منها الأفكار والمفاهيم، ويصبون فيها محتوياتهم الخاصة التي تمثل نتاج قواهم النفسية والتاريخية والإجتماعية، تحمل هذه التشريعات السمات الذاتية للمشرع وقومه. العرب اهل هذا الدين وهم وحدهم بإمكانهم أن يبعثوا هذه الروح حية فعالة فيما لو أوقفوا عملية الاغتراب عن طريق نبذ الآراء والتصورات التي ادخلها الغرباء في وعيهم عبر هذا التاريخ البائس الذي يحمل اسم الإسلام. إن إيقاف الإغتراب يعني تنقية النفس مما علق بها من شوائب من جراء تأثيرات هذه الأديان؛ لو تم لهم ذلك لأصبحت عندها الرسالة المحمدية من حيثيات نفوسهم، لأنها ترتبط بهذه النفس ارتباطا وثيقا، وهي مصدر قيم الرسالة، والإسلام ظاهرتها التاريخية.

يندهش المتتبع لنشأة الديانات وتاريخها من أعمال انصارها، وعدم تسامحهم مع من هم ليسوا على ملتهم حيث يتهم الشخص بالكفر والزندقة. وكلما كانت أقل ارتباطا بالإسلام وشرائعه، حاولت أن تحافظ على أوهام إسلامها بشكل مصطنع، ولذا يتوجب عليها أن تسهر باجتهاد على نحو طبيعي على الحدود الضيقة التي تفصلها عن الأديان الأخرى غير الإسلامية. لقد كانت العرب متسامحين في دينهم مع أنفسهم ومع الآخرين، وهو ما لا

تعرفه الديانات المذهبية التي قمعت وأبادت الكثير من الحركات الدينية والجماعات بدعوى مكافحة الكفر. لهذا السبب فقد أذلت « الفتوحات الإسلامية » العرب وأضاعت الإسلام، ولم يقدر أحد من القدماء حجم المأساة التي ستلحق بالأجيال القادمة التي أوشكت أن تقضي على العرب بعد أن قوضت دعائم الإسلام . وبدأ موسم تصفية الحسابات وأصبحت « الأمة الإسلامية » ممزقة ويكافح بعضها بعضا؛ كل جماعة بدأت تتشدق بأصولها وتاريخها وكل هذا يحدث على حساب العرب، الذين يجب ان ينتقم منهم؛ كما كانت هذه بدايات الصراعات الطائفية التي صاحبتها نزعة شعوبية غرضها الانتقاص من العرب ومسخ تاريخهم، ومن ثم عزلهم عن الدين والسياسة، وهو ما حصل في واقع الحال. لقد كانت حركت الموالي المعادية للعرب نوعاً من الاحتجاج على عدم مساواتهم مع العرب في العطاء والحقوق، ولكن ما ان آل الوضع اليهم حتى انشأوا لهم ديانات خاصة بهم، واضطهدوا الآخرين، خاصة من العرب ذوي النفوذ والسمعة، وسيطروا على الدولة، وصاروا القوة الضاربة والمتحكمة بها. لقد صار الإسلام شعارا لا غير.

اذا كانت الديانات المذهبية قد استطاعت أن تخدع وتتستر على نفسها في دعوى إنتمائها للإسلام فإن هذه الحالة مع ذلك لا يمكن ان تبقى على وضعها الحالي كديانة لفترة طويلة. إنها تسعى اليوم بكل الوسائل مع انصارها وبعض الأنظمة والحكام من دعاة الدين كي تدافع عن نفسها أمام الثقافة الحديثة من جهة، وأمام خصومها من الديانات والمذاهب الأخرى مستخدمة نفس الأساليب القديمة البالية التي اشاعها الموالي و الغرباء ضد العرب باسم الإسلام وسنة النبي (ص). إن الدعاية والممارسة الحديثة للديانات المذهبية لا تقوم على نشاطات حركات دينية منظمة بالدرجة الأولى،

ولا تعتمد مباشرة على الشعب الذي يمثلها، وإنما تطمح أن تفرض من فوق لكي تحصل على وضع يضمن لها تأثيرها في الناس. والملاحظ أن الناس لا يتحمسون لما تقدمه وتعرضه عليهم هذه الديانات وحركاتها المعاصرة، بل إن هذا يعمل بشكل مصطنع عن طريق تطبيق الوسائل والأدوات المتوفرة لدى هذه الحركات والأحزاب في الخدمة. بينما نرى أن الإسلام بين العرب اثبت فاعليته الحياتية، وأثار وهج وحماسة العرب وجرفهم معه. إن الأقوام التي تمارس فيها الديانات المذهبية نشاطها ودعايتها لا يعني أنها هي ذاتها تتبع هذه الديانات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. وليس هذا في الوقت ذاته علامة على عدم تدينها الخفي، بل إنها تعيش الدين طبقا لطقوسها وأعرافها وعاداتها المحلية التي ورثتها، والتي تخضع لها في نهاية المطاف مبادئ وافكار الديانات المذهبية، وتنتج بذلك مركبا جديدا لم تعرفه هذه الديانات ولا الإسلام، وهذا يعني ان الدين بغض النظر عن مصدره وأصله يخضع للقيم والأعراف المحليه. لهذا لا يمكن اتهامهم بعدم التدين بل على الأكثر أنهم يحملون احتياجتهم الدينية طبقا لإشباع متطلبات الأحاسيس الدينية في قلوبهم، لأن هذه الظاهرة يمكن ان تلقى على عاتق المحتوى أو عدمية المحتوى الذي تقدمه الديانات المذهبية ذاتها عندما ينجذب ويتحزب إليها الناس، ويتوقف كذلك على جوانبها السلبية كديانات معارضة وبديلة للديانة الإسلامية والعرب، وضد ممثليها.

الخطأ هنا لا يكمن في الحاجات الدينية ،وإنما أيضا في تلبية مطالب الحرية. إن مطالب الشريعة الدينية الإسلامية رغم انسانيتها لا تنفصل عن الواقع الذي نشأت وتشكلت فيه، أي أنها تحمل سمات الواقع العربي وأعراف العرب وتقاليدهم.

# لا تدينية الديانات المذهبية

إن من يحمل تصورات تأملية في نفسه تتأثر أحاسيسه بها لأنه يمتلك تصورا دينيا. وترتبط القضية هنا بالأحاسيس وما إذا كانت تتأثر كثيرا أو قليلا، او تشعر بأنها تتأثر فعلا، أو انها تطلب مثل هذا الميل قصدا وعمدا، وتسلم نفسها لها بشكل دائم. كل هذا يتوقف على فطرة الوجدان الدينية وتعليمها المكتسب في الحياة؛ لكن من دون فطرة الوجدان الدينية من الصعب أن يكون إنسانا. لكن يمكن لبعض الأشخاص ان تبقى أحاسيسهم المتأججة عن طريق التصورات التأملية دون مستوى الوعي، بينما تخلق نفس التصورات لدى بعض الأفراد تفاعلات أحاسيس قوية.

منذ الآن ينتمي التأمل النظري الخالص إلى العلم، لكن ليس كل انسان يصل أو يبلغ مرتبة العلم، ويكون باستطاعته على الأقل معالجة عملية التأمل النظرية العقلية. كل انسان له مطالب وحاجات تأملية تحتاج إلى التصورات التأملية (النظرية) لكي تفعل من أجل حاجاتها الدينية. فالاحتياجات الدينية تحتاج إلى عالم تصور تأملي (نظري) ينبئ وينقل إلى أسلوب علمي غير دقيق (غير صارم) يخدم عالم التصورات، ويلبي الحاجات حتى عندما يتوقف العلم ، ويصبح مباشرة بعيدا عن الحاجة التأملية (النظرية) وغير مباشر بالنسبة للحاجة الدينية. لذلك تكون تلك التأملات العقلية المذكورة للقوم هي « الدين »، بينما الدين في ذاته يتضمن أكثر من عالم التصورات التأملية للشعب، وبالتحديد الوسائل والإرشادات من أجل انعاش الإحساس الديني على قاعدة التأمل النظري (العقلي)، بالإمكان عن طريق قوة وديمومة العبادات، وكذلك الاستنتاجات من التأملات النظرية من اجل السلوك العملي للإنسان، ألا وهو ميدان الحياة الأخلاقية. إن العبادة خاصية تمس الدين

وحده ذاته، لكن الأخلاق لا تقتسم الدين مع العلم ، وإنما مع الأعراف أيضاً. وكيف يمكن فهم هذه العلاقات وسط الأقوام التي لم تعرف لها تاريخا خاصا بها ؟ وبالتالي لم تمتلك وتطور لها تأملا عقليا، وبقيت بلا نظام أخلاقي وأعراف أصيلة ؟ تعطى الأخلاق في العرف جاهزة ومستوعبة تجريبيا ومنتجة من خلال تفتح روح الشعب في عملية التطور التاريخية. ومن ذلك يستنتج أن الأخلاق في الأعراف هي بالتالي نتاج وتطور روح الأمة في تاريخها، لذا لا يمكن أن تعلّم. إن الإنسان يعيش الموروث، ولا يستطيع أن يعيش وفق نظام اخلاقي وديني خالص. لذا لا يمكن للغريب أن يعيش وفق قيم وأعراف وأخلاق غريبة عنه لأنها سوف لا تمتلك جذرا واصلا في نفسه، بل انها تصاغ وتؤسس كنظرية علمية ترد الأخلاق إلى مبادئ تأملية، ونفس الشيئ يحصل مع الدين، حيث تمتلك النصوص والأحكام بناءً يقاوم الرفض التعسفي للفرد ضد هذا البناء على الأقل نظريا.

يحتوي الدين عندما يظهر في شعب على جميع التأملات الفكرية، أي على فلسفة الشعب. ويصدق هذا على الإسلام، أيضاً، من حيث أنه يحتوي على التأملات الفكرية والقيم والأعراف العربية. الدين عموما والإسلام خاصة يحتوي في ذاته على المذهب المثالي للشعب كاملا، ويتجسد في الإسلام كل ما هو مثالي وخاص بالطبيعة المثالية، ولا يستثني الإسلام في هذه الحالة المثال المادي وجميع الأماني والتطلعات الوجدانية للعرب. يقدر الدين وحده أن يحفظ للشعب تذكيراً دائماً يمثل أمام عينيه، ويفهم البشر بأن هناك اشياء في العالم أهم من المأكل والمشرب والمال، كما ان عالم الإحساس الزماني ليس العالم الوحيد، وانما هو ظاهرة العالم الأبدي، العالم ما فوق حسي، العالم المثالي الذي نتطلع إليه في ضلال الفكر الديني. إن هذا الوعي يجب ان يحفظ يقظا في الإحساس والوجدان البسيط للشعب.

يجب أن يبقى عالم التصور التأملي ويحفظ في الدين كمصدر حي من أجل إثارة الأحاسيس في العبادة، وإثارة الإرادة الأخلاقية، حيث ينضب هذا المصدر (النبع) وتغدو وتتقوقع العبادة متحولة إلى خدمة شعائر ميتة عديمة المعنى، وتغدو الأخلاق الدينية لا أخلاقاً عاطفية وتعابير خرقاء جوفاء بلا محتوى وعديمة المعنى. وعندما يفقد التأمل النظري (العقلي) طابعه الديني يتوقف في الحال عن إثارة الأحاسيس والإدارة، ويصير وقتها علما نظريا، ويتحول إلى علم حقيقي في الفلسفة، ويعرض من ثم في اللاهوت (العلم الديني) المقيد بعرض نسقية العقائد الموروثة وثائقيا. إن الأعاجم والغرباء لا يمتلكون فهما واضحا بصدد العناصر المترابطة في الدين أبدا ولو انهم يشعرون بها غريزيا ، وتبحث من خلال العناصر عن الوحدة في الدين. إن الناس لا يعرفون ما هو التأمل النظري (العقلي) إلا أنهم يعرفون بأن هذا يتطلب التأمل في الدين؛ والتأمل النظري (العقلي) يجب أن يقدم للشعب الحقيقة، وغالبا ما يُذكّر القرآن بهذا الأمر.إن العلم الحقيقي يجاهد لا من أجل الحقائق المبعثرة في الميادين العلمية المختلفة، وإنما يبحث عن الحقيقة الأزلية الوحيدة التي تسد حاجة الشعب التأملية ،وتظهر الحقيقة الأزلية في الميدان الروحي؛ إنها ليست واقعة فكر معينة ترتبط بوقائع ومعطيات حسية ذات صبغة زمانية مكانية بل إنها مطلقة. الحقيقة هي حركة الفكر ذاته، لكنها لا يمكن أن تتجلى للإنسان مكتملة منذ الوهلة الأولى، بل إنها عملية روحية، وكشف ذاتي للّه في الإنسان ، في الدين تسمى وحياً، وفي الفكر تسمى تجربة روحية. لكن الحقيقة الأزلية ليست شفافة وواضحة في ذاتها بحيث أنه بعد الكشف عنها يمكن أن تعلّم وتقدم للشعب بعد ان يتم اكتشافها. إن الحقيقة المطلقة ترتبط بسلسلة طويلة من التطور والمعايشات الروحية التي يعيشها العقل في عالم المحسوسات، لذا يجب ان تعيش النفس تجربة

خاصة، تجربة من أجل احتواء العالم الحسي ورفعه إلى مستوى عالم تشع فيه الروح، ألا وهو العالم ما فوق الحسي. ولكن هل هذا ممكن على الصعيد العملي فعلا ؟ إن ما فوق الحسي لن يصير مفهوما للذهن البشري المقيد في حساسيته فماهية الحقيقة تبقى لغزا أو التعبير عنها يكون رمزيا دائما، وتعرض بنفس الأسلوب و المستوى سواء كانت في مفاهيم مجردة او تصورات رمزية محسوسة. الدين على العموم ظاهرة بسيطة دعواها هو الإيمان بالله ، ولكن من أجل تبين الحقائق الأزلية الغامضة التي يتكلم عنها. ولا بد من عمق وثراء الآراء التي تعرض هذا الغموض، ويكون الدين غير ممكن عندما تتعدد الآراء بحيث يعرض كل شخص ما فوق الحسي بمنظاره الخاص، بمعنى أن الإحساس الديني لا يتفاعل مع التأمل النظري العقلي من دون غموض. إن مصدر الغموض وعدم الوضوح يرجع إلى تجلي ما فوق الحسي في الحسي. فما فوق الحسي مطلق ، والحسي نسبي. ويستنتج من هذا ان المطلق يسير صوب حالة لا مطلقة؛ هذا هو مصدر الغموض، لكن لا يمكننا الكلام عن الغموض عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الطبيعية الزمانية المكانية للظواهر مع بعضها البعض من دون علاقة ارتدادية بالجذر النظري العقلي للفيزيائي كما في نتائج العلوم الطبيعية الخاصة « والتأثير المتبادل الطبيعي لماهية الطبيعة في الصراع من أجل البقاء، وفي الحياة العملية. إن ما يحصل في واقع الحال هو نقل هذا الغموض إلى عموم الناس على انها الحقيقة وإن كانت تناقض العقل ». إن نظام التعليم الحديث لا يسمح اليوم بمنح صفة الحقيقة للغموض إذا تناقض مع العقل، إذ يعتبر التفكير العقلي الحديث الغموض « فرضية استنتاجية » ضرورية في المنهجية الاستقرائية، على انه يتجاوز حدود الحسي ، ويترك مجالا لبقية مفهومية في خصوصيتها ما فوق الحسية من أجل الذهن على تربة حسية. إن هذه البقية

المفهومية وإن كانت لا تخضع للمعيار الحسي إلا أنها لا يجب أن تناقض ذاتها، أي أنها لا يجب أن تناقض العقل.

تقدم الديانات المذهبية لأنصارها « حقيقة » تمثل خلطا لما كان شائعا من تصورات وأفكار واديان وثقافات مختلفة في تلك الأزمان. هل يتأتى للشخص أن يجيب إجابة منطقية ما إذا كان ممكنا الإنطلاق من الأنساق الفكرية للديانات المذهبية المنغلقة على نفسها إلى موضوعية تاريخية ؟ لقد ظهرت حقيقية التأملات الفكرية للديانات المذهبية جلية واضحة، وعاشت عصرها الذهبي، وقدمت على هذا النحو، وأخذ فيها الناس تحت ضغط الحكام أو العداء لهم، كما أنها لم تلق مقاومة ورفضاً في البيئة الأعجمية حيث يتبع الناس في كل مرة الديانة التي يدين بها الحاكم، ولهذا قال ابن خلدون « الناس على دين ملوكهم »، كما ان التأملات الفكرية وتشريعات الديانات المذهبية كانت عمليا العلم الوحيد الموجود. ومع انهيار الدولة العباسية توقفت الحياة ولم يظهر بعد ذلك لا علم ديني ولا طبيعي يقوم على التجربة والعقل خلافا لما حدث في أوروبا في نفس الفترة الزمنية، ولم يظهر في العالم الإسلامي تناقض بين الحقيقة الدينية والحقيقة الدنيوية لأنه لا وجود للعلم. لكن مع هيمنة الحضارة الغربية بقيمها وافكارها تأجج التناقض بين الحقيقة الدينية، والحقيقة الدنيوية وأصبحت الشعوب المتخلفة تعيش نفس التناقضات والصراعات التي خلقتها الحضارة الغربية والتي تقوم على التناقض بين الحقيقة الدنيوية والحقيقة الدينية. لهذا بدأت في الربوع الإسلامية حركات من كل الأنواع والأشكال منها المتطرف والمحافظ والديمقراطي ...إلخ، أي أنه بإدخال انماط التفكير الغربية العقلية إلى العالم المتخلف فرض عليهم بالضرورة التعامل مع هذا الواقع الجديد، ومن تلك اللحظة بدأت محاولات الوساطة بين حقائق العلم وحقائق الدين ولو بشكل

واه لأن هذه الشعوب ما زالت لا تملك إرثا علميا وثقافيا ودينيا خاصا بها. إن الديانات المذهبية لا صلة لها بالوحي، والوحي له صلة بشخص النبي محمد (ص) فقط، وقد توفي النبي وتعذر الاتصال والمكاتبة مع الوحي، لهذا ظن مشرعو هذه الديانات بأنهم يقدمون تعريفات جديدة وتجريدات مفاهيم للإسلام، وخلقوا تأملا كونيا دينيا يتناسب مع قواهم وأعرافهم وتقاليدهم. لقد نشأ بالتدريج لاهوت ديني يختلف في مضامينه وأهدافه عن أهداف الديانة ورغبات مشرعيها. لقد أدرك بعضهم التناقض القائم بين مبادئ الديانات المذهبية ولاهوتهم، وانفصلوا عمليا عن الديانات المذهبية. بعد الانفتاح على الغرب ظهرت بوادر حوار للمصالحة تحت تأثير التفكير العقلي الغربي بين الدين والعقل، الإيمان والمعرفة. وبعد بلوغ الديانات المذهبية أواخر العمر وانفصالها عن الوحي مستبدلة إياه ببعض التصورات الدينية فإنها لم تعد تمتلك لاهوتا ولا فكرا بالمعنى الصارم للكلمة، وعندما يزول هذا السراب تتراجع الحقيقة المدعاة على أنها إلهية لصالح الحقيقة الدنيوية للعلم.

لقد وصلت الديانات المذهبية في الوقت الحاضر إلى هذا الحد الذي تصير فيه لا منطقية عندما تتخوف من هذه الخطوة الأخيرة. إن الوحي بالنسبة للديانات المذهبية قضية بعيدة المنال لا يمكن تحقيقها، وهي عمليا لا تؤمن به أكثر مما يظهر في فهم أصحاب الديانات المذهبية، والحقيقة بالنسبة لها ليست إلا نتيجة آنية لتاريخ تطورها الخاص في جميع الأرواح الفاعلة في تاريخ هذا التطور، منها النبي (ص) والصحابة فيما يختص برفض نظرته البدئية، عندها يمكن أن يحتل مكانا وموقعا متميزا. لم تطرح الديانات المذهبية فكرة حقيقية، ولم تنشيء لاهوتا دينيا حقيقيا، بل آراء ومعتقدات مختلفة، لهذا كانت التصورات الدينية واهية وضعيفة، ناهيك عن بطلانها

لأنها لا تعرف تاريخ لاهوت ديني، أي علم ديني حقيقي، ولم تبن لها عالما تأمليا يستند إلى الرسالة المحمدية يمكن أن يعثر فيه على حقيقة. لم يحدث شيئ من هذا وإنما يعمل التاليه في صورة لاهوت متشكل قديم لا يصمد مع مفهوم الوحي. تصورات لاهوتية تحتفظ بمصطلحات ناشئة عن آراء كونية مختلفة تنفذ عن طريق التأويل التعسفي والتحريف مع معنى مختلف تماما، إن عملاً كهذا في واقع الحال عديم القيمة وأكثر كراهية وقرفا من النشاط والاجتهاد غير المثمر للاهوت الديانات المذهبية مع نشاط دؤوب غير مثمر. على الإنسان أن لا يستغرب تحت وطأة مثل هذه الظروف عندما يولد ضيق الأفق الديني المذهبي في صراعه ضد التأويلات والتفاسير للمحتوى الموروث للمفاهيم الدينية الأساسية انطباعا كأن ينقص الخصم والإيمان اللذان يسعد بهما. إن تشريعات الديانات المذهبية للعصر الوسيط رغم عدم صلاحها في ماضيها صارت بالنسبة للعصر الحاضر اوهاماً عديمة الذوق، ومع ذلك لم يفكر أحد من دعاة الديانات المذهبية في بناء وتقديم تشريعات جديدة تتناسب مع روح العصر، وقادرة على استيعاب وتحقيق متطلباته، بل إن ما يحدث هو العكس حيث يجري التمسك بهذه الشرائع على أنها الدين ذاته؛ والسبب في ذلك يعود إلى الشعب الذي شرع هذه الديانات انسلخ عنها، وشرع لنفسه ديانة مذهبية جديدة باسم الشيعة. فالأقوام التي اعتنقت هذه الديانات في مراحل متفاوتة لا تقدر على تغيير شيئ فيها لأنها أقوام غير مخصبة من ناحية، ولم تمتلك ثقافة يوما، ولم تبحث في شيئ، ولهذا من الصعب عليها أن تفعل شيئا لنفسها او لدينها لأنها لا تعرف المبادئ والأسس التي أرسيت عليها هذه الديانات. لهذا لا يبقى لها سوى التكرار والإعادة لما شرع في الماضي، وهذه البلادة والغباء تفسر على انها تمسك بأصول الدين وتمنع البدع والانحرافات. لقد كانت الديانات المذهبية لاهوتا

وهميا لا يريد انصاره التخلي عنه بوصفه يمثل الاستمرارية الدائمة لهذه الديانات؛ ما يمكن أن يحدث هو أن لا شيئ يطلب بعد الآن من هذه الديانات، وتصير الحقيقة العلمية الشيئ الوحيد المطلوب. إن الديانات التي قطعت الصلة بالرسالة المحمدية وتاريخ العرب لا يأمل منها في مثل هذه الحالة العثور على الحقيقة التي يجري البحث عنها في الدين.

إن العناصر الموجودة في أساس الدين تعرفنا على تأملاتها النظرية العقلية. ولو سألنا أصحاب الديانات المذهبية وأنصارها ما هي تأملاتهم النظرية العقلية ؟ لأصبحوا في موقف محرج ومحير. إن اصحاب الديانات المذهبية يقفون من التأمل النظري العقلي « خلف جبل »، ويبتعدون باستحياء واضح عن أي تماس عميق معه. وأسباب ذلك تعود إلى أن أصحاب الديانات المذهبية يعتمد كل منهم على تأملات وقيم غريبة منها ما هو موروث ومنها ما هو مستورد؛ أما التابعون فلا يعملون بذلك، كما أنهم جميعا يمتلكون إحساسا لا متعينا، ويخجلون من تأملاتهم وتصوراتهم الفكرية. وبما أن اصحاب الديانات المذهبية لا يمكنهم أن ينفكوا عن مبدأ التأليه، وطالما أنهم يريدون الاحتفاظ بالاستمرارية التاريخية مع الرسالة المحمدية والميل البشري لإله حي محب لأبنائه وراع لصلواتهم لذا يجب عليهم طبقا لنتائج مذهب التأليه، التبعية المطروحة أعلاه للأخلاق، وضرورة الدولة الدينية، أي تبرير الإله الشخصي العارف بكل شيئ بسبب النقص الحاد لخلقه المحدث مع الوعي والاحتمال، ويتحمل التفاؤل التبشيري الخداع إثماً من أجل المستقبل، وفي النهاية حرية إرادة لا حتمية نافعة للمخلوق ككبش فداء من أجل الشر. إن هذا يعني أنهم يهملون انجازات الآخرين ذوي الشأن وأصحاب القضية، ولا يستوعبون أو يأخذون عنهم إلا ما هو ثانوي يلائم بضاعتهم الرخيصة، ولا يعدو هذا في الأساس أكثر من تأليه سطحي لمرحلة العصور الوسيطة.

بهذه الطريقة نشأت ديانات ومعتقدات وتصورات غريبة جافة لم تتجلَّ فيها الحياة يوما أبعد من ذلك، بحيث صارت الترهات التي يصدرونها عن الإسلام والإيمان المعيار الديني والدنيوي الوحيد، ولم تظهر مشكلة تناقض او مصالحة بين الإيمان والمعرفة. لكن الذي حصل هو أنهم غطوا وستروا بعبارات وأقوال ذلك الخلط الغريب لأشياء مختلفة في فوضى عديمة القيمة، وتخديرية سواء بالنسبة للإيمان، أو الحياة الثقافية العامة و التعليم. لقد نشرت وأشاعت الديانات المذهبية الخطابات والمواعظ المنبرية على أنها الحقيقة والتقدم الروحي الذين كانت لهما معان سلبية وتأثير سلبي، ذلك لأنهما كاناصالحين وملائمين هناك حيث يتم تدمير الرسالة المحمدية وتقويض دعائم السلطة القديمة. إن الأسوء من هذا كله هو أن الديانات المذهبية ذاتها لا يمكنها أن تثبت صحة وفاعلية تشريعاتها، والأكثر من ذلك أنها ترى الصعوبة في تطبيقها لأن الواقع شيئ وما تدعو إليه شيئا آخر مختلف تماما لا يتماثل مع الوقائع الأحادية، ولا مع المطالب النفسية والاجتماعية للناس.

يتمسك أنصار هذه الديانات بها رغم ذلك لأنهم من دونها لا يبقى لهم شيئا، وليس لهم ارتباط بالدين، وفقدوا بذلك جميع الامتيازات والسلطات؛ من هذا المنطلق، تظهر الديانات المذهبية معلبة، لا تقبل التغيير والتبديل لأن أي تغيير أو تبديل يعني تقويض الدعائم والأسس التي قامت عليها، انها جثة هامدة لا تقبل التغيير والتبديل لأن أي شيئ من هذا القبيل يعني أفولها وفناءها. إن الديانات المذهبية تدعو في الوقت ذاته إلى خلود النفس الفردية البشرية الواعية، إلا أنها لا تؤمن بتقدمها اللامتناهي. لقد صارت قضية الثواب والعقاب، الدنيا والآخرة قضية تابعة تتحقق وتمارس عن طريق الالتزام بتشريعات الديانات المذهبية. إن الآخرة تصير قضية مضمونة إذا

التزم الإنسان بما يعرض عليه من أفكار وأحكام لأنها الضمانة للإيمان والفوز بالجنة. إن أصحاب الديانات المذهبية، بسبب أعجمية مشرعيها وتخلف وعيهم عن مسار التطور التاريخي لم يعرفوا بأن الإنسان إرادة حرة، ويمتلك أخلاقية، بل جعلوا من الإنسان عبداً لهم، وقالوا، أيضاً، بالعناية الإلهية وجردوا الإنسان من كامل حقوقه، ولم يبق له سوى الخضوع لمبادئهم التي تمثل حسب اعتقادهم الطريق الصواب لدخول الجنة. إن مبادئ وتشريعات الديانات المذهبية تنظر إلى العلم نظرة شك، ولا ترى في الوعي العلمي سوى منافسا ومزاحما للوعي الديني، لهذا فقد عاش علماء ذلك العصر الذين اهتموا بدراسة الطبيعة والمادة كاهتمامهم بشؤون الدين في ضيق وصعوبة وملاحقة من قبل رجال الدين والأنظمة الحاكمة، لأنهم لاحظوا في الوعي العلمي تدميرا للوعي الديني المذهبي؛ إن اضعاف الديانة المذهبية يعني في الوقت ذاته اضعافاً وتقويضاً لدعائم النظام القائم. إن القارئ للقرآن لا يرى فيه تخوفاً ولا رفضاً للعلم، بل بالعكس إنه متمم للوعي والحياة الدينية. إن الإسلام عمليا يؤمن كالعلم الطبيعي بالمسار الكوني الذي تتحكم فيه قوانين لا متغيرة وضرورية. ومن الواجب علينا أن نصل إلى فكرة أن لاهوت وتشريعات الديانات المذهبية ما هي إلا واجهة وهمية تتخفى وراءها في الحقيقة آثار من نوع آخر تماما. إن لاهوت ومبادئ الديانات المذهبية سطحية لأنها طرحت بدائل فكرية للرسالة المحمدية وتاريخها الطويل الجزري، كما أن هذه الديانات عزلت الدين تماما عن العلم، وادعت أن العلم والعلماء يدعون إلى ما هو مناقض للدين، ولهذا وقفت موقفا عدائيا من العلم وحاربته بكل ما أمكنها تحت دعوى مكافحة الشرك والزندقة. لهذا السبب صارت الديانات المذهبية رموزا للتخلف والإنحطاط وفساد الوعي والأخلاق. وشغل دعاة الدين انفسهم آنذاك بأمور تافهة على انها الأمور الأكثر

ضرورية للدين والإيمان منها مثلا « هل القرآن كتاب أزل ام محدث » أي هل أنه مخلوق ؟ أو مثلا قضية « الجبر والاختيار » ، أو «أهوال القيامة» ....إلخ. أصبح الدين دعوى لثرثرة بعض المتعلمين سوادهم الأعظم من الموالي الذين لا يربطهم بالعرب وتاريخهم شيء سوى الحقد والكراهية، وظهرت من بينهم بدلا من القيم الخيرة للدين الشعوبية والطائفية. على هذه الأسس وهذه العلاقات تطورت شرائع وافكار الديانات المذهبية. وهكذا صار الإسلام بدياناته المذهبية رمزا من رموز التخلف والانحطاط حيث ضاعت القيم والأعراف والأنساب، وأصبحت البلدان خليطا من كل الأجناس والأقوام يدعو كل منهم إلى نفسه وثقافته باسم ديانته المذهبية. ومنذ أن تسلطت الديانات المذهبية على الحياة الدينية والسياسية انحسر مد الإسلام، وحورب العرب والعلم، وبدأ دعاة هذه الديانات دعواهم بأن الإسلام يكفيهم ولا حاجة لهم بالعلم لأنهم لا يطلبون الدنيا بل يطلبون الآخرة، والعلم والتقدم العلمي والثقافي يدعوان إلى الكفر وعدم الإيمان بالله. إننا نرى اليوم وبشكل واضح أن الديانات المذهبية وتاريخها بكل ما امتلكته واحتوته لا يتفق ويتناقض ليس مع الإسلام فحسب، بل مع الوعي عامة والوعي الحديث خاصة. لقد نشأت دول كثيرة قامت على أسس مذهبية وعرفت أن المسلمين انتجوا في مراحل شتى من هذا التاريخ علما ضخما، لكنه أهمل تماما وكأنه لم يوجد يوما ولم يستفد منه في واقع الحال سوى الإنسان الأوروبي العقلاني. إن الديانات المذهبية تقدم أشياء كثيرة غير مفهومة ولا مكان لها في نشاط الناس وفي وقائع حياتهم اليومية. وتدعو إلى قيم وفضائل مجردة عديمة المحتوى وهو ما يتسبب في أن الناس يفقدون الثقة بها، وهو ما يقوم عليه في الوقت ذاته الإحساس الديني أساساً؛ إن هذا يجعل من الديانات المذهبية ومبادئها غامضة وتافهة. إن لاهوت ومبادئ الديانات المذهبية شنيعة

بالنسبة للمفكر الحديث الذي ينبني وعيه على معطيات تجارب أحادية، عن طريق تثبيت تفاعل وإحساسه. إن ما يتفاعل فيه بهذا الخصوص هو الإحساس المتفائل في هذا العالم، أي إحساس أرضي لا ديني؛ ، فتقف دعوة الديانات المذهبية إلى عالم الآخرة الذي تعرضه مجرداً وفارغا ويخاصم العالم الأرضي.

لم تعرف الرسالة المحمدية أسراراً غريبة عن العرب ، ولم يمتلك الإسلام في صورته العربية غموضاً بدءاً بالله وانتهاء بأبسط المراسيم كطقوس العبادة والسلوك والتصرفات ...إلخ، لأن الصور التي عرضها الإسلام - كما اسلفنا - هي قيم وأعراف عربية عرضت بصورة نسقية على أنها وصايا إلهية، ومعنى ذلك أنها كانت بالنسبة للعرب وقائع حياة مجسمة ، محسوسة. ما الذي يمكن أن تقدمه الديانات المذهبية في هذه الحالة ؟ إنها تقوم باستبدال القيم والأعراف، أو محتوياتها العربية بقيم وأعراف او محتويات غريبة، وأخرى استنباطات فكرية مجردة لا تصمد أمام الحجة العقلية لأنها تمثل غموضا يناقض العقل. الصلاة مثلا يجب أن تكون لله كتدخل ما فوق طبيعي في عمليات الإنسان النفسية، القانونية ، ويجب عليه أن يؤمن بعمليات الطبيعة الخارجية . وبعبارة أخرى إن الله هو الذي يتدخل في العمليات النفسية القانونية وهو الذي يحددها، عندها يجب علينا الشك وعدم الإيمان بعمليات الطبيعة الخارجية. إن الطبيعة لا تمتلك قانونيتها الخاصة، وبالمقابل يحصل الإنسان عن طريق الصلاة على تقوية روحية وعزاء؛ لكنه من الخداع أن يحصل بصلاته على طقس مناسب من أجل الزراعة أو درأ الآفات الضارة. إن الصلاة نوع من التربية النفسية التي تقوي قدرة الفرد على تحمل التعب والمشقة عندما يتعرض إلى صعوبات في حياته.

إن أكثر ما يظهر للعيان في الديانات المذهبية صلتها بالأخلاق.

فلاهوتها ينتج أخلاق العبودية، تلك الأخلاق غير المستقلة والقائمة على عناصر غريبة لا صلة لها بالإسلام وبالعرب، بل إنها نتاج أديان وثقافات غريبة . لو شئنا أن نعطي الحق لهم في أن هذه الديانات اعتمدت القرآن والسنة النبوية إلا أن طريق العرض ومعالجة القيم والمبادئ الإسلامية ليس عربيا حيث تتدخل في هذه الحالة عناصر ذاتية تحرف شرح وتفسير القيم والمبادئ الدينية عن معناها الأصلي. لذا فإن الأخلاق التي تعرضها الديانات المذهبية تتناقض لا مع الأخلاق العربية ، الإسلامية فحسب، وإنما مع الوعي عموما، والوعي الحديث بشكل خاص الذي يقوم على التعليم، بينما تقوم أخلاق الديانات المذهبية على تجريدات مفاهيم وتصورات خرافية. لذلك تطلب الديانات المذهبية من الوعي، بشكل فظ، اخلاق عبودية خرافية للإرادة الإلهية. إن لاهوت الديانات المذهبية لاهوت مقنع ومنّفر لأنه يخفي تحت واجهة الرسالة المحمدية نقاط ضعف تأملية نظرية فكرية، ولذا يكون من السهل عليه أن يتهرب من اللااستقلالية غير المرغوب فيها، لذا تبقى الاستقلالية وانعتاق الأخلاق عن التأمل النظري العقلي المحفز الخفي. إن الدعوة لشيئ ماكأن يكون الأخلاق أمر ليس بالصعب، لكن الصعب و المتعذر في هذا الأمر هو بناء منظومة الأخلاق. مالذي تدعو إليه الديانات المذهبية من أجل بناء المبادئ الأخلاقية ؟ من الواضح أنها لا تدعو إلى شيئ سوى النداء والتذكير بالميول الأخلاقية والغرائز في الإنسان. فإذا كانت الميول والغرائز قوية يمكن أن يكون للنداء والدعوة بعض التأثير وإلا فإنها تكون زائدة عن الحاجة؛ أما إذا لم تكن الميول الأخلاقية والدوافع وجودا عندها تبدأ السخرية من المواعظ الأخلاقية. كيف سيكون موقف الداعية في هذه الحالة ؟ الداعية لم يبق له إلا أن يبين للمسفهين خطابيا ونظريا فقط بطلان سخريتهم. إن الوعاظ ينادون بالميول والغرائز في الإنسان كما يشرعونها هم بأنفسهم، ويحاولون الكشف عن نوع الميول المفضلة، الحب أم الكراهية، العفو أم

الإنتقام، إنكار الذات أم حب الذات من أجل تكوين العمل؛ أما إذا لم يملك الوعاظ وسائل تحت تصرفهم فإنه لا يبقى لهم غير النداء على الإحساس والذوق في الإنسان اللذين يختلفان ذاتيا من شخص لآخر. لا تعلّم الأخلاق وإنما يجب أن تكون جزءاً من العرف. ولا يمكن للإنسان أن يعيش وفق قيم أخلاقية خالصة وإنما يعيش الموروث. لهذا يمكن الكلام عن أخلاق اسلامية بين العرب فقط لأن القيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام هي أخلاق وأعراف العرب، أي إنها مواريثهم التاريخية الخاصة. إن الدعوة الأخلاقية للديانات المذهبية ستكون فارغة وعقيمة إذا جردت من القيم الغريبة التي استعارتها من مصادر شتى. من دون هذه القيم المستعارة ستبقى معلقة في الهواء. في مثل هذه الحالة يقوم صاحب المذاهب أو الداعية بسن قواعد ومبادئ أخلاقية، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا إذا وجد أتبا ع هذه الديانات القواعد والمبادئ لا تتلائم مع أذواقهم ورغباتهم. الأخلاق معلم من معالم الحياة النفسية للشعب، تنشأ وتتطور تاريخياً، وهذا لا يمنع كونها قائمة على الغرائز والميول البشرية، لكنها تكتسب لدى كل شعب مظهرا وممارسة مختلفة تتماشى مع التفتح والتطور التاريخي « لروح الشعب ». الإنسان يعمل طبقا لهذه الأخلاق والأعراف، بمعنى أنها تطبع حياة الشعب بطابعها الخاص على الرغم من التفاوت في الممارسات الفردية لأفراد الشعب. إن الأخلاق التي تدعو إليها الديانات المذهبية ما هي إلا محاولة لتأسيس أو بناء الأخلاق التي تقوم على جوهرية وهمية تمارس الضغط على الإرادة الفردية كظاهرة موضوعية تخلع عنها بالتالي السيادة ، وهو عكس ما تطلبه وتدعو إليه الرسالة المحمدية التي تقوي الإرادة الفردية في جوهرية عرفية تاريخية تجعل من نفسها مطلبا إلهيا وليس تحديا للخالق.

إن الأخلاق التي تدعو إليها الديانات المذهبية لا صلة لها بالإسلام ولا

بالأخلاق العربية التي ثبتتها الرسالة المحمدية على أنها أخلاق مقدسة؛ بل هي قيم وأفكار مجردة وغريبة لم تؤسس على نسق ديني او علمي صحيح، وسوف لن يكون صعبا في النهاية أن يدخل في الحسبان الظرف في أن الأخلاق التي تدعو إليها هذه الديانات هي في واقع الحال أخلاق وهمية مزيفة وغريبة. ما الذي يتبلور في أذهاننا بخصوص مثل هذه الأخلاق، وما الذي يمكننا قوله بصددها ؟ نجيب باختصار أنها أخلاق دينية. دينيا تكون الأخلاق أكثر من ايضاح للعبة النفسية للغرائز والدوافع عندما تستند إلى الأسس الفكرية ، والعقائدية للدين، تكون الأسس الفكرية ، العقائدية للأخلاق في الإسلام هي أعراف العرب التي قام عليها ذاته. لقد نقض أصحاب الديانات المذهبية الأفكار القيمة المعنى والقوانين الإسلامية، وأملوا بذلك على الناس قوانينهم الأخلاقية الخاصة باسم الإسلام، التي كانت غريبة حتى على اولئك الذين ينتسبون إلى هذه الديانات، ناهيك عن العرب حيث أن وعيهم واعرافهم لا يمكن أن تقبل بها لأنها تتناقض مع أخلاقهم وأساليب التعامل الحياتية. لكن تحت وطأة الظروف والتخلف والانحطاط وتدهور الحياة السياسية والاجتماعية تنطلي مثل هذه الأخلاق الوهمية على العرب أيضا، معتقدين أنها الأخلاق التي دعا إليها الإسلام. إن اصحاب ودعاة الديانات المذهبية لم يعرفوا القيم والأعراف التي يدعوا إليها الإسلام حتى في حالة السماع بها والتعرف عليها، إلا أنها لا يمكن أن تعمل وتطور شرعا جديدا يقوم عليها لأنها لا تمتلكها في نفوسها وانها ليست من حيثيات نفوسهم؛ لذا فإن تشريعات الديانات المذهبية لم تعرف عمليا القيم والأعراف التي فرضها القرآن كشريعة إلهية ،ولا ترتبط مباشرة بقيم وأعراف العرب. ولذا صار لزاما على الناس تعلمها لكي يحيطوا بها علماً، بينما كان يحصل العكس حيث يسأل عوام العرب من اجل معرفة معاني اللغة أو الآيات القرآنية او المقصود بشرع معين. ومعنى هذا أنهم ما كانوا بحاجة لأن

يتعلموا ما يمارسونه في حياتهم الدينية الدنيوية. إن دعاة الديانات المذهبية يدركون عبر هذا التاريخ الطويل صعوبة فهم أخلاق وطباع الصحابة عن طريق تلك التصورات التي أشاعوها عنهم، ولذا تراهم يرددون غرابة وعدم امكانيةتحقيق وتنفيذ أخلاقهم مرة اخرى. إنهم يطمسون بذلك معالم الحياة الأخلاقية العربية الحقيقية التي لا يعرفونها ويتهمون حتى العرب بأنهم ليسوا كأسلافهم، ولهذا لم يبق لهم سوى القبول بما يقدم لهم من الأعاجم باسم الإسلام، على أساس أنهم يلتزمون بالقرآن والسنة، ويدعون إلى نمط حياة الرسول (ص) والصحابة واخلاقهم؛ لكن شيئا من هذا لا يلمس في حياة هذه التجمعات ولا في سلوكهم الفردي. لقد اضاعت الديانات المذهبية الإسلام مرة وإلى الأبد لأنها عزلته عن حياة العرب، وعندما يعزل الدين عن حياة الشعب سيتعذر أن يكون الموضوع الديني أخلاقيا؛ ومن هذا المنطلق يكون موضوع الإيمان الديني للديانات المذهبية لا أخلاقيا، وبالتالي لا وجود فعلي للدين من دون أخلاق ولذلك كانت الديانات المذهبية ، طبقا للمعيار الإسلامي العربي ، لا دينية ولا اخلاقية. إن كلمات مثل اللّه، الأخلاق، الإيمان، العدل، الخير، الشر...إلخ، من وجهة نظر الديانات المذهبية، ليست إلا كلمات مجردة، لذا لا يبقى لدعاة الديانات المذهبية سوى الدعاوى الفارغة إلى المحبة والطيبة والتضامن بين الناس؛ وعندما تنحصر المواعظ الأخلاقية بالمحبة والطيبة فإنها تتوقف بعد ذلك عن أن تكون أخلاقا. الأخلاق وسواها من القيم نتاج النفس في تاريخيتها، بمعنى أن أخلاق العرب ما هي إلانتاج النفس العربية في تاريخها والتي من الصعب على غريب أن يتمثلها، وأن يعيش بمقتضاها مهما بلغ به حسن النية والرغبة. عندما يحصر معنى الدين والأخلاق على الطيبة والمحبة مثلا عندها ينحل الدين إلى دعوى للطيبة والمحبة، ويتم بذلك التخلي عن جميع القيم الأخرى التي يمتلكها الدين،

ويتحول الإسلام في الديانات المذهبية إلى مطالب لأصحاب هذه الديانات، ويعني هذا أن الإسلام لن يحتوي بعد ذلك إلا على ما شرعه هؤلاء، والذي يمثل في الواقع محتوى وينبذ ما سواه. لم يعد الدين دينا، والوحي وحيا، والإيمان إيمانا والدين تدينا، بل مظهرا وانتماءً لهذه الديانة المذهبية أو تلك.

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الإسلام مجموعة طقوس وعبادات، ومن يلتزم بها وينفذها يصدق عليه بالتالي مفهوم مسلم مؤمن؛ في حين أن حقيقة أي دين أكبر من الإيمان باللّه وحده، ولو ظهر هذا الأمر في البداية للإنسان العادي على أنه طبيعة الدين الأساسية. إن جميع الديانات تحمل السمات والخصائص الاجتماعية والنفسية والعرفية لشعوبها. والظواهر الاجتماعية والعرفية كلها صور النفس والدين الذي لا يمثل هنا حالة استثنائية بل إنه يمثل ظاهرة النفس لأنه يقوم علي القيم الأخلاقية والأعراف والعادات والطقوس الاجتماعية للشعب، وحتى الصور التي تعرض القداسة واللّه والجنة والنار والخير والشر... إلخ تتلاءم وتتناسب مع المدارك العقلية ووعي الشعب. الأخلاق واحدة من صور كثيرة تعرض فيها الأعراف كقيم وعادات وطقوس؛ وهذه القيم والعادات والطقوس ليست إلا صورا كثيرة تعرض فيها الأعراف في النفس. ولا يراد بذلك القول إن الأخلاق والأعراف والعادات والطقوس نتاج حالة نفسية خاصة، وإنما تنشأ وتتطور طبقا للأوضاع الاجتماعية والثقافية وأساليب المعيشة وسواها. إنها تحمل من النفس على الواقع وبذلك تغتني بمضامين جديدة عينية حصلت عليها من الواقع الذي غرست فيه، ولهذا فإنها تحمل سماته وخصائصه. من هذا لا يمكننا القول بأن الدين مصدر الحياة الاجتماعية والأخلاقية والأعراف، لو انها ترتبط وتتطور دائما في إطار رؤية دينية معينة. بعض الأعراف تكون سلبية وذات طبيعة قاسية تتنافى مع العرف الإنساني؛ وقد صور لنا الإسلام بعض تلك

الظواهر السلبية التي وجدت في حياة العرب، والتي حرمت من بعد. لهذا يوجد الدين كإيمان بالله واليوم الآخر، وتوجد الشريعة كمحتوى أرضي بشري لهذا الدين. لكن الذي حدث في الديانات المذهبية هو العكس إذ قدمت تشريعاتها ومبادئها على أنها الدين الإسلامي، وهذا نفي لجوهر الدين. إن الديانات المذهبية وأصحابها يوضحون العلاقات الأرضية بروح مشبعة بالأوهام والخرافات والقصص والروايات التي يروى بعضها عن الرسول (ص) والصحابة على أنها دينية، وهذا يعني أنهم حولوا أنظارهم عن الدين الحقيقي لأنهم، كما أسلفنا، يشعرون باغتراب بسبب اعجميتهم في رحاب الرسالة المحمدية العربية. ولهذا لم يبق لهم سوى انشاء ديانة مفهومة لهم، هذا من ناحية، وكفعل انتقامي ضد الإسلام والعرب الذين قوضوا دعائم الدولة الفارسية القديمة من ناحية أخرى.

صارت الديانات المذهبية ظاهرة لادينية وغير اسلامية، وشاع في ربوع الدولة العباسية، وصارت مقياسا وعممت أحكامها على الإسلام،الذي عاملته كما تعامل مصادر الثقافات الأخرى التي أصحبت في الوقت ذاته جزءاً من مصادرها الدينية. إن هذه الظاهرة اللادنية التي تعتبر كمقياس للثقافة القديمة والحديثة امتلكت نتيجة تطورها طابعا لادينيا من جراء صراع الدنيوي ضد الدين.

تظهر بوادر الدين عموما من اصطدام الروح البشرية بالشر والخطيئة والرغبة في ايضاح مقومات وجود الشر والخطيئة وكيفية تذليلهما. إن من لا تسيطر على أفكاره واهتماماته أمور من هذا القبيل لا يتخطى بأفكاره اهتماماته ومصالحه الدنيوية. لكن إذا بدء الإنسان يتساءل، لم على المرء أن يتحمل هذا الشر، وما الذي عليه عمله لكي يحرر نفسه ووجدانه منه ؟ عندما يشغل الإنسان نفسه في أمور من هذ النوع يجد نفسه في الطريق إلى

الدين، ذلك لأنه بدأ يشغل نفسه بمسائل واهتمامات توجد خارج ميدان الاهتمامات الدينوية. هناك الكثير من الناس ينظرون إلى الحياة من منظور اخلاقي، من باب الخير والشر والخطيئة، لكن قد يطغى على شعورهم احساس بعدم الرضا من الواقع الإجتماعي المعاش، من الحياة الدنيوية وهو الذي يوقظ فيهم إحساسا دينيا ويقودهم إلى الدين. إن تذليل المشاعر العدوانية التي تتسبب بالشر والإثم سوف لن يكون من الصعب طغيان كفة المشاعر الإيجابية بخصوص الحياة الدنيوية الأرضية، ويجعل هذا من التيارات الروحية الدينية رغبات سطحية غير قابلة للتحقيق، تحولات ليست ذات تأثير دائم على الطبع الأساسي للوجدان. إن الدين يمكنه إثبات اقدامه في الوجدان عندما يسيطر الشك المقلق بخصوص الشر، والخوف من الشعور بالذنب إزاء المسرات والمباهج الأرضية؛ وما أن يصير هذا الشعور مزاجا مهيمنا عندها يتفوق المزاج الأرضي المتشائم، وينفتح باب الدين في وجدان الإنسان. إن هذا يصدق على الشعوب والأقوام عامة، التي تبنت واعتنقت ديانات غريبة عنها وعن تاريخها؛ مثل الأعاجم حيث صار ارتباطهم بالدين بدافع الخوف فقط، لا على أساس أن الدين تأمل كوني وطريقة حياة، حيث لا وجود للمزاج المتشائم، ولا يمكن للنزعة الدينية ان تتنامى على الأقل بشكل تلقائي. ويمكن القول باختصار إن الديانات المذهبية قائمة على الخوف والتشاؤم. ولذا تتصنع وتتظاهر باحترام كاذب لظاهر الدين ووهم النزعة التدينية.

كانت الديانات قد نشأت وتنامت عن فهم كوني متشائم، واستمرارية التشاؤم تجذرت في النزعة التدينية، لكن الإسلام إلى جانب كونه يحمل بذرة مثل هذه النزعة بقي في صلبه ديانة متفائلة وبهيجة؛ وصارع من أجل الوصول إلى المسرات الدنيوية ، وربط الإيمان بالسعادة الأرضية، واعتبرت

أن الطريق من أجل الوصول إلى السعادة الأبدية يبدأ هنا على الإرض. لذا بقي النشاط الديني الإسلامي نشاطاً أرضيا وإن كان موجها لخدمة السماء. إن الإسلام في اختلافه عن الديانات المذهبية احتوى جميع عناصر الثقافة الجزرية - العربية، وهي ثقافة تفاؤلية تتمتع بالمسرات الدنيوية. لقد قتلت الديانات المذهبية النزعة التفاؤلية للإسلام، وأسبغت على الإيمان الديني طابعا غامضا وغريبا. وصارت الطقوس الدينية ممزقة ومتضاربة ولا تخلو من التناقض، والأخلاق التي يدعون إليها لا دينية، ولا ترتبط بالدعوة الدينية، الأخلاقية، الإسلامية إلا ظاهريا. هذه النتيجة كافية من أجل تبرير النقد ضد النزعة اللاتدينية لهذه الديانات؛ ولا يعني هذا أن اصحاب هذه الديانات غير متدينين، وإنما بمعنى أن موقفهم مبدئياً لا ديني، لأن هذا الموقف يمحو النزعة التدينية في تأثيرها الدائم على البشر، ويجعل منها بقية غير جديرة بهذا الإسم.

# الرسالة المحمدية والدعوة للمستقبل

إن ما تناولناه من فحص وتدقيق هو معرفة دور الرسالة المحمدية في المستقبل، لا سيما وأنها تبتعد يوما بعد يوم عن أنماط تفكير الناس وأساليب حياتهم، خاصة بعد أن هيمنت الديانات المذهبية على أنها « التعريفات الجديدة » للإسلام. يلاحظ المراقب لهذه الأوضاع التغيرات الاجتماعية والنفسية بحيث أصبح أنصار الديانات المذهبية من الصعب عليهم أن يتمثلوا أو أن يعملوا بشرائع دياناتهم. إن التجمعات البشرية التي تدين بالولاء لهذه الديانات هي الأكثر فوضوية وانفصاما في تفكيرها وأفعالها، ذلك لأنها تدعو إلى شيئ لا وجود له ولا يعرفونه على حقيقته لأنهم لم ينتجوه ولم يعيشوه يوما؛ لذا تراهم يدعون إلى أمر ويمارسون نقيضه. لهذا السبب يطرح السؤال بصدد دور الدين والرسالة المحمدية، وهل يمكن رد الاعتبار للرسالة المحمدية بحيث تصبح سنة و شريعة للناس خاصة لدى العرب ؟ إن الجواب على هذا السؤال معقد بعض الشيئ لأنه يحتاج إلى تعيينات دقيقة للشروط والعناصر الواجب توفرها من أجل بعث هذا الدين حيا ثانية. إن بعث هذا الدين حيا يستوجب أن تتوفر وتحفظ العناصر التي أوجدت هذا الدين؛ وفي حالة الإسلام يجب الحفاظ على العرب وأعرافهم لأنهم « ذات العلاقة الدينية »، وأعرافهم مادة ومبدأ الإسلام. وإذا تعذر هذا الأمر فلا مستقبل لهذا الدين. وقد عاشت هذه الحالة أجيال كثيرة قبلنا حيث عانت من الاضطهاد والظلم والعسف باسم هذا الدين بعد أن هيمنت عليه الديانات المذهبية. لقد شرعت الديانات المذهبية لنفسها قيما وقوانينا باسم الإسلام إلا أنها قيم وقوانين ميتة، تجريدات لا تمت إلى واقع أو شعب معين، ولهذا من الصعب العمل بها لأن كل تجمع بشري له سمات وخصائص وتقاليد خاصة

به لا يمكن إلغائها او استبدالها بقيم وأفكار مجردة؛ لا تصدر عن الفكر المجرد سوى أفكار مجردة. إن حياة الناس تحكمها العادات والتقاليد. من الصعب على الإنسان أو الشعب أن يفهم ويهضم دين أو ثقافة في صورتهما البدائية الأولى، ومن أجل أن تفهم لا بد من تعديلها وبنائها من جديد لكي يتسنى للناس فهم الفكرة الجديدة الغازية، ويتم اخضاعها لمعايير ثقافتهم وتصير كالوعاء يقبل بأي محتوى يصب به، وتصبح الأفكار الغازية عينية خاصة بعد أن كانت في البداية بالنسبة لهم أفكار مجردة عديمة المعنى والقيمة. أما الآن فقد صارت ذات قيمة لأنها تحمل خصائصهم النفسية والأخلاقية و الاجتماعية. وحولت الديانات المذهبية بعملها الأفكارالقيمة المعنى إلى تجريدات مفاهيم عديمة المحتوى ميتة بعد أن كانت حية فعالة في نفوس العرب، وتحولت إلى أداة من أجل نفي السلطة والنفوذ الديني العربي، وأدت بالتالي إلى تمييع وتسفيه الدين، فتحول كنتيجة نهائية إلى نزعة لا دينية أرضية. ومن الصعب اليوم خلق تصور ديني موحد بسبب اختلاف الأقوام وتعدد الديانات. ويمكن لنا أن نتصور العرب يعودون إلى نقطة الصفر ويعيدون النظر بهذا التاريخ والتصورات الدينية، لكنه أمر مستحيل بالنسبة للغرباء لأن مثل هذه المحاولة ستبعدهم أكثر عن الإسلام وديانتهم الحالية. وانطلاقا من هذ يمكننا القول بأن المصالحة بين الديانات المذهبية والإسلام غير ممكنة لأن الديانات قطعت وتجاوزت بسبب تشريعاتها ومبادئها مسار التطور التاريخي، كما ان انعاشها يعني اعاقة عجلة التطور التاريخية، ومثل هذه الإعاقة تؤدي إلى ايقاف عجلة التطور، أو العودة إلى الوراء.

لقد تجاوزت الديانات المذهبية وتشريعاتها مسار حياتها حتى النهاية. لا هذه ولا الأنظمة التي تتبعها قادرة، خاصة في عالم اليوم، أن تكون شريعة

دينية صالحة. لم تعرف الديانات المذهبية عصرا ذهبيا بل نشرت بالقوة، وبعد هيمنتها كانت قد سجلت بداية الانحطاط ونهاية الروح الدينية العربية الإسلامية. لقد سميت الفترة التاريخية التي هيمنت فيها هذه الديانات بالفترة المظلمة. إن هيمنة الديانات المذهبية سجل بداية السقوط والانهيار لكل الفضائل والقيم سواء الموجود منها في حياة الناس او المطلوب أن يعمل بها. لم يعد هناك مكان للوصايا الدينية في عقول الناس وفي حياتهم. إن نهاية الديانات المذهبية وتفاهتها تعود بالدرجة الأولى إلى عقمها وخوائها وفراغها السلبي من المضمون الديني الإسلامي، العربي . لقد أظهرت هذه الخصوصية قديما من منطلق الدين الإسلامي، واليوم تكشف عن فراغها وعقمها من وجهة نظر الثقافة. تركت الديانات المذهبية آثارا سلبية في وعي الناس وحياتهم، وأصبحت مع مرور الزمن جزءاً من الوعي القومي، يصعب تغييرها، أي أنها جزء من الوجود القومي، الإجتماعي. إن الديانات المذهبية وآرائها المتشائمة وميلها الذي جعلها لا تقرر ولا تعرف إلا بشرائعها وأن تجعل من البؤس الدنيوي ظاهرة في حياة أنصارها ذلك أنها تسلم أمورها وأحوالهم إلى الحاكم، وهذا غزو فكري أعجمي للبيئة العربية، وغزو للإسلام في الوقت ذاته. لقد تسببت هذه الحالة في ظهور أفكار وتصورات ذات نزعة اتكالية حولت الدين إلى اتكال وتحمل البؤس؛ من أجل تحمل هذا البؤس والألم خلقوا مسكنات عديدة، منها أن الله يمتحن عباده لمعرفة إيمانهم، متجاهلين أن البؤس له مصدر واحد هو الجهل والتخلف. إن من أكبر عناصر التخدير هو ما يشاع لدى الشيعة باسم « عودة المنقذ » او ما يسمى « بالمهدي المنتظر ». إنهم ينتظرون ظهوره على أنه جزء من وعي الذنب ومحتواه اصلاح العالم بعد فساده، حيث أن « المهدي سيملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جوراً ». لو نسأل هؤلاء متى كانت الحياة والتاريخ على

نحو آخر غير الذي نعرفه ؟ إن « التاريخ الإنساني هو تاريخ قمع الإنسان »، وهو صناعة نفوس الشعب. إن ما يتحقق في الحياة والواقع مصدره الأول النفس البشرية، أما العوامل المحركة لهذا التاريخ فهي الحاجات والرغبات. الحاجات والرغبات تتغير طبقا لتطور المجتمع علميا واقتصاديا وثقافيا وليست ثابتة؛ إن ما يحتاجه الإنسان اليوم سوف لن يطلبه بعد عدة سنوات، بل ستظهر مطالب وحاجات ورغبات جديدة. إن ما يريده الشيعة بفكرة المنقذ هو نوع من المصالحة والاتحاد باللّه، وهذه فكرة لا وجود لها في تاريخ العرب وفي دينهم. إنها فكرة مجوسية في الأصل زرعت الذل في نفوس أنصارها، وهي نتاج الذل والاضطهاد. ولو كان المنقذ « المهدي » بشراً ككل الناس وولد عن أب وأم فإنه لا يمكنه أن ينقذ الناس من الخطايا، وأن يجدد الخلق؛ إن طاقاته ستكون أقل من طاقات أي حاكم عادي في مثل هذه الحالة، وأقل من ذلك أن يكون وسيطا بين الإنسان واللّه، اللهم إلا إذا كان من نوع آخر ولا يشبه البشر، وله خصائص وصفات لا يمتلكها الإنسان بل اللّه؛ وعليه يجب أن يكون المهدي هو اللّه. وكما نعلم فإن الإسلام لا يقر لا بالحلولية ولا بالتجسيد. تتراجع الديانات المذهبية ومعتقداتها اما الثقافة والتعليم؛ فإن سبب بقائها يعود إلى أن الأقوام التي تعتنق هذه الديانات لم تتغير في حاضرها كثيرا، وما زالت أقواما أمية جاهلة تعيش خارج التاريخ ونتاجاته العلمية، التقنية. لم تبق الديانات المذهبية على شيئ من الإسلام، ولكنها يمكن أن تدعي لنفسها مبدأ جديداً ذا قيمة ثانوية في إطار نسق ديني ثابت إلا انها لذاتها عديمة القوة والشأن، ولهذا تحتاج إلى أن تنسب نفسها إلى الإسلام من أجل الحصول على الشرعية ومن أجل اشباع الحاجة الدينية، وعندما يقوم الإنسان برفض جميع المقدمات الضرورية للنزعات الدينية، أي إلى رفض المبادئ والقيم الإسلامية العربية، ويتمسك بهذا العامل، ويقف في تضاد مع تفاؤل الرسالة المحمدية يكون وقتها بالإمكان

إرساء أساس ضروري من أجل بناء ديني جديد، ولا يتحقق أكثر من ذلك حيث سيمتلك الشخص في هذا المعنى تأملاً كونياً جديداً، ولكن كمزاج (كحالة نفسية) ضرورية للدين كالحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية والشيعية بكل أشكالها، والصوفية بكل أنواعها، وكل ما يعرف من اتجاهات ومذاهب دينية أخرى. السؤال الذي يبقى دائما هو أي من هذه الإنشاءات الدينية الجديدة يمكن أن يشبع ويعمل ما فيه الكفاية من أجل الحاجة الدينية القائمة على المزاج (الحالة النفسية)، وكذلك الثقافة في نفس الآن .

لقد كانت الديانات المذهبية دعوى من أجل تأسيس ديانة جديدة حتى وان لم يدع أصحابها خلق ديانة جديدة باسم الإسلام. أما اليوم فمن غير الممكن عمل شيئ جديد للإسلام والديانات المذهبية. بما أن الإسلام وحي خاص بالنبي وحده، ولا يمكن أن يتكرر لذا فمن غير الممكن عمل شيئ لهذا الدين، أما الديانات المذهبية فهي، أيضاً، من الصعب تحديثها وتجديدها سواء عن طريق الثقافة أو العلم، لأن العلم والثقافة وممثيلهما لا تناسب طبيعتهما في أن يكونا مؤثرين من أجل تأسيس ديانة جديدة، أو تجديد الديانات المذهبية القديمة. لقد حدث هذا من قبل في التاريخ حيث أن العلم سار مساره الخاص، والديانات المذهبية سارت في الاتجاه المعاكس، أي لم يحصل اتفاق بين العلم وهذه الديانات. لم يؤثر العلم مطلقا على أصحاب الديانات المذهبية، وإنما أثرت قوة العرض التأملية الحسية وسلطة الحكم الممثلة لها، والتي تسعى إلى تحقيق نجاح لدى الناس. إن أصحاب الديانات المذهبية لم ينهلوا الأفكار من الصدر الأم، القرآن والتاريخ العربي، وإنما من احتياطي الأفكار للإيمان الشعبي الشائع، وصاحب كل ديانة مذهبية يستقي الأفكار من البيئة والثقافة التي عاش فيها قبل الإسلام؛ لذا يكشف من بين هذه الأفكار والمعتقدات، ولو في صورة ناقصة، تلك التي تثير وتمس الوجدان

الديني لهم بشكل قوي، التي يجربون عن طريقها تبليغ التأثير الحماسي الذي يقلل من قيمة الأفكار، ويتأجج، الوجدان المنفتح للقوم في مثل تلك الانطباعات تحت وطأة الظروف. إن العلم في المجتمعات المتطورة علميا وصناعياً قوض دعائم الإيمان الديني الذي قام على تصورات دينية جديدة، بمعنى آخر تنشأ ديانات قيد الصيرورة لم تظهر بعد، ولكن على الإيمان الديني أن يقبل بالعلم من أجل نموه وانتعاشه وتعميق وتنويع محتواه، وأن تقدم للمستقبل مادة غنية وقيّمة، بدلا من التصورات الأسطورية القديمة التي طبعت هذه الأديان بطابعها الخاص.

لقد أظهر التاريخ بأن تأسيسات دينية جديدة، كما حصل في الماضي مع الديانات المذهبية، لا تمتلك في بداية ظهورها ولا اليوم قوة خلق وابداع دائمة، يعني هذا أنها لن تكون صالحة للمستقبل كما كانت في الماضي، ولن يشفع التشبث التافه بالعجز الذاتي التاريخي لصور الدين الموجودة باسم الإسلام، بحيث صارت الظواهر الأخيرة البارزة للديانات المذهبية نتائج نهائية لمبادئ هذه الديانات، مدركة بشكل واع، أما القديم وهو الإسلام فإنه كدين يكون ميتا منذ تلك الأزمان التي ظهرت فيها الديانات، ومتخلفا عن روح العصر في تعليم العوام، ولن يكون بمستطاعه بعد الآن، أن ينفخ نفسا دينيا جديدا. عندما يصل الأمر إلى هذا الحد لا حاجة إلى الجديد لأن كل شيئ سوف يبور طال الزمان أم قصر ويصير القديم (الإسلام) عرضة للتفسخ. يبين لنا هذا أن من غير الممكن إنكار ان الدين لا يجدد، كما انه من غير الممكن عمليا انشاء بناء ديني جديد متين استنادا إلى الديانات المذهبية، وهذا يعني في الوقت ذاته تعذر تجديد وتنوير الديانات المذهبية وتشريعاتها. الدين يبقى على قيد الحياة ويكون حيويا عندما يرتبط بحياة الشعب فقط، بحيث تكون قيم واعراف وتقاليد الأمة هي الشريعة الدينية ذاتها. الديانات المذهبية

ومبادئها تقوم على خليط من التصورات و الأوهام تتراجع بشكل كبير أمام سلطان الذهن والعقل، ولهذا تكون الحاجة إلى الوجدان الديني في تناقض دائم. من غير الصحيح أن تستبدل جزئياً ظاهرة الزمان الحالية مع نزعة التطور الدائمية، وجزئيا تفسر نزعة التطور النظامية في تأثيرها العكسي على النزعة الدينية وعلى الإحساس عموما. إن الذهن الواعي له الكلمة الأولى في تقدم البشرية؛ لكن التكوين المتواصل للذهن يشكل أكثر غنى وأرق، ويؤثر بشكل عكسي على مجال الإحساس، كما أن صراع الذهن ضد الإحساس الموروث يتجه دائما ضد وجهة نظر الإحساس بالموروث من ميدان التطور العقلي السابق، ويقف ضد بدايتها الدينية، وينفصل أكثر فأكثر عن ارتباطه بالإسلام، وليس ضد وجهة نظر الإحساس المطابقة لمجال الذهن الجديد، الذي يبني نفسه تدريجيا بعد التدمير الجزئي للقديم. هذا عمليا ما فعلته الديانات المذهبية، التي انكرت العقل قديما، وتنكر اليوم ايضا التطور العقلي في التقدم الهائل والمستمر، ولم تعلم به إلا قليلا. ينقص هذا الوضع الحاجة الدينية بشكل دائم وبنسبة تصاعدية؛ طالما أن القوم او الشعب لم يصبح تجريديا وعلميا في المعنى الدقيق، ولا يمكن أن ينقص الحاجة الدينية وهو مالا يمكن توقعه، وعليه سيبقى الإسلام لدى العرب ثابتا رغم التغيرات الجارية في الحياة، والتي تنعكس ايجابيا على الحياة الدينية والإيمان. لكن في حالة الديانات المذهبية والأعاجم فبالعكس يجب تدمير كيان هذه الديانات واعادة تشكيلها من جديد، وقد ذكرنا أعلاه أن هذا غير ممكن لأن الديانات لا تصلح، كما أن الشعب الذي أنتجها انفصل عن بعضها ولأنها كانت منذ البداية مجردة وطغى عليها الأسلوب الخرافي بدلا من العلمي تتزايد بالمقابل الحاجة إلى الدين بشكل دائم لأن البشرية بقدر ما تتطور، وتكون أكثر رقيا تجعل من وسائل الترف والترفيه قابلة للاستعمال نافعة، وعليها أن تتبصر

وأن تعي أنه من غير الممكن التغلب على معاناة الحياة ،وأن تنال السعادة الأرضية او الشعور بالرضى والراحة. الحاجة الدينية يمكن أن تحمل على أشياء العالم وتمنح قدسية. كما فعل الإنسان القديم في الماضي حيث انه ألّه أشياء العالم وظواهر الطبيعة، وتراه اليوم في العالم العلمي التقني يضفي القداسة على العلم و التقنية. تؤله المجتمعات الصناعية عمليا العلم والتقنية وتقدم ما في وسعها من طاقات وكفاءات. انهما السيد الذي تخضع له المجتمعات وليست المسيحية. ولا يسمع الإنسان هنا دعوى إلى اللّه من أجل أن يرزقه أو يشفيه من المرض أو ينزل عليه المطر، بل إن الحياة تنوعت ووزعت فيها الوظائف على لجان ومؤسسات مختصة تعني كل منها بحل المشاكل التي تظهر في ميدانها، وبهذا تتراجع الحاجة الدينية، ويضمر وجود اللّه وتأثيره في الحياة. علينا الآن أن نفهم الوضع الذي نجد أنفسنا فيه والذي لا يمثل نتاج فاعليتنا الروحية، بل نمط حياة مستوردة يتجاوز مداركنا العقلية وتجاربنا التاريخية.

سأتطرق، مبتعداً عن موضوع البحث، إلى فكرة العلم والتقنية الحديثة من أجل معرفة ما يجري فعلا في الحياة ومدى تأثيرهما على مستقبل البشرية في الميادين الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية وسواها.

كان العلم في البداية إجابة للإنسان على قوى الطبيعة التي شعر بالخوف منها. وحاول الإنسان دائما أن يعثر على اجابة وايضاح للظواهر التي تهدد حياته. لكن وظيفة العلم في الحضارة الأوروبية تجاوزت كل الإمكانيات بحيث قام من أجل غاية واحدة وهو أن يصير مصدرا للربح والثروة. وبالنتيجة خلق الإنسان الغربي مشاكل شتى منها تلوث البيئة، السلام، الأمن وغيرها؛ مثل هذه الظواهر لا شأن لها بالعلم ولا بالطبيعة، وإنما هي نتاج الإنسان ذاته. إن حل هذه المشاكل يوجد في التقاليد الأوروبية

التي تتطلب تحولا جذريا، إلا أن هذا من الصعب تحقيقه لأنه « يجب على الإنسان الأوروبي عند الحصول على الاستقلالية الفردية أن يعطي شيئا من يده، وهذا أقوى استقلاليته. إن مجتمعنا يعمل في الواقع وفق قانونيات لا نستطيع السيطرة عليها. وهذه القانوينات ليست قوانين الطبيعة ولكن بالأحرى قوانين أعددناها نحن للطبيعة، وكذلك الاجتماعية نسبيا » (١٦). إن القوانين التي يزود بها الإنسان الطبيعة الاجتماعية على كل الأصعدة والمستويات لا تمتلك الدقة والضمانة. وعلى هذا نستخدم المثال التالي: على الرغم من أن الاقتصاد نتاج اجتماعي لكن تظهر لنا العملية الاقتصادية الكاملة كحركة مصير. نحن لا نستطيع تسيير هذه الحركة لكن باستطاعتنا على أية حال، أن نشخص أو نتنبأ كما في الطقس »(١٧) . إن هذه الظواهر نتاج فاعلية المجتمع، التي يُنتج فيها الإنسان ويعيد انتاج نفسه. إن التطور العلمي والتقني يخلق مشاكله الخاصة به، إلا أن حل هذه المشاكل يتخطى حدود التقنية والعلم. لا شيئ في العالم لا يخضع لعملية التغيير التي يحدثها التطور. إن التطور والتغيير الذي يحدثهما العلم والتقنية ذوا طبيعة حتمية تتطلبها قوانين التطور. وهذه الطبيعة الحتمية تحتمها طبيعة وشروط التطور، وهو ما يطلق عليها « بجبرية الشيئ » و« قانونية الشيئ ». هذه الحالة تبررها جميع الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية وما ينجم عنها من مشاكل يفهم على أنها نتيجة طبيعية لهذا التطور. من المشاكل التي تشخص لهذا العصر يعرضها أحد رجال علم الاجتماع في مجموعة تساؤلات على

(16) Holling, E, Kempen, P; Identitaet, Geist und Maschine. Aufdem Wegzur technologischen Zivilization, Reinbeck bei Hamburg, 1989, S. 36

(17) ibid; S. 37

* Schelsky, Helmut; der Mensch in der wissenschaftlichen Zivilisation. In: "Auf der Suche nach der Wirklichkeit", Kolen, 1956, S. 440.

نحو: ماذا يعني أن يعاني وأن يموت الإنسان من أمراض خلقها بنفسه من خلال حضارته بحيث تستبدل الأمراض الطبيعية بأمراض الحضارة؛ الحاجات المادية تنفصل أكثر فأكثر عن نتاجات الطبيعة، وتلبي عن طريق الإنتاج الصناعي الذي هو في مادته اصطناعا ونتاجا للقوى الإبداعية للإنسان؛ الانفجار السكاني مرتبط بوظائف التنظيمات الإنسانية المعقدة، وبإنسان أجهزة الإنتاج، واليوم بإمكان الأوبئة والجوع والإضطرابات الجوية تهديد الإنسان بنفس القدر من أخطاء التنظيم السياسي، الاقتصادي للإنسان، أو أن المشاكل الاجتماعية للمجتمعات الصناعية المتطورة لا تدور حول أسئلة مثل الحد الأدنى للوجود، وانما الحد الأدنى للحضارة والمساهمة بمتعة الحضارة؛ أو أن الناس يعيشون في بيئة اصطناعية في حشود في المدن الكبيرة، و المناطق الصناعية في بيئة خلقها وأعدها لنفسه، والطبيعة الحرة تنظم كرفاهية ومتعة حضارية؛ أو التهديد الشامل للإنسان بواسطة الأسلحة العلمية، التقنية المصنوعة من قبل الإنسان عندما يصير تهديد الكون أمراً طبيعياً في الحضارة التقنية الشاملة؛ أو أن المعلومات المعدة تصبح أكثر أهمية من التجربة الشخصية في الواقع المباشر للإنسان، أي أن نمطاً من البشر يطور، في الواقع، ويبني عالما من المعلومات عن طريق وسائل الإعلام، ويعتبر هذا الجيل المعلومات الأكثر أهمية طبيعية وهي حقيقة في العالم. وعلى أساس هذه الإشارات المرسلة و المعلومات ينظم ويوجه هذا الجيل حياته؛ أو أن شباب اليوم يخدم التنظيمات الإجتماعية كما يخدم الإنسان جهازا تقنيا يفتحه ويغلقه، لأن الإنسان هو المفتاح الذي يعرف التأثير الحادث. التخفيف التقني يقترب من قدرات الإنسان، و يستحضر ذهنيا التخفيف التقني طابع ومعنى العمل ومعنى الإنتاج في الأجهزة التقنية، أو أن تطوير تقنيات انسانية يسمح لنا بتعقل ما تعودنا عليه أنه الباطن اللامادي

للإنسان، نفس الإنسان ومعتقداته أن تفكك وتضاعف في معنى الحقيقة التقنية؛ أو أن يحصل على توافق المؤسسات القائمة والهيئات « الروح الموضوعية » في المسار التاريخي الآن في مفهوم التخطيط الواعي المتطور وهكذا دواليك. إن مرحلة الانتعاش والرخاء الاقتصادي أقصت الكثير من مشاكل الحياة الإنسانية والأخلاقية، ولذا لم تطرح اسئلة نقدية ثقافية. وما يفهم تحت السؤال النقدي هو مشكلة الثقافة والحضارة. لقد انتقدت الحضارة في الماضي على أنها سباق وصراع الأفراد وكذلك الشعوب. الحضارة لا تعنى بالوحدة الإجتماعية ولا تعنى بالقيم. الحضارة ثقافة المجتمع المجرد حيث « تسيطر الوسائل على الغايات »، وحيث تتحكم في المجتمع قانونية المحافظة الذاتية المادية، الاقتصادية على الغايات الحياتية الروحية، الأخلاقية، بمعنى الحياة التي يجب أن يحتفظ انتاج شروطها المادية بالخضوع لاستقلاليتها الأخلاقية. تعني الحضارة المجتمع القائم على المنافسة بين المصالح الفردية، وتدمر المنافسة بالتالي الإرادة الجماعية، وتحول الرابطة والاشتراك الإلاجتماعي للمواطنين في المجتمع إلى رباط لأغراض خارجية. الحضارة صورة لتمزيق الوجود الإنساني، وهي حالة من الانشقاق الاجتماعي. في حين أن الثقافة على العكس من الحضارة ليست إلا ما هو ارقى، عناية حياتية تكاملية، عناية متنامية ووقاية للكل، حياة مقسمة للإنسان. إنها كما يقول ناتروب « ليست ملكية استثنائية لهذه الأمة أو تلك وإنما هي خير عام، مهمة عامة للبشرية »؛ أو كما قال كانط : علاقة اجتماعية متحضرة بين الناس تنشأ وتتكون من خلال باطنية الإيمان الإنساني. لكن الملاحظ أن مرحلة انتعاش الأشياء الإرضية يمكن أن تكون تفاؤلية ولا تدوم أكثر من تحقيق هذا الهدف. ما أن يتم بلوغ هذا حتى يلاحظ الشعب المعين أنه لم يصبح أكثر سعادة مما كان عليه من قبل، وإنما تتزايد

الحاجات المزعجة المؤلمة. إن التفاؤل هو حادث عابر (فاصل) لدى الأمم الموجودة في الانتعاش الأرضي، لكن التشاؤم هو المزاج الأصلي الدائم للبشرية البالغة العائدة إلى ذاتها، ويتفجر بعد كل عصر منصرم من الانتعاش الأرضي عنف متزايد. ويخلق هذا الوضع ظرفا مناسبا وضغطاً من أجل زيادة بؤس العالم (بؤس الضعفاء) في وتيرة متصاعدة دائما طبقا لمسار المراحل الدينوية ولامتصاص المصالح الدنيوية، ولهذا تصبح المسألة الدينية الأكثر اشتعالا عندما تبلغ البشرية ما يمكنها بلوغه ثقافيا على الأرض، ويفهم البؤس في هذه الحالة الكونية السارية على أنه أكثر ما يمكن بلوغه.

العلم اليوم وفي المستقبل قوة ومصدر كبير وأساسي للمعرفة التي ستعالج جميع التصورات والأفكار الدينية، ولا يجب على الإنسان أن يمتعض ويستاء من العلم عندما يحوز ويوجه في افكاره المسار الكوني، وأن يعوض مرة في المستقبل الدين عموما. إن مثل هذا التعقل ينطلق من رؤية بصدد القيمة التاريخية للأديان الأصلية. وسوف يتضح أن الدين الذي لا يرتبط بحياة الشعب، لا يمثل ظاهرة نفسية للشعب يفنى ويندثر. إن كانت هناك حاجة للدين في المستقبل فإنه سيكون تركيبا من أفكار شتى شرقية وغربية؛ أي أنها ستكون بالتالي فلسفة لاهوتية يمكن أن تعمل حساب الحاجات الدينية والعقلية للعصر الحديث.

يتجه العلم اليوم صوب وضع الحيازة العام للأفكار القابلة للاستعمال دينيا، والتي يمكن أن يخطط لها لاحقا بشكل طبيعي، وهذا لا يلغي أن يشرع للدين مساره في المستقبل. يحاول العلم ان يبني انساقا وقواعد فكرية عامة للجميع، وبهذا يحاول أن يضمن أطوار الثقافة ظاهريا والمنفصلة عن بعضها البعض، كما أنه سيفتح آفاق مسار للاتجاهات الدينية المختلفة. بهذه

الطريقة ينقل المعنى إلى التاريخ الكوني، ذلك لأن الديانات المذهبية التي نشأت وتكونت والتي قدمت نفسها بديلا للدين الأم ما هي إلا خلط من أفكار وقيم مختلفة، وهو ما يؤدي بالتالي إلى اختفاء الشعوب الصغيرة والضعيفة من التاريخ؛ بهذا سيتحقق امران سلبيان، الأول موت الأديان. والثاني موت الثقافات والقيم الأخلاقية القديمة عن طريق تدمير الكيانات الذاتية و العرقية للشعوب. كل ديانة من هذه الديانات تدعي أنها ديانة كونية، علما أن الديانات الأم لم تكن كونية؛ البراهمانية والبوذية ديانات الظواهر النفسية للشعب الهندي لاغير، وديانات الوحي ظواهر نفسية في الشعوب الجزرية، العربية. معنى هذا أن الدين السماوي وإن كان يدعو إلى إله كوني إلا أن شرائعه وقيمه، سماوية هذا الدين قومي لا يمكن أن يستوعبه يعيش بمقتضاه سوى الشعب الذي ولدت فيه هذه الديانة.

# البنيان التاريخي للدين الإسلامي في المستقبل

إن الأديان التي عرفتها الأقوام الجزرية قديما لم تعرف التمييز بين التأليه ووحدة الوجود، او بين العناصر الواحدية والتعددية. لم يكن الوعي قد ميز بعد ولم ينقل إليه التمايز بين المفارقة والمحايثة او بين الوحدة والتعددية. الوعي يعقل الوهية حسب الحاجة على أنها ألوهية خارج او داخل العالم، وحدوية او تتفرق في التعددية. بدأت الأديان في تقديس قوى الطبيعة؛ بهذا تكمن نزعة جميع الأديان البدائية في تعددية الإلهي، لأن الروح الطفولية المفكرة تسبغ على الأشياء خصائص بشرية. ليس معجزة أن تفعل الروح هذا الشيئ مع الكثير من قوى الطبيعة التي تصير للإنسان ألهة شخصية كثيرة. إن قوى الطبيعة طبقا لماهيتها محايثة للطبيعة، هذا من ناحية، ورغم صراع قوى الطبيعة فيما بينها يشعر الإحساس المنفعل دينيا بالارتباط الوحدوي للطبيعة العامة الذي تتلائم معه كل قوى الطبيعة الأساسية، على أن تتطابق الروابط الأخرى، من ناحية أخرى. والإحساس يعقل نفس القوى كوحي ما فوق طبيعي، إلهي. لهذا تحتاج الديانات البدائية في كل مرة ومناسبة إلى صورة يرمز بها إلى الكل عن طريق الجزء، أي الجزء من اجل الكل، وتقدس كل قوة طبيعية مختارة كموضوع تقديس، بمعنى إله، ويعرض فيها الإلهي الكوني. لا يلاحظ الوعي الديني الأصلي شيئا من الانقسام الذي يضع فيه الوعي خيالاته الخاصة عن طريق الفاعلية ذات الخصوصية البشرية؛ لهذا يلاحظ التناقض لأن الوعي أنسن كل شيئ، ولم يهتم في الحفاظ على خصائصه البشرية التي تقيده كاحتياط من أجل ربط وتنظيم سلسلة التصورات المعروفة عنده للآن. لكن الشعب يتمسك بالخصائص البشرية التي تمنح للآلهة، ويتعود عليها وتتحجر من ثم صور الآلهة المعهودة حسيا

ونشأويا إلى اشخاص ثابتين ضمن مجال تأثير محدد، كما أن الرمز يغطي على الفكر الموجود في أساسه، ويفنى بذلك وعي وحدة الإلهي أمام جمود وتحجر تعددية الآلهة، أو أن يبقى وعي وحدة الإلهي خلفية معتمة لصور غير محسوسة، وكذلك أيضاً، من أجل فهم عمق الروح.

على هذا الأساس تظهر تعددية الآلهة لدى الشعوب التاريخية؛ فتعددية الآلهة السمة البارزة للعقيدة الجزرية السابقة التي لم تستطع التغلب عليها في برائتها الساذجة لأنها لم تعرف ولم تدرك آنذاك الفوارق الموجودة كما هي تتغلب عليها روحيا. إن تعددية الآلهة كنزعة في كل مكان تتسلل بشكل مستور وخفي في نسق ديني باطني، لأنها تسمح للشعوب غير المتعلمة، إذا جاز القول، بصور مريحة عديمة الفكر للعبادة الدينية الميكانيكية. لقد كانت هذه القضية هي المهمة الأساسية للتطور الديني للعصر التاريخي في ان يتغلب على العنصر اللاديني الذي تسبب في سقوطه تعددية الآلهة، ويمنح تعددية الآلهة قوة استمرارية كبيرة. إن نزعة الذهن البشري الحسي تعمل من أجل أنسنة الإلهي. بهذه الطريقة فقط يمكن للعناصر المسموحة (المشروعة) اللادينية أن تبقى محفوظة في وحدة الإلهي، ومحايثة الإلهي، وكثرة طرق تجلياته في الوقت ذاته(*).

لقد بين لنا التاريخ طريقين لم يوصلا إلى أهدافهما؛ واصطدم الإسلام بهذه الظاهرة وكافحها وهي ظاهرة تعدددية الآلهة والتوحيد. عرف العرب اللّه قبل الإسلام وعبدوه على أنه الإله الأكبر والمفضل، إلا أنهم قبلوا إلى جواره آلهة أخرى جزرية ومحلية. إن الجديد الذي دعا إليه الإسلام هو الإيمان بإله واحد ونبذ الآلهة الأخرى. كانت الديانات الشرقية الجزرية لا

---

(*) إن هذا يصدق على الديانة اليهودية حتى تبني إلههم الجديد يهوه - وهو إله طبيعي مدياني .

تريد توديع الكثرة التي ترى فيها تنوعاً باطنياً للإله الواحد، ولم ترغب في الإضرار بالمحايثة التي هي بالنسبة للإحساس الديني ذات أهمية حاسمة، وأرادت أن تضمن وحدة الإلهي عن طريق الاعتراف بالواحد في كل إيحاءاتها الإلهية والبشرية. الألوهية الواحدة اللاشخصية والمحايثة أنقذت نظريا من أجل نظرية باطنية لا يكترث بها الشعب لأنه على ما يبدو يحتفظ بالصور الكثيرة الشخصية الموجودة القريبة له وهي وحي الواحد الكلي. إن قمة النظام نقيت من الصفات البشرية التي تحمل على الآلهة، وبذلك نما النظام إلى حلقات مترابطة منسجمة بين القمة الفكرية النظرية والقاعدة الفيزيائية العريضة وأصبح أكثر ضخامة.

إن ديانة الوحي انجاز روحي - أخلاقي، وتتجلى العملية التاريخية من خلال وجهة نظر التوحيد كعملية تربوية معني بها شعب الوحي. هذه التربية تنحصر في الطاعة للقانون الإلهي الذي هو الكل الأبدي، والذي يمثل أهداف السامي والنهائي من أجل تحقيق علاقة الإتحاد بالشعب. إن الإيجابي في القانون الإلهي هو الإراة الإلهية. والقيمة التاريخية للرسالة المحمدية لا تنحصر في أنها ديانة وحي، لأن هذا موجود من قبل، بل لأنها هي ذاتها مذهب التوحيد، الذي تكمن قيمته التاريخية في جعل المتغاير في عرف البداوة وقانون حياتها مبدأ دينيا شموليا. إن الإسلام رباط الحياة بين اللّه والبشر يحدد صلته وعلاقته بالناس من خلال صلتهم وعلاقتهم بالقرآن. وتتحقق إرادة اللّه للحد الذي تطبق فيه مبادئ القرآن؛ إنه الصورة الغيبية التي تبلغ فيها ومن خلالها مملكة اللّه إلى البشر. لهذا نلاحظ أن الإسلام عرض اللّه على أنه الإله الأقوى والأعظم والوحيد، ولذا قامت الدعوة الإسلامية من بدايتها حتى نهايتها على مفهوم اللّه الواحد ودعت العرب، ونظمتهم طبقا للتباشير التي دعا إليها الإسلام حيث أنه رسم طريقا لا مجال

إلى تغييره أو الخروج عنه، وهكذا استطاع الإسلام أن يوحد التجمعات العربية في تجمع واحد و على طريق واحد وموجهة من أجل هدف واحد.
كانت آلهة القبائل العربية جزءاً من الإحساس بالانتماء إلى العشيرة، بمعنى أن آلهتها جزء من مقومات وجودها وممتلكاتها وبذلك فقد أزال الإسلام تحت مفهوم اللّه هذا الإحساس. وحاول اعدام وجود العشيرة بالمقارنة مع اللّه؛ وقلب العلاقة بحيث أصبحت العشيرة وأبنائها عبيدا اللّه. وإضعف هذا الموقف لدى العرب ولفترة وجيزة شعور الانتماء وحرية الإرادة والاختيار، وبين لهم أن وجودهم بخيره وشره مرتبط ومتوقف على اللّه، وانهم لا يستطيعون حياله شيئا، وليس عليهم سوى الخضوع والطاعة للّه. وعرف العرب أيضا أنه الإله الجبار، إله السموات والأرض، وكانوا يظنون أنه بعيد جدا عنهم ولا يتدخل في شؤونهم، لا يراهم ولا يرونه ولذا قال القرآن إن اللّه اقرب لهم من « حبل الوريد ». وقام صراع الإسلام على إقناع العرب بأن اللّه يرى ويسمع كل ما يفعلون، وأن له اليد الطولى في كل ما يحدث في الكون بلا استثناء. لقد قلل الإسلام في الوقت ذاته من قيمة الوجود البشري وحياة الأفراد لأن وجود وحياة الأفراد في الدنيا وجود مؤقت، اما الوجود والحياة الحقيقيين فهما بعد الموت. الإسلام بهذه الطريقة استطاع أن ينتزع الكثير من العرب عن طريق سلب إرادتهم الفردية، واخضاعها لتبعية دينية، اي خضوع مطلق للّه. وهكذا أوحى الإسلام بأن اللّه خالق السموات والأرض، وهو الواحد الذي لا شريك له، ولذا يجب ان ينظر إلى سيادة الآلهة الأخرى على أنها باطلة غير شرعية؛ وبذلك بدأت عملية صراع ضد الواقع القائم ومعتقداته من أجل فرض سيادة اللّه على الأرض والبشر. إن عرض وتطور التوحيد بلغ حدا بحيث أن الآلهة الأخرى ليست فقط غير شرعية إلى جوار اللّه، بل انها كاذبة وباطلة، وهذا يعني أن الوعي الديني الإسلامي الجديد رفع مفهوم الإلوهية إلى مقياس إلهه الأسمى بحيث أن جميع الآلهة

الغريبة الأخرى لا تطابق بعد الآن هذا المفهوم، وأنها تهبط إلى مستوى قوى شريرة وأساطير مكافئة لإسم الله بشكل كاذب، وأن تحتال لنفسها على قداسة مناسبة. بلغ التوحيد منتهاه في الإسلام وأصبحت الإلوهية في عموميتها موضوع الإيمان والعقيدة الدينية. لهذا لا يقبل الله في الإسلام أن تمس وحدته مطلقاً، أو أن يشترك في صفات مع أي شيئ آخر، ولو وقع ذلك فهذا يعني تدمير الذات الإلهية والدين الذي قام عليه.

كان الإسلام كعقيدة دينية موجهاً أولا ضد تعددية الآلهة، وصارع الإسلام من أجل هدف جديد هو نبذ التعددية والإيمان بإله واحد. ومن خلال الصراع بين التوحيد والتعددية برز الله منتصراً على الآلهة الأخرى في النهاية، وظهر بأنه الأقوى والمفضل، ونزعت الكرامة الإلهية عن الآلهة الأخرى. واعيدت وحدة الإلهي، ولكن عمليا من اجل وعي الشعب. لم نعرف ديانة قديمة قبل الإسلام لم يكن فيها تعدد آلهة. لقد ثبتت الرسالة المحمدية في النهاية فكرة الله الواحد والذي كان ممثلا في هيئة صنم، وكان له بنين وبنات معروف منها اللات (أليلات قديما)(*)، العزى، ومناة، إن الإسلام أخرج الله من تعددية الآلهة؛ وقضى على الآلهة الأخرى، ولم يقبل إلها غيره وابعدت عنه الصفات البشرية وسواها. وغير الإسلام النظرة إلى الله، وهو بالطبع الشيئ الجديد الذي أتى به وهو أنه حرر الله أو الماهية الإلهية من الصفات البشرية وغيرها، والغى محايثته للحجارة، وجعل منه إلها غيبيا خارج القدرة البشرية ولا تعرف ماهيته. إن الديانات الجزرية قدمت وحدة الله إلى شعوبها ولكن على حساب محايثته التي تكون ممكنة في إله لا شخصي. الدين الإسلامي يقطع العلاقات و الروابط بين كثرة وتعددية

---

(*) لقد كان اسم الله قديما إيل؛ لقد ظهر إيل في الألف الرابع قبل الميلاد ولم تكن له هيئة صنم، بل إن العرب اعطته هذه الهيئة.

ووحدة الماهية لكي لا يضر بوحدة الماهية في هيئتها المجردة، ونقل الاشتغال السطحي الدائم للإلوهية في ظاهرتها الطبيعية إلى فعل فريد من نوعه، إلى خلق موضوع من الماضي. وكان هناك صراع في صلب الرسالة المحمدية ضد تعددية الآلهة من أجل الغائها والقضاء عليها. إن الدين الإسلامي فقد محتواه الحقيقي في التوسع، ونشأت عن هذه الحالة ديانات جديدة بقوانين وشرائع ظاهرها إسلامي وباطنها وثني أعجمي، لأن الموالي والمستعربين استبدلوا القوانين والشرائع الإسلامية بقوانين وشرائع حياتها الخاصة، وهذا يدل كما لو أن تعددية الآلهة عادت من جديد باسم الشرائع الإسلامية في الديانات المذهبية الأعجمية. يمارس الموالي الكثير من الطقوس والشرائع التي ورثوها بطريقة أو بأخرى، أو كانت موجودة في تلك الربوع من قبل، ولكنها لم تعد تسمى باسمها السابق، بل يطلق عليها إسما إسلاميا. عندما وصل الإسلام بصرامته التوحيدية التي لم تعرفها ديانة او شعب من قبل إلى الأراضي المغزوة تفاعلت نفوس الموالي بشكل خاص ضد الوحدة المجردة المؤذية لها، وحمت حقها النفسي الشعبي من الإساءة الموجهة لها عن طريق تدمير التوحيد بواسطة شعائر وطقوس وعبادات وتصورات لا تمت إلى روح الإسلام بشيئ. إن هذه الحقيقة موجودة في جميع الديانات المذهبية كما في المذهب الشيعي ونظرية الأئمة الإثني عشر، الذين يرون فيهم فعالية أساسية للإلوهية في اثني عشر شخصاً إلهياً، أي أنه تُحمل عليهم صفات إلهية. وبهذا يصبح الولاء والإيمان بإمامة أهل البيت هما الدين ذاته. إن الأئمة الإثني عشر اشخاص، لكنهم في الوقت ذاته أرواح للإلوهية اللاشخصية، ويمكن أن تُحمل صفاتهم الوهمية وظائف إلهية، كما تبرز جزئيا بدلا من وظائف الطبيعة وظائف غيبية صوفية، أخلاقية.

لقد جعلت الديانات المذهبية من الإسلام وشريعته العربية البسيطة لغزا

مبهما . وبما أن الموالي تعيشون حياتهم الأعجمية غير الإسلامية لذا فإنه من الصعب عليهم أولا تمثل نمط الحياة التي يدعو إليها الإسلام، والذي لا ينفصل عن الحياة العربية البدوية ومواريثها الجزرية؛ وعلى هذا الأساس بدأت حركة فكرية داخل تجمعات الموالي من أجل إرساء المعالم والقواعد الفكرية للحياة الدينية الجديدة. وبهذا بدأوا بإنشاء تصورات خاصة بهم عن الله، الإيمان، الأخلاق، القيم... إلخ. كل هذه جمعت وتم تمثلها عن طريق تصدير هذه الأفكار الجديدة وزرعها في رحم الإسلام، وبذلك تكون قد اكتسبت صورة دينية إسلامية تعددت واختلفت فيها مظاهر الدين وطقوس العبادة. ولذا يمكن القول إنه من الصعب أن ترد فكرة من أفكار الديانات المذهبية إلى الإسلام مباشرة. لقد صهرت الديانات المذهبية الأفكار الأعجمية تحت راية إسلامية في كل نسقي موحد مع بعض العناصر المحفوظة من الإسلام، وكذلك مع الأنظمة الفكرية المتطورة عن الثقافة من أجل استخلاص تأملات كونية عقلية تتمركز تدريجيا في المستويات الدنيا للوعي الشعبي، وهي المقدمات المناسبة والصالحة من أجل نشر وهيمنة حياة دينية جديدة عوضت عن الإسلام، وعرضت بدلا منه مفاهيم في حالة اختصار، وعقلت الديانة المذهبية على أنها الديانة الوحيدة المطلقة. وظهر جليا عدم صلاح الديانات المذهبية في جميع المسائل الفكرية والعقائدية، إلا أن مبادئها تصير مع ذلك مسألة حياة بالنسبة للنزعة الدينية لأنصارها عندما تدخل في وعيهم، وهذا يمهد لظهور نزعات طبيعية مادية لا دينية تشغل الفراغ الذي خلقته عقائد الديانات المذهبية الفارغة العقيمة. ويقع أمام أبصارنا كل يوم كما وقع في الماضي عندما اقصي الإسلام العربي من ميدان الحياة.

# أزمة الديانات المذهبية
# في العلوم الدينية (اللاهوت) المعاصرة

لقد تطرقت سابقاً إلى مسائل نظرية عامة تكشف عن أسباب الأزمات في الحضارات والثقافات. وأريد ايجازها مرة ثانية فهي تنحصر أولاً في تدمير العناصر التي قام عليها الدين أو الثقافة، وعدم ايقاف ومكافحة غزو الأفكار الغريبة. وهذا ما حصل للإسلام وللعرب. إن القارئ النقدي لما يسمى « بالتراث » القديم منه والحديث يستغرب من الدعاوى التي تنسب هذه الكتابات و التشريعات إلى العرب و الإسلام. من هم العرب اليوم ؟ وبعبارة أوضح هل يوجد عرب كعرب الجاهلية ؟ نعم يوجد ولكنهم قلة قليلة جدا بالقياس إلى الأقوام التي تسمي نفسها عربية (المستعربة). بالطبع إن هذه الطائفة من البشر لا تجد ضيرا كي تتسمى الناس باسماء، وان تنتحل هويات لا تمت لها بصلة، إن هذا أمر لا يزعجها. الشيئ الوحيد الذي يربطهم بالعرب و بالإسلام هو أنهم يتكلمون لهجة عربية، وهذا كاف لأن يكون الإنسان عربياً، وداعية للإسلام وللعروبة. إذا كان الموالي من الفرس تركوا إرثاً ثقافياً مكتوباً واجتهدوا فعلا في انشاء أفكار وقيم لأنفسهم وللدول التي خدموها، فماذا يقول اليوم من يسمون أنفسهم بالعرب ؟ هل انتجوا شيئا حقيقيا مهما كان صغيراً، لا بل حتى تافها ؟ الجواب : كلا. لقد قرأت إلى الآن اعدادا هائلة من الكتب التي طبعت حديثا وفي ميادين شتى في الفقه، السياسة، الفكر، دراسات دينية وتاريخية وهلمجرا، ولكن ما يلاحظ فيها هو السطحية و السرد المكرر لما كتب وشرع في العصور الوسيطة. يرى الإنسان كتبا مختلفة العناوين وفي ميادين مختلفة، ولكن عندما يبدأ في قراءتها يرى أنها متشابهة وتتكلم في نفس الموضوع، وتستخدم نفس المصادر، وما هي

بالتالي إلا اقتباسات وتعليقات على ما ذكرته المصادر القديمة. يسأل الإنسان نفسه ما الذي دفع هؤلاء إلى الكتابة ؟ الجواب مطامع تجارية وربح، لا سيما أن الحديث والكتابة عن الإسلام والدعاوى الفارغة باسمه امور مطلوبة لهذه الفترة. انها موجة كالشيوعية او القومية، وقد بدأت اليوم بوادر موجة الديمقراطية والثقافة الغربية التي ستكنس هؤلاء وديانتهم، وستحل بالإسلام انتكاسة جديدة على الرغم من أن ما يقال فيه وما يكتب عنه من الصعب ان يرد إلى الإسلام العربي، بل هو استعراض للفكر الذي شرعه الموالي. اليوم يندرج تحت كلمة عرب كل من تكلم العربية او لهجة عنها؛ لذا فإن هذه الأقوام الكثيرة التي تنسب نفسها للعرب لا يهمها في واقع الحال أصلها وانتمائها، لأنهم في واقع الحال لا يعرفون لهم انتماء عرقيا واضحا. طبعا إن هذا قد يبدو أمراً غير ذي شأن للوهلة الأولى عندما يتعلق الأمر بأصول الناس وحماية الدين والثقافة. الدين بالنسبة للمستعربة وكذلك الأعاجم قضية ايمان بالله لا غير ومن غير المهم لهم من يقدم لهم الدين وبأية صورة لأن ليس لهم من الدين سوى الإسم؛ أما فيما يختص بأعرافهم وعاداتهم وطقوسهم فإنها تبقى كما هي، وإن تغيرت بعض مظاهرها فإنها في جوهرها لم تمس. لذا فإن كل ما جرى في الماضي ويجري اليوم على ايدي الأعاجم والمستعربة موجه في صلبه ضد الإسلام، لأنها تنشأ عمليا عقائد موجهة ضد الإسلام والعرب (*).

لقد تطرقنا إلى المصادر التي ينهل منها اليوم للدعوة إلى الإسلام، وهي المصادر التي لم تثمر شيئا في الماضي واليوم. الإسلام بمفهومه العربي لم ينتصر في الماضي إلا عسكريا، ونزعة التوسع هذه وبهذه السرعة هي التي

(*) بالطبع ستتراجع قريبا الدعوة إلى الدين، وسنرى كيف ستكون حالة الأقوام المسلمة وموقفها من الدين بعد ذلك؛ وستظهر نزعات باسم العلم يوظف فيها الإرث الثقافي القديم لهم، ولكن هذه المرة من دون أن يسمى إسلاميا.

ابطلت عمله وشلت نشاطه وتأثيره الفكري والروحي والعقائدي »[18].

يتطرق الجميع إلى ما يسمى بكتب التراث التي يستمدون منها معلوماتهم عن الماضي والحاضر والمستقبل، وتنسب في الوقت ذاته إلى العرب، علما أن سوادها الأعظم كتبه الموالي من الفرس، ولا أعلم لم يعتبرونه عربيا. هل أن الكتب التي يكتبها الأعاجم من الفرس والباكستانيين والهنود وغيرهم، وإن كتبت بالعربية، يمكن ان تعتبر ثقافة عربية اسلامية ؟ بإيضاح اكبر، الكثير من الناس يدرسون في بلدان غير بلدانهم ويتعلمون ثقافة وعلم اهل البلاد، هل تعتبر كتاباتهم مصدراً لثقافة هذه البلدان، وهل تجدي الدراسات التي يقدمها هولاء الأشخاص في الكشف عن جوهر الثقافة الغربية التي درسوها ؟ الجواب هو أن كان الدارس يتقيد بالنصوص والشروح المعروضة من قبل القوم انفسهم فإن عمله سوف لن يكون أكثر من تعليق وشروح سطحية لا تأتي بجديد، انها وصف لا أكثر، وإذا حاول دراسة بنيتها وماهيتها الخاصة، ولو ان هذا الأمر متعذر نسبيا، إلا انه سوف يقحم بشكل واع أو لا واع الجانب الذاتي والتصورات التي يحملها من بيئته، أي انه سيخضع الدين او الثقافة إلى معايير ديانته او ثقافته القومية المحلية.

(١٨) الجاحظ يعلق على هذا الأمر وان لم يكن بوضوح تام إلا انه مع ذلك بين الفرق بين العربي وغير العربي في الدين، وهو امر في غاية الأهمية إذ قال: « .. إلا ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة واجتهاد وخلوة ومشورة ومعاونة وعن طول تفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عن آخرهم، (ماذا لو كانت الروايات باطلة، او دست افكار من ثقافات عريبة اعطيت صورة اسلامية) . وكل شيئ عند العرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة ... وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم التحم بصدورهم واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قص ولا تحفظ ولا طلب ». وهذا يعني ان حقائق الدين من حيثيات نفوسهم، وهي في الوقت ذاته طريقة حياتهم الخاصة؛ هذا هو الشيئ الأكثر أهمية في الدين والثقافة.

عندئذ سيبرز تناقض بين المجرد ألا وهو مفاهيم الدين او الثقافة، والعيني أي المحتوى الذي قدم لها؛ وهذا يعني أنه استخدم مفاهيم غريبة كمخططات (كوعاء) صب فيها مادته الخاصة المحلية، وهنا يظهر التناقض بين الصورة والمحتوى. هذا هو ما حصل في الإسلام وما فعلته الكتابات الغريبة في التصور الديني العربي الذي اجتثت جذوره، ولم يعد صالحا للتطبيق والعمل.

نقرأ في كتب الفقه والتاريخ والفلسفة والأدب وغيرها كلمة إسلام، وتاريخ اسلامي وفقه اسلامي. لكننا لو نسأل أنفسنا ما هو التاريخ، وما الذي يراد بتاريخ شعب أو أمة ؟ هل أن التاريخ العباسي على سبيل المثال تاريخ عربي، وهل أن المنتج في هذا التاريخ يمكن أن ينسب إلى العرب ؟ إذا كان الأمر كذلك كما يشاع في الكتب قديمها وحديثها، لمَ لم يستفد أي شعب من هذا التراث، ولمَ لم تتواصل الروح العلمية التي وجدت طريقها إلى نفوس وعقول البعض ؟ لمَ لم يأخذ المصري أو التركي من هذه الثقافة وهذا العلم ويطوره طبقا لقدراته وامكانياته الخاصة ؟ المستفيد الأول هو العالم الغربي المسيحي. أين يكمن السبب ؟ السبب يكمن في أمور شتى منها أن السواء الأعظم ممن يسمون بالعرب في الماضي ما كانوا كذلك بل تعربوا بالدريج وفي أزمان متأخرة بدليل أن أغلب البلدان التي تحسب على العرب ليست عربية، ولم تشارك في الدين والثقافة والسياسة، كما أنها لا تعرف لها انتماءً عرقيا واضحا. من غير المعقول انكار أن منطقة الشام ومصر والشمال الإفريقي مستعمرات رومانية. حيث تجمعت فيها كل الأجناس والأقوام المعروفة في تلك الأزمان؛ وهكذا بقي الدين غريبا عنها، حيث أنهم يعتنقون دائما ديانة الغازي الجديد، وهو ما دفع بابن خلدون إلى أن يقول « إن الناس على دين ملوكهم ». إن هذا يصدق على هذه الأقوام، ولا يصدق على العرب إلا بعد أن فقدوا اصالتهم واختلطوا بأقوام وشعوب مختلفة حيث صاغت

انسابها وفقدت لسانها العربي. إن تاريخ أمة هو تفتح وتطور روح هذه الأمة، بمعنى أن الشعب يجب أن يحافظ على نقائه العرقي إذا أراد أن يعيش وأن تعيش ثقافته وديانته معه. لكن ما حصل في الإسلام هو ا لعكس تماما حيث لم تمض اكثر من ثلاثين عاما حتى تغيرت معالم الحياة الدينية والاجتماعية، وقد عاش أبناء الصحابة حياة غير حياة والديهم؛ إن سوادهم الأعظم أبناء أمات جلبت من البقاع المغزوة، وبهذا فقدوا صرامة البداوة وأصبحت الصلة بالدين منفعة اقتصادية أكثر منه إيمان ديني. لا يمكننا الحديث عن تاريخ اسلامي حيث أن أحداث التاريخ لا تمثل تفتحا ولا استمرارية للروح العربية، بل انه تاريخ متقطع تمثله في كل مرة قوة وقومية جديد لها من هذا غايات ومصالح قومية ضيقة وليس خدمة الدين او المسلمين، بل بدافع السيطرة والسيادة. لذا فإنه مع كل فترة حكم تظهر مطالب دينية وسياسية جديدة تضع أحيانا تاريخ المراحل السابقة موضع الخصومة والعداء، أي أنها تحارب كل ما انتجته المرحلة السابقة بحيث تدمر أنظمة كاملة وتندثر شعوب كاملة تحت دعوى الكفر والزندقة. عمليا انتهى الإسلام كعقيدة بالمعنى المحمدي منذ بداية الفتوحات، التي فتحت الباب واسعا للغزو الثقافي و الديني باسم الإسلام واضاع العرب بذلك دينهم ووجودهم. منذ ذلك الزمان تتكلم الناس عن الدين والنبوة والصحابة وما يرتبط بها من قيم واعراف وطقوس وعبادات، وعندما يسأل الإنسان متى وأين وجدت هذه القيم وهذه الأعراف والطقوس طريقها إلى الحياة بعد ان خرجت من البيئة العربية كيف يمكن تسمية التشريعات التي سنت آنذاك اسلامية رغم تناقضها فيما بينها وعدم تأثيرها في الحياة العامة، كما أن كل اتجاه طرح الآراء التي تخدم مصالحه وانتماءاته العرفية.

إن من غرائب الأمور أن يعتبر « الفقه الإسلامي إنتاج عربي محض » وينكر في الوقت ذاته تأثير قانون الحضارة الرومانية ونظام الإدارة البيزنطي

اللذين حكم بهما الرومـان مستعمراتهم لعـــدة قرون. لم الإصرار عـلى ان « الفقه الإسلامي » عربي خالص علما أن مشرعيه ليسوا من العرب. من اين عرف أبو حنيفة المعلم الأول لجميع الديانات الذهبية أعراف واخلاق العرب وهو ليس منهم. إن أول شيئ عمله هو التخلي عن التاريخ العربي والنظر في الأمور الدينية من منظار العقل المجرد أو ما يطلق عليه « بالرأي ». صحيح أن الأفكار والقيم في صورتها البدائية الأولى لا يمكن العمل بها من قبل الغرباء إلا بعد أن تعدل تكيف لمعايير حياتهم الثقافية الخاصة. إن هذا يصدق على أبي حنيفة وعلى الشافعي وعلى ابن حنبل وعلى الزمخشري، وكل من لا يعرف له أصلا عربيا. إن أي تفسير لأية قضية لابد أن يشترك فيها العنصر الذاتي، النفسي مهما حاول الشخص بشكل واع تفادي هذا الأمر. إن هذا هو السبب الذي يبين الاختلاف بين هذه المذاهب بحيث أنها لا تتفق فيما بينها على أي حكم شرعي، بمعنى أنها تناقض بعضها في كل شيئ، وعندما ترد هذه الأحكام إلى القرآن وما يعيشه العرب فإنها تناقض القرآن والحياة العربية في كل شيئ، ومع ذلك يطلق عليها المستعربة والغرباء اسم « الفقه الإسلامي » أو « الدين الإسلامي ». لقد كان الفرض الديني عرفا عربيا لا يحتاج العربي فيه إلى اجتهاد بل يحكم عليه بما يعيشه في حياته اليومية. لكن ما أن سيطر الغرباء على مقاليد الدين والدولة حتى ظهرت الحاجة إلى شرع ينظم العلاقات في نظام الدولة الجديدة؛ وبما أن القائمين عليها ليسوا من العرب، ولا يعرفون طقوس العرب لذا لابد لهم من شرع يفهمونه ويعملون بمقتضاه، ويؤمنون بالوضع الديني والإجتماعي. لذا لكي يظهروا للآخرين التزامهم بالدين والعمل وفق الشرع الديني فقد سنوا قوانين غاية في التعقيد من أجل استخلاص الأحكام الشرعية في الزواج

والطلاق والميراث والحلال والحرام وغيرها، والتي كان يحكم بها العرب على سجيتهم لأنها أعرافهم، والآن صار الناس بحاجة إلى فقيه يبين لهم الحق من الباطل، ولهذا شرعوا ما يسمى بالفقه الذي ابتدأه من الموالي المعروف بأبي حنيفة، الذي يحتاج الحكم الشرعي عنده إلى الآتي: « القرآن، السنة، الاستحسان والقياس ». لقد جمدت الحياة في قواعد من الصعب تطبيقها في الحياة اليومية المتغيرة والمتعددة المظاهر. ومن لم يعمل بهذا الفقه فإنه مارق على الإسلام. لو سأل المرء أعرابيا قديما وحديثا كيف تتزوج وكيف تطلق سيجيب في الحال من دون حاجة إلى القياس أو الاستحسان أو السنة أو القرآن، لأن السنة والقرآن هما سلوك العرب وأعرافهم التي ثبتها الوحي على أنها وصايا إلهية. لقد رسمت معالم الحياة الدينية على هذا النحو، وتعلم على يديه كل من نعرفهم « بالأئمة » بشكل مباشر او غير مباشر، لا سيما أن تشريعات أبي حنيفة هي الأساس الذي قامت عليه جميع تشريعات الديانات المذهبية الأخرى. إن القياس أمر مختلف فيه حيث يفسر البعض مفهوم القياس على أنه « ما لم يرد فيه نص ولا خبر على « مثال سابق » يضبطه نص او خبر او اجماع ». السؤال لمَ لم يستخدم هذا المصطلح لدى العرب من قبل؛ ألم يكونوا بحاجة لحل المشاكل إذا كان مصدره اللغة العربية حقا. إن مصطلح قياس هنا لا يماثل معنى التقدير (المقياس)، بل إنه مصطلح قياس (Syllogism) هو الاسم الذي يطلق على المنطق الأرسطي الذي يتألف من مقدمتين ونتيجة، ولذا يوضع في أساس الفقه المسمى بالسني. في هذا الصدد يقول الشافعي: « ليس لأحد أبدا أن يقول في شيئ حلّ ولا حرّم إلا من جهة العلم. وجهة العلم: الخبر في الكتاب أو السنة، أو الإجماع أو القياس ». والقياس حسب فهم الشافعي هو « ما طلب بالدلائل على موافقة الخبر المتقدم من الكتاب والسنة » و « الموافقة - موافقة الفرع للأصل - تكون

أما باشتراكهما في معنى واحد أو بوجود شبه بينهما ». إن فهم الشافعي يطابق الفهم الأرسطي بصدد طبيعة القياس ولا يرد إلى البيان أو النحو. إن منطق القياس الأرسطي يتألف من مقدمتين ونتيجة، المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى. وعلاقة المقدمة الصغرى بالمقدمة الكبرى هي علاقة جزء بكل، وما يصدق على مجموع الأجزاء بالضرورة، معنى ذلك أن النتيجة عمليا متضمنة في المقدمة الكبرى. وفي القياس تكون النتيجة صحيحة وضرورية عندما تمتلك المقدمات صيغة قانون مبرهن، وإلا فإنها تكون احتمالية او حتى باطلة.

مثـــال:

كل الفلزات تتمدد بالحرارة

الحديد فلز

بعد حذف الحد المشترك فلز تكون النتيجة : يتمدد بالحرارة. النتيجة صحيحة لأن تمدد المعادن بالحرارة قانون مبرهن عليه ولا شك فيه. لكن عندما تكون علاقة المقدمتين ليست علاقة كل بجزء فإن النتيجة احتمالية.

مثـــال آخر :

الألمان شعب أوروبي

هذا إنسان أوروبي

بعد حذف الحد المشترك أوروبي تكون النتيجة: هذا انسان ألماني. كما نعلم أن هناك شعوبا كثيرة تعيش في أوروبا ليست ألمانية. لذا فإن النتيجة احتمالية قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة لأن علاقة المقدمتين ببعض ليست علاقة كل بجزء. من الممكن الحصول على نتيجة خاطئة من مقدمتين صحيحتين.

مثـــال:

الذئب يأكل الغنم

الغنم تأكل العشب

بعد حذف الحد المشترك غنم تكون النتيجة: الذئب يأكل العشب وهذا غير صحيح، علما أن المقدمتين صحيحتان .

أما أن نطبق القياس على الآيات القرآنية فهذا امر صعب جدا لأنه نادرا ما تتواجد في القرآن مقدمات من هذا القبيل، وإن وجدت فإنها قليلة ونادرة جدا منها مثلا:

كل مسكر حرام

النبيذ شراب مسكر

بعد حذف الحد المشترك « مسكر » نحصل على النتيجة التالية: النبيذ حرام. لكن كم من قضية في القرآن تمتلك مثل هذه العلاقة - علاقة كل بجزء أو عام بخاص.

وإذا عدنا إلى الأصول الفقهية الأخرى مثل الاستحسان الذي قال به أبو حنيفة، والذي انكره عليه تلميذه ابن مالك مستبدلاً إياه بالإجماع؛ وقد سار الشافعي على نهج معلمه ابن مالك وأنكر الاستحسان الذي يعمل به أصحاب الرأي، وأقر بعدم جوازه لأنه « لو جاز تعطيل القياس جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان، وإن القول بغير خبر ولا قياس لغير جائز ». كما أن الشافعي أنكر على ابن مالك « المصالح المرسلة » أو « الاستصلاح » لأنه لا يقوم على « مثال سابق ». صار القياس القضية الأساسية التي تعالج بها الأفكار

القيمة المعنى الإسلامية والسنة لدى الشافعي. يلاحظ الوعي النقدي في الحال التباس وتضارب هذا الفقه الذي لا يمكن الإعتماد عليه من أجل استنتاج حكم شرعي صحيح. إن أصول وقواعد هذا الفقه المذكورة غير واضحة بذاتها. لذا فإن أصحاب هذه الديانات المذهبية لم يتفقوا فيما بينهم على حكم شرعي في أية قضية، تناقضوا وحرم كل منهم فقه الأخر. ومع ذلك يطلق الأعاجم والمستعربة على هذا المنتوج اسم فقه اسلامي. لوكان الحال هكذا في زمن الدعوة والصحابة فهل كان للإسلام أن يسجل نجاحاً وسط العرب بهذه السرعة ؟ لمَ لم تظهر مثل هذه التناقضات والخصومات وسط العرب بعد موت الرسول (ص)، وحتى في العصر الأموي لم يعرف العرب صراعا عقائديا في أمور الدين، بل كانت الخلافات محصورة في السياسة. ليس هناك من جواب آخر على ذلك سوى أن الموالي انشأوا لهم صوراً دينية باسم الإسلام تبتعد كثيراً أو قليلاً عن عرف العرب وقيمهم وطقوسهم، وهو مصدر التناقض والخلافات داخل الديانات المذهبية، لأنها لا تحمل الروح العربية الإسلامية.

يتناول البعض بالكتابة والتعليق ما يسمى بالفقه و الشريعة والسنة وكأنها شيئ استنتج من القرآن والسنة والحياة العربية علما أن المصدر الأول لكل هذا هو أبو حنيفة، أما إذا عدل هذا الفقه وأضيف إليه شيئ جديد فإنه يبقى في جوهره مشبعاً بروح المشرع الأول أبي حنيفة. لقد صاغ بذلك منهجا مجرداً لا يصدق على أي واقع عملي. ورسم مخططاً يمكنه من خلاله تحديد مسار الأشياء ورسم معالمه. لكن كيف يمكن تطبيق منهج مجرد هكذا وبلا تعديل على وقائع الحياة الجزئية المتغيرة ؟ عندما يطبق منهج كهذا على الوقائع الحياتية لا بد من حصول الأمر الآتي وهو، إما أن يختزل المنهج إلى حد الواقعة ويفقد بذلك عموميته وخصوصيته المجردة ويتحول إلى اسلوب

وصفي عديم المعنى، أو أنه يرفع الواقعة الحسية التجريبية إلى مستوى مفهوم مجرد، وتفقد بذلك صلتها وارتباطها بالواقع و بالبيئة التي أوجدتها. في كلتا الحالتين يكون الحكم الصادر إما باطل وإما سطحي لا يلم بأبعاد الواقعة تماما؛ عن هذا ينشأ الاختلاف و التناقض في الأحكام، وهو مالا يعرفه العرب لا في زمن النبوة ولا في العصر الأموي اللذين لم يكن فيهما سلطة ونفوذ للموالي الغرباء، لا في الدين ولا في السياسة. سواء انطلق هذا المنهج الفقهي من النقل، أي ما عاشه السلف في الماضي كما يدعون، ويصبح النقل هو المادة التي على العقل أن يعمل بها وأن « ينطق بما يراد منه » او العكس، فإن شيئا لن يتغير في هذه الحالة. إن النقل عن السلف عملية تجريدية لوقائع حياة تمت في الماضي تخص العرب دون سواهم، ومن الصعب أن ينتج منها واقع عيني، أو يعاد بها انتاج واقع غريب، لأنه عن الفكر المجرد لا تصدر إلا أفكار مجردة وليس الواقع وقيمه. إن الواحد منهم أخذ عن الآخر مع ادخال بعض التعديلات أو رفض أو قاعدة ما، إلا ان الجوهر الأساسي للتشريع بقي في صلبه حنفيا. إن جميع المناقشات والجدل بصدد الدين لم ينبع عن رغبة في معرفة الدين حقا أو الدفاع عنه، بل الدفاع عن مصالح التجمعات الجديدة في « المجتمع الإسلامي » الذي هيمن عليه الموالي، ومن ثم الأقوام المغولية. لذا فإن من يطّلع على طبيعة الأطروحات والنقاشات التي كانت دائرة آنذاك لا يرى فيها الدين، وإن كان الحديث فيها طوال الوقت عن الأمور الدينية، إلا انها تكشف عن خلاء حياتهم من الدين . يكفر البعض هذه الجماعة أو تلك ويدخل في حوار عقيم معها بصدد القيم والمبادئ التي تعرضها خلال تصوراتها الدينية. لذا يأتي الشخص ويأخذ بالقواعد المنهجية لأحد الذين يتبعهم، ويحورها بطريقة أو بأخرى لكي تستجيب لفهمه ولقدراته الفكرية ولتجاربه وثقافته ومعايشته

الخاصة. طبعا الشافعي لا يقبل بالرأي كلية الذي تقول به الحنفية، ويميل إلى أهل الحديث الممثلين في فقه ابن مالك، إلا أنه هو وابن مالك يتبعان المنهج المجرد الذي وضعه أبو حنيفة. إن مثل هذا الأمر يلاحظ في جميع المدارس الفكرية حيث أن أنصار مذهب أو فلسفة ما ينحرفون في هذه المسألة أو تلك عن تعاليم المعلم. إننا نلاحظ هنا أننا أمام منهج فكري غايته ليست اثبات صحة وقائع الدين، وانما الدفاع عن نفسه ضد خصومه. كل مشرّع يحاول أن يرد تعاليمه إلى القرآن والسنة مستخدماً هذين الأخيرين « تمهيداً ومدخلا »، والمقصود بذلك واجهة لكي تفهم دعواه على أنها مطابقة للقرآن والسنة. لقد ظهرت بالطبع حركات فكرية كثيرة وبأسماء مختلفة كل منها يهدف إلى غاية محددة دافعها الأول محاربة خصومها عن طريق تشريعات ميتة بلا روح و غير قابلة للتعديل. إن الكتابات الحديثة في هذه الأمور عديمة القيمة والأهمية لأنها سرد سطحي تافه لما عمله هؤلاء في العصر الوسيط، ولأنها تتحزب عن جهل أو تزمت لهذا الدين او ذاك لأنه نشأ عليه في بلاده، وأصبح جزءاً من مكونات وعيهم القومي الإقليمي. لذا تراهم يمجدون هذا وذاك من دون معرفة حقيقية بدعواهم لا لشيئ إلا لأنهم سمعوا عنهم إيجابيا في بلدانهم .

بعد انقسام الناس إلى ملل وطوائف اطلق على كل منها نفسه اسما يدل على ديانته وانتمائه العرقي، وبدأت تتجلى بوادر تيارات دينية تمثل في الوقت ذاته اتجاها سياسياً، وتعادي وتنفصل بذلك قطعيا عن كل ما هو مخالف لها . كل ديانة مذهبية تدافع عن نفسها ضد خصومها وتعتمد على الآخرين في بناء معتقدها الديني. لذا ترى مثلا من اسموا انفسهم بأهل السنة والجماعة « اعتمدوا المنهج والمبادئ التي شرعتها الديانة الحنفية مع

تعديلات طفيفة حسب مزاج وتجربة ومعايشات صاحب المذهب. ونشأت مذاهب هي في واقع الحال ليست ديانة خاصة، وإنما ردود وإجابات على افكار الخصم. إن ما يشاع من تزمت وكراهية تجاه الأخرين قديما وحديثا هي آراء وتصورات أحمد ابن حنبل(*) وأبي الحسن الأشعري الذي تمثل تصوراته امتدادا لآراء أحمد بن حنبل التي كانت موجهة ضد التيارات الأخرى الشيعة والمعتزلة. أما الأشاعرة فلم يكونوا ذوي شأن في أي أمر سوى أن كتاباتهم كانت ردودا مناقضة للفكر المعتزلي لا غير. إذا كان المعتزلي يقول بخلق القرآن فإن الأشعري يقول بأزليته، وإذا نفى المعتزلي الصفات عن اللّه بأنه يقرّ ما ذكر بالقرآن من صفات يجب أن تنسب وأن تفهم على أنها صفات اللّه ذاته، وإذا أقر المعتزلة قانون السببية انكره الأشاعرة كلية ولم يقروا إلا بالإدارة الإلهية، كما عملوا ضد مبدأ المعتزلة الذي يقدم العقل على النقل بحيث أنهم قدموا النقل على العقل. إن الأشعري « تعصّب لمذهب ابن حنبل الذي كان يقف، في الطرف المناهض للمعتزلة ». ومن هنا فإن القضية لم تعد الإخلاص للدين والكشف عن معان جديدة، بل هي صراع طائفي شعوبي. لقد أججت الديانات المذهبية الصراع والتناحر الداخلي بين الأقوام التي أدخلت في الإسلام حتى اليوم. فأخذ الأشاعرة « بالمقدمات العقلية » التي يقرها المعتزلة إلا أنهم اعتبروها غير « يقينية » وغير ضرورية، علما أن المقدمات العقلية ضرورية ويقينية لأنها مفاهيم عامة؛ وهذه المفاهيم هي التي تستخدم في مقدمات القياس، ذلك لأن المقدمة تتألف من مفهومين أو أكثر، لذا يجب أن يكون المفهوم يقينيا وضروريا وإلا فإنه ليس مفهوما. من دون هذه المفاهيم يبطل القياس المبدأ الأساسي في الفقه

(*) عندما كان يسأل أحمد بن حنبل في قضية دينية فإنه يجيب في الغالب لست رجل دين بل جامع حديث، ومع ذلك هناك من يؤمن بأنه صاحب مذهب ويتبعون نهجه.

السني. بعد أن يطلع الإنسان على أمور كهذه في تشريعات هؤلاء يرجع أنصارهم ومواليهم للحديث ثانية عن فقه السنة وأهل البيان، وأهل « العرفان البياني » على أساس أنهم لم يعملوا إلا بالقرآن و السنة، وهم حفظة الإسلام من التحريف والبدع. يأخذ هذا الإتجاه مدى اوسع في التطور اللاحق لهذا المنهج الفكري الذي يقوم على منطق القياس في فكر أحد أكبر العقول التي تواصل نهج الأشعري ألا وهو أبو حامد الغزالي، الذي طبق المنطق الأرسطي كمنهج لتحليل ودراسة الدين وأصوله. وبذلك تصبح قواعد المنطق الصوري مبادئ للشرع الديني الإسلامي، ومع ذلك يتكلم أنصار هذه الديانات المذهبية عن التزامهم بالقرآن والسنة. لو يمكن للإنسان تصور الفوارق والاختلافات التي يحدثها المنهج في طبيعة الواقعة التي يخضعها للتحليل والدراسة فإن هذا يعني أن الواقعة ستكتسب سمات المنهج. ولو نظرنا إلى تحليل نفس الظاهرة من وجهة نظر المنهج التجريبي العقلاني فإننا سنرى نتائج التحليل مختلفة تماما، كما ونوعا، ليس هذا فقط، بل إن النتائج ستكون متناقضة، ذلك لأن الواقعة في المنهج التجريبي تُحلل إلى عناصرها ومكوناتها الأساسية، ولهذا فإن الفكر سيبقى في دائرة الميدان التجريبي ولا يستطيع تخطيها، وسينطلق المنهج العقلاني من الوظيفة العقلية التي يمكننا أن ندخل صورتها في وعينا على هيئة مفهوم خالص. وينجم عن هذا أن المنهجين سيخلقان تصورين مختلفين في الموضوع يصلان إلى حد التناقض. هذا ما حصل عمليا في ما يسمى بالفقه السني الذي تناقض فيما بينه في كل شيئ، والسبب في ذلك يعود إلى المنهج الغريب، ألا وهو منهج القياس المطبق على القرآن والسنة بكل اختلافاته بين المشرعين، لهذا ظهرت التناقضات بين أصحاب ما يسمى بأئمة الديانات المذهبية التي لا يمكن ردها إلى القرآن والسنة، وإنما إلى المناهج الفكرية العربية التي أدخلت في معالجة ودراسة

الظواهر اللغوية والدينية الإسلامية. حنطت هذه المناهج اللغة العربية والدين بحيث أن الأعرابي الذي كان كل شيئ واضح له سواء في الدين أو اللغة لم يعد يفهم المطلوب من أقوال وأفكار الفقهاء أو النحاة، وبوجيز العبارة « المناطقة »، ولذا ردّ الأعراب عليهم: « إنكم تتكلمون في كلامنا بكلام ليس من كلامنا ». إن نتائج هذه الحالة قائمة إلى يومنا هذا حتى أن المرء عندما يسمع دعاة الدين ورجاله يظن أنه موجود في عالم غير هذا العالم، لأن التصورات والأحكام البالية التي تقدم باسم الإسلام وسنة الرسول من الصعب تماما تمثلها وتقدير أهميتها وصلاحيتها بالنسبة لهذا العصر؛ إنها باختصار عالم فكري عجيب لا مثيل له إلا في القصص الأسطورية والخرافية. إن هذا الأمر طبيعي لأن هذا الفكر لا ينتمي إلى الدين مباشرة ولا إلى الحياة العربية، وإنما عكس طبيعة القوى والصراعات التي كانت مستقرة في رحم الدولة العباسية بسبب الصراعات العرقية التي اتخذت شيئا فشيئا طابعا دينيا.

تتسابق الطوائف اليوم بشكل خاص للدفاع عن دياناتها المذهبية التي نشأت في العصر الوسيط على أيدي الموالي بشكل خاص، والتي لم تكن يوماً متجانسة أو متفقة مع بعضها في شيئ. لذا فإن كلمة أهل السنة ليست ذات معنى طبيعي على الإطلاق، وإنما هي مصطلح يبين وقوف هذه الطوائف في الجهة الأخرى من الشيعة. يعرف الكل اليوم عمق التناقضات الداخلية في هذه الديانات المذهبية وتناقضاتها فيما بينها، ولا يكترث الكثير بهذا الأمر بسبب أن المستعربة اليوم لم يعرفوا شيئا غير ما ألفوه في أوطانهم والذي لا يتعدى حدود الدعاية التي يسمعونها من ألسن دعاتهم، والأمر الآخر هو أنهم غير معنيين بما يقال أو بالقائل على أساس أن المسلم أيا كان بإمكانه أن يقول في الدين ما يشاء، فإن أصاب، كما يقولون، فله أجران، وإن

أخطأ فله أجر على إساس أنه اجتهد وأخطأ. الغريب في الأمر هو أن الفقه لعبة يصيب فيها المرء أو يخطأ، وكأن المشرّع غير مسؤول في حالة الخطأ؛ إذا كان يخطأ ويصيب فمن سيتحقق من الصح والخطأ في الحكم الشرعي إذا كان سلطانه لا يمس، وإنه المرجع الديني في هذه الأمور ؟ لاحظنا أن المناهج تستخدم تحت ضغط الحاجة مبادئ متناقضة، أي أنها تستخدم بعض المبادئ التي تقف ضدها. كان الصراع إذن صراع معتقدات واتجاهات فكرية تعتمد على أسس وخلفيات فكرية مختلفة تنتج عنها كل هذه التناقضات والاختلافات الضرورية التي لا محيد عنها. ويحاول البعض أن يرد الفضل في نشوء الفقه إلى علماء اللغة والنحو فالنحو في اللغة يكشف من دون شك عن القواعد المنطقية الكامنة في اللغة والتي يمكن أن تعتمد في فهم النصوص و المعاني، لكن اللغة ذاتها لا تكفي عندما يتعلق الأمر ببناء أنساق فكرية او فلسفية كما حصل في الفقه الإسلامي. إن ما حصل في الفقه الإسلامي هو إذن شيئ آخر غير الإسلام، إنه علم ديني (لاهوت) باسم الإسلام يمكن أن يكتب خلافا عن الإسلام بإية لغة كانت. نعم من الضروري أولا الإلمام باللغة من أجل فهم النص القرآني، لكن الشرح والتفسير لهذا النص يتجاوز حدود اللغة ويدخل في عالم التحليل النظري الذي يتطلب أدوات أعقد وأوسع من اللغة، ولهذا أنشأ أبو حنيفة منهجه الفكري الذي يقوم في صلبه على المبادئ التي تبنتها جميع المذاهب الأخرى مع تغييرات طفيفة في هذا المجال أو ذاك. إن الشافعي يتكم عن الدين والقرآن واضعا نصب عينية العرب على أن اللّه خاطب « بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها: اتساع لسانها، وإن فطرته أن يخاطب بالشيئ منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام، ويدخله الخاص فيستدل بهذا على

بعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره... » في حين أننا اليوم لا نسمع كلمة عرب ولا لغة عربية، بل « أهل السنة والجماعة »، و « الشيعة » و « المتصوفة »...إلخ وجلها يجهل العربية ولا يستطيع أن يبني جملة صحيحة ولا حتى نطق الحروف بلفظها الصحيح، ومع ذلك تدعي هذه الأمية انها تلتزم بالقرآن والسنة والشريعة الدينية مع جهلها شبه التام باللغة العربية . أكد القدماء على هذه الناحية بحيث ربط الشافعي الدين ومعنى النص الديني باللغة العربية. ولو نظرنا في هذا الأمر عن كثب وتجاوزنا طرح الشافعي بخصوص أساليب اللغة العربية في التعبير والإفصاح إلى المعنى الذي يؤكد على دور اللغة العربية في العقيدة الدينية الإسلامية إنطلاقا من قوله تعالى: « إنا أنزلناه قرآنا عربيا » لنعرف معنى هذا القول الذي لا يفسر معنى الآيات بل إن عليه يتوقف مصير الدين ذاته. إن النص القرآني المذكور لا يراد به اللغة العربية وحدها، فالمعرفة باللغة العربية شرط أولي أساسي للكلام في الدين إلا أن القضية تتجاوز حدود اللغة لكي ترسم معالم الحياة الدينية في الماضي كما في الحاضر. إن هذه الآية تريد أن تعلمنا بأن الأعاجم والمستعربة لا يمكنهم حمل الإسلام في تاريخيته لأنه ظاهرة النفس العربية. إن الغريب لا يمكن أن يعيش الدين في صورته البدائية، بل يُختزل لديهم مع مرور الزمن إلى صور دينية، تاريخية تحمل السمات القومية للأقوام التي تدين بها. إن هذا في واقع الحال هو غزو الأفكار الغريبة للإسلام، وهذا يعني أن الغرباء يستبدلون قوانين وشريعة العرب الدينية بقوانين وشرائع حياتهم الخاصة، أو يخضعونها إلى معايير حياتهم الثقافية، أي يجعلون من الفكرة الدينية صورة بلا محتوى مطابقا لها، بل يعطونها محتوى قوميا خاصا بهم. اللغة ليست بناء منطقيا للتعبير والفهم فقط، وإنما ينعكس فيها

التكوين النفسي، الأخلاقي القيم والعادات، التقاليد، التأملات الكونية، وغيرها. لذا فإن لغة قوم ليست نحوا ووسيلة للتفاهم بل كياناً عضوياً حياً يحمل كل ما أنتجته الأمة عبر تاريخها. من الممكن أن يتعلم الإنسان لغة اجنبية ويستعين دائما بلغته من أجل أن يتبين معاني الكلمات والنحو في اللغة الغريبة، أما جوهر اللغة والخلفية التي أنتجتها على هذا النحو فيبقيان خافيين على الغريب، ولذا تبقى معرفته باللغة ناقصة.

إن تشريعات الديانات المذهبية قد تسببت في اضطراب وإرباك الحياة الدينية والاجتماعية من خلال الحلال والحرام، وكل هذا يتم باسم القرآن والسنة. كيف يمكن لرجل متدين ومتعلم أن يقبل من هؤلاء إنكار مبدأ السببية والغائية، ما الذي يبقى عندها وكيف سيتسنى له أن يبقى على قناعاته، وأن لا ينفصل عن هذه العقائد. لحسن حظ هذه الديانات أن من يسمون بالفئة المتعلمة لم يكونوا أميين في الدين في ميادين تعليمهم ودراستهم. لذا ترى شخصا يحمل شهادة دكتوراة في العلوم الطبيعية أو الهندسية ويستمع لجاهل قرأ في إحدى المدارس الدينية، أو حتى لم يقرأ كي يربي نفسه ويتعلم الدين على يديه. أين يكمن هذا الأمر ؟ إن السواد الأعظم من الأقوام الإسلامية لا تعرف لها تاريخا خاصا بها، وإن عرفت بعض البلدان في الماضي تاريخا فإنه بسبب الاختلاط وهجرات الشعوب انقرضت الكثير من هذه الشعوب، أو ضاعت أنسابها بسبب الاختلاط، ولهذا مات التاريخ القديم حيث نشأت أقوام جديدة لا تعرف تاريخا خاصا بها، وهذا ما أدى إلى قصور مداركهم العقلية. إن الذي لا يعرف له تاريخا خاصا به لا يمتلك عقلا بل « غريزة عقل »، لأن العقل هو روح تطورت في التاريخ - روح واعية بذاتها، إن التاريخ هو تاريخ روح القوم. إن الملاحظ هو تدني المدارك العقلية للأقوام التي اعتنقت الديانة الإسلامية خاصة في العصر الحاضر. يمتلك الإنسان

القابلية على التعلم، يتساوى بهذا مع الحيوانات الأخرى التي تتعلم من أبويها وأفراد النوع ما هو ضروري لها في حياتها من أجل البقاء وتطوير كفاءاتها لتأمين وسائل العيش. لهذا نلاحظ عدم كفاءة الأقوام الإسلامية في جميع ميادين الحياة لأنها لم تعرف تاريخا ثقافيا غنيا، ولم تتطور لها ملكة عقلية، لأنها بلا تاريخ، ولأن العقل ينشأ ويتطور في التاريخ. لذا فإن المعرفة بالدين ليست قضية لغوية فقط وإنما قضية تراث يكون من حيثيات النفس. لذا فإن الثقافة، الأخلاق، الدين، وغيرها إذا لم تكن تراثا فمن الصعب فهمها والعمل بها، لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش وفق قيم دينية أو أخلاقية أو فلسفية خالصة ،وإنما يعيش الموروث. إن الغرباء رغم تشريعهم لديانات تنسجم مع تصوراتهم وقيمهم فقد بقيت ظواهر غريبة عن الحياة العامة لأنها ليست مواريثم، وإنما صناعة فكرية مجردة لا تعكس الواقع، ولا تمثل نتاجا لحياتهم العملية. إن الديانات المذهبية شيئ آخر غير الدين، لأن الوحي مرتبط بشخص الوسول (ص)، ولذا لا يمكن لإنسان آخر أن يتكاتب أو يتراسل مع الوحي حتى وإن اعتمد الكتاب المقدس في بناء تشريعاته. توقف الوحي مع موت النبي ولم يبق منه سوى القرآن الكريم. ومن هنا تظهر الاختلافات والتناقضات في التشريعات الدينية باسم الإسلام. وعلينا الآن أن نثبت بأن الديانات المذهبية تأمل كوني عقلي يقتل في الدين الروح و الحياة.

# ديانة الوحي ولاهوت الديانات المذهبية

يمكن أن تكون التصورات دينية تطبع، وكمواضيع للعلاقة الدينية أو أن تنسب لها، تصبح هذه التصورات الغريزية الدينية موضوعا للعلاقة الدينية، أي تطبع أو تثبت إلى تصور ديني. يكون الوعي الديني على حق تام عندما تنبثق القناعة من العلاقة الدينية كشيئ معين وتفهم على أنها نامية ومترعرعة معه. وعليه تظهر الفطرة الدينية بوصفها غريزة من أجل اكتساب العلاقة الدينية، ويكون الوعي الديني على حق عندما يعقل نفس العوامل التصميمية كنتاج للعلاقة الدينية، أي أن تفهم كشيئ موضوع ومؤثر من اللّه في الإنسان. إذا كان اصحاب الديانات المذهبية يدعون التزامهم بالقرآن والسنة أي بما نزل من الوحي وما عمل به الرسول (ص) والصحابة، وبالقدر الذي يدرك فيه الوحي على أنه محتوى وعيهم الخاص وانه الوظيفة الخاصة عندها يكون إيمانهم إيماناً عقلياً. إن منهج الديانات المذهبية القائم على القياس وسواه من القضايا الأخرى تصميم عقلي تستند عليه شريعة دينية عقلية وإيمان بالضرورة. ومن هنا لا يمكننا القول بأن الإيمان العقلي للديانات المذهبية فعل مطابق للوحي فالأول فعل بشري مطابق للفعل الإلهي (الوحي). إن الإيمان بالوحي يبقى وحيا بالنسبة للنبي الذي استلم الوحي وليس للآخرين الذين يؤمنون به؛ إنه لن يصير وحيا لهم. وعندما يؤمن الغريب خاصة بالوحي فإن محتوى إيمانه لا يمكن أن يطابق محتوى الوحي؛ فإذا كان فعل الإيمان بشري، وفعل الوحي إلهي فإنهما وظيفيا يختلفان عن بعض، ولا يمكن لفعل الإيمان البشري أن يوصل الوحي كاملا لخصوصية طبيعية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى. إن الإيمان يحمل السمات النفسية والظواهر التاريخية الاجتماعية للفرد أو الجماعة المؤمنة، وبهذا

تتعدد صور الإيمان التي تنتسب للوحي. إن الحياة الروحية، الدينية للفرد تعمل حساب تطور الوعي الديني للبشرية عامة الذي يتركب من مجموع العمليات الروحية الشخصية ،وتتفتح من خلالها الحياة الروحية الدينية للأفراد. إن اللاهوت الديني الذي خلقته الديانات المذهبية يؤثر بشكل مباشر على مستوى تطور الوعي الديني، بحيث يصبح الإقرار بالوحي داخل هذه الديانات المذهبية، وينكر كل ما عداها وخارجها فإن هذا يبرهن على أنه ينقص فهمها الديني بالنسبة لمفهوم الوحي في ارتباطه بالإيمان، كما ينقص الفهم التاريخي من أجل فهم مسار تطور الوعي الديني لهذه الأقوام. إن الذين يردون درجة التطور الموجودة سابقا للوعي الديني في الدين الخاص إلى التصورات الذاتية لبعض رجال الدين يكشفون عن عدم فهم أن حياة المجتمع الروحية تكون في مستوى ودرجة أكثر رقيا من الدين ومن التصورات الدينية لهؤلاء من أفكار وتصورات الديانات المذهبية يمكن أن يبرز محتوى فكريا جديدا تماما عن الله وعلاقته بالإنسان في عملية التطور الروحية للمجتمع من دون أن يحمل في ذاته طابع وخصوصية الوحي، وإنما يكون نتاجا لتأمل فكري نظري في فرد غير متدين.

يرتبط الوحي مع الإيمان في وحدة تخصص لكل فرد تتحقق فيه العملية الدينية. عندما تبتدىء التشريعات الدينية فإن الصور الدينية الناشئة عنها تختزل محتوى الوحي طبقا لقدرات وتجارب فهم المشرع. بمعنى أن قيمة ومعنى محتوى الوحي يتجاوزان الحياة الفردية الدينية للمشرعين والأفراد، لذا فإن الديانات المذهبية لا يمكن ان تصل إلى جوهر وماهية الوحي، وبذا يكون التطور اللاحق للتصورات الدينية لهذه الديانات غير مرتبط بالوحي، بل يطور صوره الدينية الخاصة التي تبتعد في محتواها أكثر فأكثر عن مضمون الوحي. إن خدمت هذه الديانات شيئا فإنها لا تخدم إلا

نفسـهـا وليس الدين الأم. وينجم عن هذا أن المضـمـون الجـوهري للديانات المذهبـية الذي عكس مرحلة من التطور هو مضـمـون عـام لا يرتبط بمحـتوى واقـعي، ولا يحمل وقـائع الحـياة الدينيـة التي كانت موجودة آنذاك في الحياة الروحيـة الدينية لكل فـرد، لذا فـإن مـثل هذا الشـرع وهذه المبـادئ لا يمكن أن تتطور، أو أن تخدم الحياة الدينيـة لأنها صارت صيغاً وصوراً ميتة لا تنتسب إلا لنفسـهـا، ولا تمثل إلا مـحتواها الخـاص. إن مـحتوى الديانات المذهبية لا يمتلك حقيقة مطلقة، بينما مـحتوى الوحي يجب أن يكون « وظيفة إلهية »،كونه يمتلك حـقيقـة مطلقـة يستمـدهـا من الحـقيـقة المطلقة الإلهـيـة، وإلا فإنه سـيفقد مـصـداقـيتـه كـوحي. إن الاخـتـلافـات لا تجد لـهـا مكانـا في مـحـتوى الوحي فـالوحي يجب أن يعـرض اللّه الحـقيـقة المطلقة، وإن كانت في بعض جوانبـها مبـهمة وغير واضـحة تماما للقدرا الفكرية البشرية. لكن هذه الحـقيقة المطلقة لا تظهـر كاملة لأنهـا تجلت كقيم وأعراف عـربية كانت موجودة فـي هذه البيئة قـبل الإسـلام؛ وتتـجلى هـذه الحـالة أولا صـوريا ومن ثم احـتـوائيـا، طبـقـا للمـحـتوى، وان يثـبت في الوظيـفـة الإلهـيـة على أنهـا حقـا ليـست مطلقـة لكي يتسنى للعرب مـواصلة وفـهم هذه الـروح. يستقبل العـرب، على الرغم من هذا الاختلاف عن طريق الوظيفة الإلهية بحيث أن العربي في هذه الحالة يسـتقبل وقائع وجود حياته التاريخية بشكل واع بحيث ترفع الوقائع الطبيعية النفسية في الحـيـاة العربية إلى مستوى الفكر، ويصـير وجودا واعيا يمكّن العرب في مسـار التطور التاريخي من البقـاء على ارتباط وثيق بأنفسـهم وبالتاريخ، وهذا يخلق لديهم إمكانيات تطوير حياهم بشكل دائم ومستقر، كمـا وسيكون عمل قـدراتهم الفكرية، الروحـيـة فـي مـسـار التطور هو نوع من البـحث عن مـعـان جـديدة في وقـائـع حـيـاتهم التـاريخـيـة. عندمـا يصـير العـرف وتصـير القـيم العربية، الجزرية شرعا ووصـايا إلهيـة في الوحي فإنهـا تتخطى بذلك الـنشأة

القانونية النفسية في الروح الفردية، لكن النشأة القانونية النفسية تعود إلى الظهور ثانية من خلال تشريعات الديانات المذهبية التي تنفصل عن الوحي الذي يرتبط بشكل مباشر بالعرب وأعرافهم وتاريخهم، وتظهر الحقيقة الدينية مجددا في الروح الفردية للمشرّع التي تقوم على القانونية الطبيعية لحياته الروحية، ويختفي الجانب الإلهي من فعل « الإيمان » ، وتصبح الوظيفة الدينية بذلك بشرية خالصة ينعدم فيها الجانب الإلهي. إذا كان الوحي الإلهي يتطابق وظيفيا مع الإيمان البشري لدى العرب، فإنه لا يتطابق وظيفيا مع الإيمان البشري الذي شرعته الديانات المذهبية، لأن الوظيفة الدينية هنا تسري في حياة الروح البشرية، حياة المشرّع فقط، وترتبط بقوانينها الطبيعية. بهذا تنفصل الوظيفة الروحية البشرية السارية كمنشط للعلاقة الدينية عن الوظيفة المحددة إليها، وبهذا يسجل انقطاع الإلهي عن البشري. إن الوظائف الروحية البشرية تكون في الديانات الذهبية المادة الاستثنائية للوحي الإلهي ترتبط بعدم كمال الوعي الفردي المتناه، وتستطيع أن تعبر عن حقيقة نسبية وليست مطلقة كما في الوحي. يبرز المحتوى الروحي للديانات المذهبية في البداية على هيئة تأمل في الوعي، وهذا التأمل قد يتخذ مظاهر شتى كأن يكون إدراكا او تذكرا وتصوات، او إدراكات قديمة، أو تصورات تخيلية تأملية تركب من مكونات لإدراكات حسية سابقة لكل غير مدركة تلقائيا(*). كل التأملات مجتمعة تكون صورة التأمل، لكن من غير المعقول القبول بأن الحساسية وحدها كافية من أجل تصميم صورة التأمل واعتباره محتوى التأمل حسيا لا غير، وان الروح تكمن في هذه الحساسية التجريبية. لهذا لا بد من تجاوز المحتوى المعطى حسياً عند الانتقال من التصور

(*) القياس منهج تأملي عقلي تصاغ فيه ومن خلاله المادة الحسية التي تتولد عنها المشاعر والتي يعالجها العقل لاستنتاج التأمل.

التذكري إلى التصور التخيلي، في انه يقحم مع مادة التأمل الحسية تصميميا وتركيبيا، ويحفظ بذلك قدرته الإبداعية التي تمثل انتاجية روحية. إن المادة الدينية الحسية التي تستخدمها الديانات المذهبية لا ينجم عنها إلا الشعور، ولذا فإن تحقيق تشريع معين - التشريع يعني التأمل ولا يتم إلا من خلال صياغة الذهن عن طريق فعاليته القبلية من الشعور الحسي. وبالبنتيجة يكون التأمل نسيجا من وظائف الروح الحسية والفكرية، بحيث انه لا غرابة عندما يستخدم التأمل رغم صورته الحسية أن يرتقي منها إلى محتوى روحي. إن التشريعات والتصورات التي تقدمها الديانات المذهبية عن الإسلام وقيمه وآرائه في الخير والشر، اللّه، العبادة، والطقوس ...إلخ، بعبارة أخرى التأمل الكوني يقوم على الشعور الحسي الذي يحدد (يتحتم) نفسيا، لكن هذا يمثل تفاعلاً تلقائياً ونشيطاً للروح على إشارات المخ، والتي تبين الخمول الظاهري للروح التي تنبثق من الجذور كالتفاعل العقلي الثانوي على محتوى الوعي الأولي المحدد. لهذا تبدو التشريعات المذهبية حاملة لمعنى كتأمل كوني يتجاوز حدود معنى التأمل الحسي وتصير بالتالي رمزا لمعنى مافوق حسي (إلهي)، أي انها تعبير عن الإلهي وتجريد للصورة الحسية. تحول تشريعات ومبادئ الديانات المذهبية التأملات إلى رموز، إلى تصورات عامة، إلى مفاهيم. تثبت كل من هذه التصورات العامة بسبب طبيعتها المجردة على أنها أحادية الجانب وكاذبة، وتدعو دائما إلى تعينات مجردة جديدة. وبهذا نلاحظ أن التصورات تبقى من ناحية مرتبطة بالصور الحسية، بينما نرى أنها من ناحية أخرى تنقلب ضد هذه الصور. تستخدم الديانات المذهبية الصور الحسية من أجل اغناء مضمون التصور، ومن أجل إغناء المفهوم تتمسك بالدليل التقليدي للكلمة الذي يفيد في حالة التكرار أن يولد محتوى المفهوم غير الوضح من جديد. الديانات المذهبية تفهم الدين كإحساس وتأمل، أي

أنها تؤمن بالانتقال من التأمل إلى التصور. عندما تقوم العقيدة الدينية على التصور فقط فإنها تقتل المفاهيم المطلقة للدين لأنها حالما تدخل في الوعي تفقد معناها الإلهي واطلاقيتها، أي أنها تتوقف عن أن تكون موضوع العلاقة الدينية أو أن تكون محتوى الوعي الديني. من هنا يمكننا القول انه من غير الممكن أن يوجد الدين حيث تكون قيمه المطلقة في صورة تصورات وتأملات. لهذا تبقى اطلاقية الأفكار القيمة المعنى الإسلامية التي عرضها وأقرها الوحي غير ممكنة التحقق، وبذلك تتوقف العلاقة الدينية وتبطل إمكانية أن تقدم شروط ملائمة من أجل تفتح نهائي للعلاقة الدينية. إذا كان بالإمكان نشوء علاقة دينية عن التصور والتأمل فإن هذا راجع إلى انهما يتضمنان الأفكار الدينية بشكل ناقص، ويكونان بالنسبة للوعي الديني تعويضا عن الأفكار، وينظر اليها على أنها حقائق نسبية. لهذا تبقى الحقائق الدينية بعيدة عن حقائق الديانات المذهبية لأنها في أحسن أحوالها حقائق نسبية، ولهذا لا يمكنها أن تقترب من حقيقة الوحي المطلقة.

# الدين الإســـلامي
# وفكرة المنقذ في الديانات المذهبية

الدين الإسلامي دين في منتهى الواقعية، ويرتبط بالإنسان وحياته بالدرجة الأولى، وما يحويه من الغيب هو فكرة اللّه والجنة والنار، وما عدا ذلك أرضي عربي. لا صاحب الرسالة ولا أصحابه انتظروا منقذا أو مساعدا، بل إن ما فعلوه في زمن الدعوة وزمن الغزو الإسلامي اعتمد بالدرجة الأولى على تنظيم قواهم الذاتية الخاصة، ولم ينتظروا مساعدة من السماء أو تدخلاً إلهياً، بل إنهم فعلوا ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، والسيف هو الحاسم. لهذا خسر المسلمون معركة ضد قريش كادت تودي بحياة الإسلام حيث قتل فيها أفضل وأشجع الصحابة، وأوشك ان يقتل فيها صاحب الدعوة. إن العامل الحاسم في أي عمل بشري هو التنظيم الذي بإمكانه جمع القوى المبعثرة في وحدة، ومن أجل هدف وغاية واضحة ومحددة، وفي هذا سر النجاح. هذا هو سر نجاح اليونانيين والرومان وكذلك العرب. القضية هي تنظيم وإيمان. لم يكن اليونانيون ولا الرومان ولا العرب الأكثر عددا من الشعوب التي غزوها، وإنما كانوا الأكثر تنظيما، والتنظيم دليل على تطور القدرات العقلية للشعب أو القوم، وهو الضمانة للنجاح. لهذا كانت الحضارة اليونانية والرومانية الأكثر تطورا في العالم القديم، وهو ما أتاح لها إمكانية غزو العالم. متى تبدأ عمليا دعاوى الخلاص والإنقاذ؟ عندما توشك حضارة بسبب الصراعات والتمزق الداخلي على الفناء(*). اليهود

(*) تقول الديانة الزرادشتية بهذا الصدد: « ضمن فاصل زمني أمده الف سنة يولد ثلاثة منقذين من امرأة عذراء أخصبت بمني النبي الذي حفظ في بحيرة تسبح فيها الفتيات عادة. هؤلاء المنقذون أبناء النبي على الرغم من أنهم ولدوا من امرأة عذراء يدمر كل واحد منهم =

تعرفوا بعد بالسبي على فكرة المنقذ التي كانت في صلب الديانة المجوسية الفارسية، وانتقلت من ثم إلى المسيحية عن طريق اليهودية، وظهرت في المذهب الشيعي الذي شرعه الموالي، وأدخلت على الإسلام موارثها الثقافية والدينية القديمة، فانحصر جوهر العقيدة الشيعية في نظرية المنقذ، ونظرية آهل البيت التي تجد صداها في الأرواح (القوى) الكونية المجوسية(*). على هذه النظرية يقوم لب العقيدة الشيعية. إن النتيجة الوحيدة لمثل هذه العقيدة هي الترمت، وهي بالتالي لا تقدم اهتمامات ومصالح دينية، في مثل هذه الحالة يحاول التفكير المذهبي ان يسبغ على العقيدة صفة معقولة عن طريق الإنحراف بهذا الإتجاه أو ذاك لكي يجعل ما هو غير قابل للتفكير قليلاً ويخالف الدين والعقل الموضوعي. وتثبت الإلوهية الحقيقية على أنها خداع وتضليل. كل عقيدة دينية تأخذ بفكرة الإنقاذ والخلاص عن طريق شخص معين يجب ان تبني قاعدة تاريخية لإيمانها تستمدها من وقائع الخلاص التاريخية؛ وتزدهر وتنحط هذه الديانة مع هذه الفكرة. تقوم الديانات المذهبية على الإنقاذ وتُختزل إلى ديانة أحاديث ووقائع تقدس بها الأشخاص (الأئمة) الذين ترى فيهم تجسيدا للمبدأ الأخلاقي، وكنموذج للكمال الذاتي للإنسان، وهو في الوقت ذاته طريق وأسلوب لكسب رضاء الله. تتقيد عملية الخلاص والإنقاذ بالإيضاح الأخلاقي وطالما تعقل الأخلاق في ضوء ديني، أي في حدود التشريع الإلهي، فإنها تصبح قوانين تحاول أن توسع مبدأ الإنقاذ الذي لا يتطابق بعد الآن مع شخص معين، ولا يتوقف على الوقائع التاريخية، بل يكون المبدأ محايثا لروحه الخاصة فقط. بهذا يتخطى الوعي الديني حدود

---

(*) من الخلق الشرير حتى المنقذ الثالث الذي يوقظ الأموات ويقيم يوم القيامة. الزرادشتيون لا يتكلمون بهذا الخصوص عن « نهاية العالم » لأن هذا سيعني نهاية ما صنع الله. بدلا من ذلك يتطلع الزرادشتيون إلى « تجديد الخلق »، إلى الزمن الذي تتوحد فيه السماء والأرض إلى أفضل عالمين.

الديانات المذهبية ويتسامى عليها. وبهذا تظهر النتائج السلبية للديانات المذهبية التي تمثل وسيلة تدميرها الذاتية التاريخية.

المنقذ في الديانات المذهبية شخصية بشرية على الرغم من مثاليتها، ولا يمكن أن تكون القوة المنقذة للمؤمنين، بل المبدأ الذي يتمايز عنها والذي يحفظ فيها ايضا قوته الإنقاذية. إن الوساطة التي يمكن أن يحققها المنقذ كإنسان حقيقي من غير الممكن أن تمثل البشر أمام اللّه كما تمثل الإلوهية أمام الإنسان. إن ديانات الإنقاذ إقرار لعملية التدمير الذاتي، كما أن مطابقة الإنقاذ مع شخصية تاريخية غير ممكنة. إن في هذا تناقض مناف لنفسه.

---

= نظرية الأرواح (القوى) الكونية في الديانة الزرادشتية ترد إلى الآتي:
الروح الأولى الكبرى هي آهورا مازاد تتبعها عشر قوى أخرى هي:١ـ فهو مناه ، تعني « الإحساس اللطيف »؛ ٢ـ آشا ، تعني « مصداقية »، « نظام عالمي حقيقي »؛ ٣ـ آمريتات ، تعني « الحياة »، « قوة الحياة » أو « الخلود »؛ ٤ـ هورفاتت، تعني « الشفاء » أو « الصحة »؛ ٥ـ كشاترا ـ تعني « السلطان » أو « سيادة القوة »؛ ٦ـ ارمايتي، تعني « امتثال مقدس »؛ ٧ـ آشي، تعني « الثواب » أو « التدين الفاضل »؛ ٨ـ غاوش أورفان، تعني « النفس الكونية »؛ ٩ـ سراوشا، تعني « الخضوع والطاعة »؛ ١٠ـ غاوش تاشان.

إن معنى هذه القوى مزدوج لأنها تقف غالبا آليا وفعلا إما في محل من الجملة على أنها تكون فعالية اللّه أو فعالية الإنسان، أو في تبعية واضحة للّه أو للإنسان. إنها تتلون في تبعيتها لأهورا مازادا أو للإنسان بين الإستقلالية (شيئ ما يحدث معها) ،ووجود غير مستقل (شيئ ما يحدث من خلالها)، وأن تكون كأرواح أو كآلهة حتى أطلق عليها « رئيس الملائكة » . كما فهمت على أنها الخصال الإلهية محمولة على البشر او الجوهر أو الموضوع أو الصفات. إن هذه القوى (الأرواح) ترد جزئيا في معنى شخصي (كبشر) في معنى مجرد لا شخصي، وكقوى لا شخصية تكون أحيانا نسبية بشكل واضح وفردية، وأحيانا لا يقف شيئ في طريق تفسيرها على انها جماعية. وكتجريدات فردية أو جماعية تجلب الروحي إلى المفهوم، ... وكذلك المادي. إن القوى (الأرواح) الخمس الأولى تتشابه إلى حد بعيد مع حديث الكساء. كما أن صورة الأئمة الإثني عشر لا تختلف في جوهرها عن نظرية القوى (الأرواح) الكونية الفعالة في الزرادشتية. لكل روح وظيفة ومعنى كما رأينا، و الشيعة تسمي الإئمة بنفس المعنى مثل الشهيد، السجاد، الباقر، الصادق، الكاظم، الجواد...إلخ. في النهاية إذا جمعنا أهورا مازادا مع الأرواح العشرة مضافا إليها المنقذ تصبح بذلك إثنتي عشر وهو عدد الإئمة.

تتضمن نظرية المنقذ مبدأ بشرية الله؛ كما أن مبدأ هذه النظرية يمكن أن يفعل كإنقاذ عام، ويوصف كمبدأ شخصي أحادي؛ الإنقاذ هو اتحاد نشاط الروح الإلهي والبشري في وحدة، حياة الروح الشخصية التي تكون ممكنة في إله لا شخصي. الإنقاذ مبدأ يجب ان يتحقق من خلال المنقذ وبذا تكون قيمة المنقذ هو التحقيق الذاتي الأولي للمبدأ. انطلاقا من هذا المبدأ فإن المنقذ لا يمكن أن ينقذ الناس، بل إن من ينقذ الناس هو المبدأ ذاته الذي كان فيه فعالا اولا. لم يرد هذا في وحي، ولو كان كذلك، أي أن يعين وحي مبدأ الإنقاذ اللاشخصي مع اسم شخص بشكل تعسفي فإن في هذا تكليف على الناس أن يقوموا بهذا التحول وهم ليسوا بحاجة لذلك. يدل الوعي الذاتي الذي انتج مثل هذه التصورات على السذاجة وتخلفه التاريخي الذي حمل من بعد إلى الإسلام وكأنه قيمة دينية، وعليه فإن المبدأ المذهبي لا يتضمن الحقيقة الدينية تاريخيا. ومن غير الممكن القول بأن المنقذ فوق وعي جماعة مرتبطة بالله وان يتخطى العفو عن الذنوب، أو أن يصل إلى مبدأ الإنقاذ اللاشخصي المحايث. عند ذلك تصير هذه الصورة الساذجة البدائية للديانة المجوسية النموذج الكامل للأجيال المسلمة في الأزمان المتأخرة.

إن فكرة الخلاص والإنقاذ ذات جذور نفسية بسبب الطبيعة الأنانية للإنسان الذي يبحث عن السعادة من أجل الوصول إليها. ومن أجل هذه المهمة يوظف كل قواه، ويبدو العالم له عندئذ قوة خيرة، مسرحا، وسيلة من اجل تلبية وإشباع رغباته الخاصة. يسعى الإنسان للبحث عن السعادة عندما يشعر انها تنقصه، لكن ارتباطه بالعالم وتمرده الدائم عليه يمنعه من الوصول إلى غرضه في نيل السعادة. إن تبعية الإنسان للعالم يفهمها على انها شر لذا تراه يهرع إلى الآلهة لتخليصه من هذا الشر. عندما يبقى الإنسان متمسكا بالسعادة على مستوى الوعي الديني، الأخلاقي العملي لن

يكون بمقدوره أن يفهم ويعي الخلاص والإنقاذ إلا عن طريق تدخل ومساعدة الآلهة التي تمكنه من القضاء على تناقضات العالم من أجل بلوغ السعادة. تكون صور الإنقاذ ساذجة يبرز بمكانها التصور التخيلي للعالم الآخر الذي يزال منه كل ما يعيق تحقيق السعادة. لكن الأنانية الغريزية والقوانين الباطنية للروح البشرية تبين أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تصل إلى السعادة في أي عالم أرضي محدث. يصبح الدين دين إنقاذ حقيقي عندما يتوقف الإنسان على الإعتماد على الآلهة في تذليل وإزالة الشر ،وأن يفهم طبيعة روحه الخاصة غير معدة للسعادة أبديا وتنتمي إلى الخصوصية الطبيعية القانونية للعالم؛ في التبعية لهذه الخصوصية التي يكمن فيها الشر. ما يمكن أن يفهم بالشر الأكبر ألا وهو الموت بالنسبة للإنسان وتوقف العملية الكونية وفناء العالم يبدو أنه اخلاص من الشر، وهو الأمر الذي لم يتكهن الوعي الديني به من قبل. في هذا المعنى لن يتوقف الإنسان من بعد على أن يشعر بالشر الذاتي، لكن الإنسان يتغلب عليه مثاليا في أن ينظر إليه على أنه نسبي، ولا ابالي تجاهه، ويتعلم أن يعقله على أنه عديم الأهمية، وليس ذا شأن فيما يتعلق بغاية وجوده. وعليه فإن مفهوم الإنقاذ تطور عن مفهوم الشر، ومن مفهوم الإنقاذ تطور مفهوم الذنب. بالمقابل حالما يصلح تأدية أهداف الإرادة الإلهية كغاية وجودية لكل فرد عندها يجب أن تظهر النزاعات بين السلوك الواقعي للإنسان، وبين غاية الوجود التي أصحبت تحتل الصدارة.

ينحصر الفارق بين معاناة الإنسان والوعي بالذنب في أن الوعي بالذنب وعيا دينيا ، أخلاقيا متطورا، بينما المعاناة البشرية لا إسناد لها إلا دافع سعادة غريزي اناني؛ التأمل في الشر كإحباط لغاية الوجود الفردية يذهب بالإنسان إلى السخط والغضب على الله، أما التأمل في الذنب كإحباط

واقعي لغاية الوجود الفردية يؤدي بالإنسان إلى الإحساس بالانفصال عن الله. وفي حالة التموضع التصوري لهذا الإحساس يفكر الإنسان بغضب الله عليه. التبعية والخضوع للعالم المصدر الأساسي للشر والذنب، وهذا يدفع بالإنسان في الوقت ذاته إلى طلب الخير؛ فالإنسان يريد في هذه الحالة أن يخضع نفسه للنظام الكوني الأخلاقي، أو أن يعيش في انسجام وطبقا للإرادة الإلهية، ولو لم يكن الأمر هكذا لما ظهر عنده الإحساس بالذنب. إن تبعية الخصوصية الطبيعية المنسوبة للفرد العضوي النفسي للعالم تمتلك ذروتها ونقطة انطلاقها الأساسية من الوسائل المتاحة للتحفيز من العالم المتبقي. لكن المهمة في ميدان الذنب أكثر صعوبة لأنها مهمة واقعية تتعلق بالتغلب على التحفيز الكوني عن طريق مهمة مضادة له. عندما يكمن الإنقاذ من الذنب لا في ضوء السعي إلى السعادة الغريزية الخاص، وإنما يعقل في ضوء مهمات الحياة العرفية القابلة للحل شخصيا، لذا يجب على الإنقاذ أن يجعل الذنب وسلطة الحوافز إلى الإتحاد مع اللّه وتأمين إرادته، أو أن يجعل الإنقاذ من الشر مستقلا مبدئياً من خلال هذا التحول المبدئي للوجدان الذي انبثق عنه الذنب، وأن يرتبط بالعلاقة الدينية الممزقة من جديد. بين الدوافع الغريزية للإنسان تكون مجموعة منها تقود إلى هدف موجود في الجهة الأخرى من الحظ الخاص لأنها تعّد بتلبية الدوافع الغريزية، بقدر ما تنتمي القوة ما فوق الطبيعية كالعقل إلى ماهية الإنسان، وتصير بذلك مكونا أساسيا تكامليا لماهيته؛ ومن دون العقل لا يوجد إنسان. ينتمي الإرتقاء فوق السعادة الغريزية إلى طبيعة الإنسان؛ ويتحقق ارتقاء الإنسان فوق السلوك العملي بمساعدة القوى مافوق الطبيعية الكامنة فيه خاصة تكون الغرائز الأخلاقية. يكون التحرر من التبعية للعالم الطبيعي من خلال قوة ممكنة، وهذه القوة في المبادئ التي تنتج اولا العالم الطبيعي وقوانينه. وبهذا يوجد

منبع القوة من أجل الارتقاء فوق العالم الطبيعي ليس في العالم، وإنما في أساس العالم؛ وأساس العالم بالنسبة للوعي الديني يتطابق مع موضوع العلاقة الدينية، مع اللّه. إن الوظائف السامية للوعي الديني في حياة الروح الفردية يجب أن تقع تحت مفهوم الإنقاذ. ويمكن للإنقاذ أن يتحقق في الإنسان الذي يصير موقعا للفعالية الإلهية، وكذلك وظيفة إلهية، بشرية. وتعرض الجانب الإلهي لهذه الوظيفة المزدوجة على نحو مميز. على الإنسان أن يكافح عدوه ليس خارجه وإنما في داخله، ويكافح فرديته العضوية النفسية. لكن مثل هذه المهمة غير ممكنة التحقق طالما أن الإنسان يتبع أغراضه الفردية في كفاحه ضد العالم معتمدا على قواه الخاصة.

إن الديانات المذهبية المؤمنة بالمنقذ فيه كمال تدينه الفردي، وليس تجسيدا لمبدأ أزلي محايث، وبعبارة أخرى لا ترى فيه منقذا ومؤسسا لديانة جديدة وإنما إماما يقوم مقام النبوة لديانة قانونية قائمة. هذه الرمزية المجردة لا تدع في النهاية مجالا لفكرة في شخص بسبب قيمته التاريخية بالنسبة للجماعة الشيعية بحق اولا. إن مثل هذا الخداع والتضليل يصير في النهاية مثالا دينيا أو مثالا أخلاقيا عقليا. إن الديانات المذهبية التي تؤمن بعودة المنقذ تعتقد بأن المبدأ هو أن بشرية اللّه تصنع كاتحاد واقعي للإله الشخصي، وكمفهوم يلازم بشرية اللّه إلا أنه يناقض مفهوم « علاقة دينية مكتملة » تعين من ناحية كعلاقة دينية محايثة، ومن ناحية أخرى كعلاقة جماعة مجردة بإله غيب (مفارق). من هذا المنطلق أضاعت الديانات المذهبية التي شرعها الموالي والغرباء الإسلام بحيث بدأت العقيدة الدينية ترتبط بتصورات فكرية وأساطير تاريخية لم يعرفها الإسلام ولا العرب. وهكذا تطلع علينا الديانات المذهبية بفكرة المنقذ التي ترى فيها وحدة حقيقية بين الله والإنسان، وهي وحدة روحية شخصية، أو أنها علاقة دينية مكتملة تعبر عن

محايثة اللّه في الروح البشرية ، وهو مبدأ لا شخصي حيث يعين إيمان الديانات المذهبية المنقذ على أنه الروح الإلهية في محايثتها، أو أنه تأثير الروح الإلهية. يجب أن تتطابق الشخصية الرمزية للمنقذ في هذه الحالة مع شخصية المهدي المنتظر التاريخية. وعندما يصير مبدأ الإنقاذ مثالا تشخيصيا رمزيا للعلاقة الدينية فإنه لا يعود كافيا بقدر ما أنه يتضمن الروح الإلهية المحايثة كمحايث له. إن رؤية كهذه تطابق المثال التشخيصي مع المنقذ التاريخي، وتناسب الإيمان الديني وتكون غير صالحة للتفكير. إن تذبذب الشخصانية الرمزية بين المثالية الرمزية والواقعية التاريخية هو خداع وضلالة.

لن يكون بعد ذلك المهدي المنتظر منقذا، بل الواعظ أو المعلم الذي يوقظ في الناس الوعي الديني في معنى مبدأ الإنقاذ. الشخص الذي يوقظ بي الوعي الديني لا يمكن أن يكون منقذي، بل الشخص الذي أيقظ فيّ مبدأ الإنقاذ الذي صار محيثا لي، أي أنه يعيش في أناي، في شخصي ويوقظ فيّ من خلال مؤثرات خارجية تاريخيا ليس منقذا. المنقذ لا يمكن أن ينقذ أحدا، بل انه يوقظ مبدأ الإنقاذ المحايث في وعي البشرية.

# الديانات المذهبية النظرية الخالصة

تقوم الديانات المذهبية الخالصة على الخيال الذي يمثلن الواقعي (أي انها تؤله الواقعي وتجعل منه روحانيا) ، على سبيل المثال مواضيع الطبيعة الحسية؛ ويجري تمثل المثالي أو مافوق الحسي مجددا في صورة الحساسية. تنشأ التصورات عن الحساسية وتحدث انتقالا بين الخيال الحسي والمفهوم الروحي وتكون الصورة المناسبة من أجل النشاط الديني للإرتقاء من الحسي إلى الروحي. تحتوي التصورات على تناقضات، وهذه التناقضات لا تعني على أنها نقص للتصورات بالنسبة للوعي الديني، وان الصورة الذهنية التي تتجاوز التصور تكون من لحظة تجاوزها له لا تصلح أن تكون مقدمة للوعي الديني. ما الذي يحدث في مثل هذه الحالة ؟ إن ما يحدث هو أن التفكير لا يدخل هذه التناقضات في أساس التصور الديني وإنما يعرضها فقط ويقدم بذلك حافزا للوعي الديني طالما أنه يتخيل أن ينقل التفكير هذه التناقضات في عقائده المحفوظة العديمة التناقض. الوعي الديني مثله مثل الفروع الأخرى للحياة الدينية يعين التطور المستمر، لهذا نرى أن الذهن الواعي الذي يدمر أساس التصور السابق هو الذي يشجع ويلزم الوعي الديني من أجل الحفاظ الذاتي، وأن يحرر المضمون الروحي للأفكار الدينية أكثر فاكثر من الصور الحسية غير الملائمة له..إن هذه الحالة تجعل الوعي الديني يهرب من حالة التمزق لأساس تصوره السابق، ويعزل بذلك ميدانه عن ميدان المعرفة الذهنية، الإيمان عن المعرفة ويدعي استقلالهم عن بعض، ومن الممكن أن يدخلا في تناقض من دون أن يدمر احدهما الآخر. معنى ذلك أن العقيدة ليست ضد العقل، وإنما فوقه وفي هذا تناقض.

تنوعت المدارس الفكرية في العصر العباسي وانقسمت إلى شيعة بتعدد أنواعـهـا، وإلى سنة بتـعـدد أنواعـهـا وإلى صـوفـيـة وباطنيـة، وغـيـرها من الاتجاهات الفكرية، ولم تكن متـجـانسـة فيـمـا بينهـا عـمـومـا بل متـعـادية ومتـحـاربة، وتنعكس هذه الحالة على الديانات المذهبية في عدم انسجامـها وتناقضـاتها الداخلية، وكما ان المدارس الشيعية متنوعة ومتناقضـة فإن هذا يصـدق على الديانات المذهبـيـة السنية حـيث كـان « المعـتـزلة والأشـاعـرة والماتريدية و « السلفيون » منتشـرين داخل هذه الديانات المذهبـيـة « بشكل جعل المذهب الفقهي يعلو علـى كل المذاهب الأخرى ». إن الصفة المميزة لهذه الديانات المذهبية وفقـهـها واختـلافـهـا عن سواها من القـوانين والتشـريعات الأخرى كالقوانين الرومـانية أو اليونانية أو البابلية وسـواها يعود إلـى أنها لا تمثل تشريعات قانونية تعكس الوضع والحالة الإجتماعية للناس في أزمانهم، وخاصـة في بغداد ، وإنما هي مفاهيم مجردة قائمة بذاتها، لا تمثل الإسلام ولا الواقـع الاجتماعي وعـلاقـاته بشكل مباشـر، ويـرى البعض فيـهـا « خصـوصية » متميزة لم تعرفها تشريعات الثقافات السابقة؛ لكن لو نظرنا إلى التشريعات الرومانية القانونية نرى أنها مثلت وعكست الحياة الرومانية، وهي بالتالي نتاج لها على عكس ما يسمى بالفقه الإسلامي الذي لم يصور ويعكس وقـائع الحياة في زمـانه رغم ارتباطه وتمثيله للدولة والأنظمة القائمة آنذاك. لو يسأل المرء هؤلاء الدعاة من المستعربة والغرباء متى عشتم الشريعة الدينية الإسلامية سواء في أصـالتها العربية أم في الصورة التي عرضتها الديانات المذهبية الأعجمية ؟ لا تعيش اليوم كل هذه البلدان طبقا لتشريعات سنها لهم الغرب المسيحي، وتراهم يتشدقون بالتفاهات على أن « علم أصـول الفقـه هو أول مـحـاولة في العـالم استـهـدفت إنشـاء علـم للقـانون مـتـميـز عن القـوانين التـفصـيلية الخـاصـة بهـذا السلوك أو ذاك، علم يمكن تطبيقـه في

دراسة قانون أي بلد وفي أي عصر ». يسخر من يتشدق بتفاهات كهذه من الناس وينال من كرامة الإسلام إذا اعتبر أن هذه الديانات المذهبية وتشريعاتها القانونية تتطابق مع الأفكار القيمة المعنى الإسلامية العربية التي دعا إليها الرسول والوحي.

يتحفظ البعض تجاه مثل هذه الآراء والمعتقدات على الرغم من أنه يسردها ويعلق عليها، ويقبل باسلوب العرض هذا، لكنه يعود ويؤكد بأن « الاختلافات بين وجهات النظر التي رافقت نشأة العلوم العربية الإسلامية مع بداية عصر التدوين إنما كانت تعبر في حقيقتها وجوهرها عن أزمة أسس ». الأسس يراد بها هنا إرساء الأحكام والتشريعات على «أصول ومقدمات متينة وواضحة ». كلنا يعرف مالذي جرى وأي الأسس وضعها الموالي والغرباء لفقه الديانات المذهبية التي لا تتفق فيما بينها على حكم شرعي واحد. بغض النظر عن المصادر التي اعتمدها مشرعو الديانات المذهبية سواء في اتباعهم « أهل الحديث » أم « أهل الرأي »، أو في اعتمادهم على الكثير من علماء اللغة والنحو، كل هذا لا يمنع أن يجعل من تشريعات الديانات المذهبية شيئا آخر غير المصادر التي اعتمدتها. لا يمكن للفقه ان ينسب في هذه الحالة إلى اللغة أو إلى الدين، وإنما هو نظام منطقي معرفي يعنى بالصواب والخطأ، لهذا يقول الشافعي « ليس لأحد أبدا أن يقول في شيئ حلّ ولا حرم إلا من جهة العلم. وجهة العلم: الخبر في الكتاب أو السنة، أو الإجماع، أو القياس. إننا كما نرى هنا لا نقف أمام الدين مباشرة، وإنما إزاء بناء منطقي يعين بالصحيح والخطأ، والحق والباطل. لقد احتفظت كل التشريعات المذهبية بالمبدأ الأساسي للفقه الحنفي ألاوهو القياس الذي تقوم عليه أصول الفقه، وأما الأمور الأخرى كالكتاب والسنة، أو الإجماع، أو الإستحسان، أو المصالح المرسلة فإنها تمثل جانبا تكميليا للبناء

الصوري المنطقي الذي يعتمد على القياس. الشافعي فعل كما فعل الآخرين حيث أنه استعار المنهج المنطقي الحنفي مضيفا إليه تغييرات اقتبسها من ابن مالك مستبدلا الإستحسان لأبي حنيفة بالإجماع لإبن مالك ، والغى في الوقت ذاته المصالح المرسلة لدى ابن مالك التي تقوم لديه « مقام الحديث في حالة عدم توفره »، وبالتالي يرجع الشافعي كل شيئ إلى القياس. إن فقه الشافعي لم يأت بجديد سوى أنه أخذ من كل واحد ماارتآه صحيحا ومناسبا له، لكن المشترك لدى الجميع هو الإقرار بمبدأ القياس. بهذا نستطيع القول بأن الفقه لا هو بدين ولا هو بلغة، وإنما هو نظام منطقي صوري. حتى لو استعار منطق القياس مادة التصورات أو المفاهيم من الكتاب والسنة التي تفيد في بناء المقدمات من أجل استنتاج الأحكام، فإن هذه العمليات ليست تعبيرا عن الدين، وإنما هي نظام منطقي قائم بذاته؛ وإذا كانت الخاتمة النهائية هي استنتاج حكم، فإن الحكم بحد ذاته يمثل بداية المعرفة. لكن المنطق الصوري (القياس) هو منطق عقلي، لكنه في حالتنا هذه يكون منطق « عقل فقهي »، إلا أنه بقي عقلاً منطقياً صورياً أراد أن يكوّن نظرية في المفهوم، الحكم، والإستدلال؛ أما بخصوص القيمة المعرفية للصور المنطقية للتفكير فإنها لا تستطيع إحداث تغيير صوري وتفسير للمادة المعطاة، وبذا تكون الصور المنطقية وحدها عديمة القيمة والمعنى بالمعنى الحرفي للكلمة، والمنطق لن يكون نظرية في المعرفة، وإنما مذهبا في صور التفكير الصحيح، بقدر ما تتقيد المعالجة التحليلية لصور التفكير بالمحتوى الجاهز للتصورات. إن هذا المنطق لا يعير إنتباها لمحتوى التفكير، وإنما يقتصر على صورة مسار الفكر. إن الجديد في هذا المبدأ المنطقي أنه اعتمد المادة الدينية في بناء أحكامه في اختلافه عن الشريعات القانونية الكبرى التي عرفتها الحضارات الأخرى القديمة.

يقارن البعض بين اختلاف المناهج في الديانات المذهبية بسبب أن بعض المذاهب - مذهب أبو حنيفة كان « المشرّع هو العقل »، أما في الفقه الشافعي فقد كان العقل هو المشّرع له ». كان يشّرع للعقل، فالسؤال هو: من يشرّع للعقل ؟ هل هناك أداة غير قادرة على التفكير ؟ كيف يمكن التصريح في مثل هذا الأمر بخصوص فقه الشافعي ؟ وهو المعتمد بالدرجة الأولى على الفقه الحنفي حيث استعار منه المبادئ الأساسية الثلاثة ألا وهي « القياس، القرآن والسنة »؛ أما ما أحدثه من تعديلات وتغييرات فإنها لا تمس صلب المبدأ الحنفي، وإنما تعديل وجهات نظر الفقه الحنفي. لذا فإن كل ما عملته المذاهب، وما دعت إليه لا يمكن أن يحسب على الإسلام العربي، ولا على القرآن، ولا على السنة، بل انه نظام منطقي قائم بذاته. إن الذي حققته ونجحت فيه الديانات المذهبية، في واقع الحال، هو خلق صور عقائدية وأحكام متضادة باسم الإسلام، ومزقت الناس التي انضوت تحت لوائه إلى طوائف متحاربة باقية ما بقيت هذه الديانات، وأضعفت بالتالي الروح الدينية وتأثيرها على اتباعها مما تركت مجالا رحبا لنزعات الحادية وتصورات غريبة وبدع. وبسبب هذه الديانات المذهبية نشأت تلك التصورات الخاطئة التي أضعفت العرب والإسلام والتي حددت مسار التاريخ ومعالم الأشياء. إن المشترك لدى جميع الديانات المذهبية السنية هو تبنيها لمنهج القياس، وكذلك المنهج العقلي للمعتزلة.

إن المتتبع للأصول الفكرية والفقهية للديانات المذهبية يرى فيها خلطا لآراء وأفكار لا تجتمع مع بعض، وهو ما تسبب وما زال يتسبب في الفوضى والتناقضات في هذه الديانات. إن الشائع اليوم لدى من يسمون بأهل السنة والجماعة هو الفكر الأشعري الذي يمثل امتدادا لفكر ابن حنبل، الذي لم يكن ديانة مذهبية، بل إن ما عمله وما قال به لم يكن سوى رداً على آراء

المعتزلة، أي أنه عمل ضدهم وفق مبدأ النقيض. ولم يناقشهم في صلب منهجيتهم ،وإنما كان يعترض على بعض اطروحاتهم مثل « نفي الصفات والقول بخلق القرآن ». إن أمراً كهذا ليس ذا أهمية للدين أو للفكر، المهم فيه هو موقفه العدائي من الشيعة و المعتزلة. لقد تبنى الأشاعرة مواقف ابن حنبل ضد الشيعة والمعتزلة، لكنهم تبنوا المنهج المعتزلي ذا الطبيعة العقلية النظرية. وصار اللاهوت الأشعري من ناحية عقليا، ومن ناحية أخرى فقها دينيا متخلفا ومتناقضا. وعلى الرغم من تبنيهم لمنهج المعتزلة العقلي في فهم الأصول الدينية وتفسير الظواهر الطبيعية نرى ان الأشاعرة أنكروا قانون السببية ورأوا فيه « مجرد عادة ». إن السؤال الباقي هو كيف يمكن لهم البرهان على « صحة عقائدهم الإيمانية » إذا كانت « المقدمات العقلية » لدينهم لا تتمتع « بالضرورة العقلية ؟ هذا هو بالتأكيد واحد من مصادر الخطأ والتشويه والانحراف في العقيدة الدينية الإسلامية التي تمت على أيدي ما يسمى بمشرعي الديانات المذهبية وأئمة الفقه. من هنا يظهر التناقض بين النسق المعرفي (المذهب) والمنهج، بين الصورة والمحتوى. إن ديانة كهذه لا يمكن أن تخدم الإسلام ، ولا يمكن أن ترسي قواعد إيمان صلبة، وإنما وسيلة تدميرية لوحدة الدين وتمزيق للوعي الديني. ونرى أن رجال العلم الحقيقيين انفصلوا عن هذه الديانات ومبادئها، واتخذوا في الغالب ما هو مناقض لها، أي الديانات التي تقف في الجهة الأخرى من هذه الديانات. إن لاهوت الديانات المذهبية إلى جانب ابتعاده عن الروح الحقيقية الإسلامية، نجده نسقا فكرياً متخلفاً حتى عن طبيعة الأطروحات العقلية والعلمية لذلك الزمان، ومنغلقاً على نفسه لا يقبل التعديل أو التجديد. لذا فإن مجددا ما لا يستطيع أن يلغي هذا اللاهوت كلية، بل يحاول أن يضيف إليه بعض المبادئ كما فعل الغزالي مع اللاهوت الأشعري حيث واصل « طريقة

المتقدمين » تلك ، وأخذ « بالمنطلق الأرسطي » بمعناه الواسع. من الممكن أن يرجع الإنسان في أحكامه وتصوراته إلى القرآن والسنة وسواها، لكن النتيجة المستخلصة في النهاية هي استنتاج منطقي تحدده طبيعة المنهج المتبع. لو عولجت قضية ما وفق المنهج المنطقي الصوري، أو المنهج النقدي المتعالي، أو المنهج الجدلي، أو المنهج الاستقرائي، أو المنهج الاستنباطي فإننا بذلك سنحصل على نتائج مختلفة ومتناقضة تماما تبعا لاختلاف وتناقض المناهج فيما بينها. بهذا تخضع القيمة الدينية ونتيجتها للمنهج، وذلك يعود إلى أن المنهج يبحث في الواقعة في تلك العناصر التي تهمه بالدرجة الأولى، ويهمل أو يتجاهل ماعداها، وبهذا يكون الحكم الديني ناقصا دائما ناهيك عن الخطأ الذي يمكن أن يقع فيه. الحكم الشرعي الصحيح في الدين هو ذلك الحكم الذي يكون نتيجة واشتقاقا من العرف الذي قام عليه الدين بذاته. المهم في الحياة الدينية ليس تأليف الكتب، بل ان يعيش الإنسان الدين كعرف وطقوس حياتية واجتماعية (عادات، تقاليد، وقيم اخلاقية...إلخ). من التشريعات والكتابات لا تنشأ الحياة الدينية، بل إن ما يعرفه وما يعيشه الناس في يومهم هو مواريثهم فقط، وليس ما يوجد في صفحات الكتب التي، وإن قرأوها، لا يفهمون منها شيئا وبعيدة عن وقائع حياتهم اليومية. إن عالم الأفكار بالنسبة للعامة عالم بعيد المنال، أما قدراتهم العقلية وكفاءاتهم فإنها نتاج البيئة والظرف الذي يعيشون ويجدون فيهما أنفسهم.

من هنا نطّلع على طبيعة الصراعات الفكرية والعقائدية، سواء داخل الديانة الواحدة، أو الديانات المذهبية فيما بينها. لهذا اختلفت الديانات المذهبية بتشعباتها المختلفة في جميع الشؤون الدينية والدنيوية بدءاً بالصلة باللّه وانتهاءً بأبسط الأمور الحياتية. إن واحدة من الأسباب التي أدت إلى تمزيق الروح الدينية الإسلامية هي المواريث الفكرية والدينية للحضارات

والثقافات التي عرفتها الرقعة الجغرافية التي خضعت للإسلام، والتي صارت منذ العصر العباسي موروثا دينيا إسلاميا. لقد منحت الأفكار الدينية والثقافية صورة اسلامية، واصبحت في الغالب هي المعنى الكامن في صلب الأفكار والقيم الدينية الشائعة عن الإسلام عن طريق تضمينها في النص القرآني. ليس هذا فحسب بل لقد ظهرت إتجاهات فكرية وعقائدية تعمل وفق مناهج فكرية فلسفية لا تعبأ بالدرجة الأولى بصحة الحكم الديني أو الفكرة الدينية، وإنما تحاول البرهنة على صحة منهجها في البحث بحيث أنها تحصل على النتائج التي تريدها من البداية، أي أن حقائق الاتجاه الفكري والديني هي الحقائق الوحيدة الممكنة.

لقد جرى التعرض في الديانات المذهبية والإتجاهات الفكرية إلى أغلب الأمور الدينية التي عرضت في القرآن، أو التي نشأ من خلال حركة تطور الفكر. لهذا فقد ظهرت اتجاهات فكرية ومذاهب تختلف في تأملاتها الكونية كما ونوعا. وتغيرت طبيعة بالعلاقة بالله في هذه الديانات المذهبية والاتجاهات الفكرية ظهرت اتجاهات فكرية تنكر الإلوهية والنبوة، ويرد عليها بصور وآراء مختلفة تنقصها الروح الدينية الإسلامية التاريخية، ولا تبحث هذه الآراء والتصورات إلا طبقا لمنهج فلسفي او منطقي معين، وتصبح النتائج النظرية الخالصة هي الشيئ الوحيد المطلوب وليس جزأها التكويني - التاريخي من وفرة المادة التاريخية الدينية. وتصبح مسألة وجود الله لدى البعض ترتبط بقانونية الكون عامة على أساس أنه كون موحد، او عن طريق الاستنتاج الغائي للعملية الكونية من قوانين الطبيعة الميكانيكية التي تقوم على رؤية غائية لأساس موحد للكون، أو ينظر إلى الوجود الإلهي أخلاقيا عن طريق استنتاج استقلالية الوعي العرفي تجريبيا في الوحي المحايث للإرادة في الوعي البشري. كل هذه التصورات والآراء في الله لا توصل إلى وعي

الطبيعة الإلهية. كما ظهرت تصورات ومذاهب شتى منها ما يفترض الإله الشخصي كخالق ومسير للعالم، ومنها ما يقر حضور اللّه في كل فعل بشري، ومذهب آخر يلغي روحانية اللّه على أساس عدم اتفاق وانسجام شخصانية اللّه مع الإطلاق.

لقد ثبت الإسلام وحدد العلاقة بين اللّه والعالم على أن اللّه هو خالق هذا الكون، وهو السبب الاستثنائي والوحيد له. إن الإسلام طرح بدلا من تصور نشوء الكون من الفوضى نظرية اللّه خلق العالم من « لا شيئ »؛ وفهم الناس النص القرآني حيث قامت العقيدة على وحدة اللّه وخلق العالم من لا شيئ (العدم)، لكن اللاشيئ لا يعني العدم، لأن هذا سيكون مشكلة بالنسبة للفكر، حيث أنه من لا شيئ لا يصدر (لا يخلق) شيئا، بل إن فعل الخلق (الكينونة) كان في اللّه، لكن الفعل لا يقع على اللّه بل على الشيئ. أثار هذا ردودا سلبية لدى الموالي والغرباء بحيث بدأوا يبحثون عن تفسير ملائم لهم، هذا التفسير لا يمكن أن يعثروا عليه في القرآن، لذا التجأوا إلى دياناتهم القديمة كما حدث مع الموالي حيث فسروا خلق العالم على انه « امتزاج النور(*) بالظلمة ». وهكذا نشأت حرب فكرية وعقائدية بين هذه الطوائف تركت بصماتها على تطورها الفكري وانحرافها عن روح الدين الإسلامي. لقد جندت الاتجاهات الإسلامية امكانيتها لمحاربة الغزو الفكري المجوسي، وعن هذا الصراع ظهرت اتجاهات فكرية جديدة وطوائف دينية داخل ما يسمى بالمعسكر الإسلامي كاتجاهات « الماتريدية » « والأشعرية ». وتسربت الكثير من التصورات الفكرية والدينية للمجوسية وغيرها إلى الاتجاهات الدينية الإسلامية حيث امتصت بعض جوانب تصوراتها العقلانية؛ كل مدرسة فكرية أو اتجاه ديني يستعير من الآخرين المبادئ التي تلائم

(*) مفهوم النور في الديانة الزرادشتية مأخوذ عن إله « الشمس » البابلي.

تصوراته وتوجهاته الخاصة كما حصل مثلا بين الاتجاهين المتعاديين المعتزلة والأشاعرة، حيث استعار الأشاعرة « المنهج العقلاني» للمعتزلة لكي يتمكنوا « من التعامل مع منطق أرسطو، وتبني قواعده الفكرية ». بهذا تتعدد مظاهر الحياة الدينية والفكرية في البلدان الإسلامية، واالتي أدت وما زالت تؤدي إلى تمزيق الكيانات الاجتماعية للأقوام الإسلامية بسبب ان كل اتجاه ينشأ له تصورا خاصا به عن طبيعة الدين والشعائر والطقوس والعبادات.

لسنا بصدد عرض تاريخي للمدارس الفكرية والديانات المذهبية وإنما من أجل عرض المنهجية التي تعرض لها الدين والتاريخ العربيين على ايدي الموالي والغرباء. واعتمدت المدارس الفكرية والدينية التصورات الغريبة التي شاعت في ربوع الدولة العباسية آنذاك، ولم تسلم منها لا التصورات عن اللّه والخلق ولا الطقوس والعبادات. ولا يمكن لهذه التصورات أن تكون نتاج الروح العربية التي تنسجم وتتفق مع الشرع والتصور الديني عن اللّه والكون، وإنماهي تصورات الغرباء التي نشأت في ربوع اسلامية، لكنها بقيت غريبة عن هذا الدين وتاريخه، ولا بد لها من أن تخلق لها تصورا يشبع رغباتهم الدينية، بمعنى أنهم يصممون الدين طبقا لمتطلباتهم ورغباتهم الدينية والنفسسية والإجتماعية والتاريخية. إنهم يعرفون اللّه كفكرة عرضها الإسلام متجاهلين تاريخ الألوهية وما الذي يعنيه اللّه بالنسبة لهذه الشعوب وأعرافها ومقومات وجودها النفسية والاجتماعية. بدأت استعارة مفاهيم شتى من مصادر مختلفة كالديانة اليهودية، و الزرادشتية، والديانات الهندوسية والبوذية، و الفكر الهليني، وخاصة المذهب الصوفي الذي ترك بصماته على الحياة الدينية والفكرية في الربوع التي خضعت للإسلام. الفكر الهليني فكر صوفي في صلبه بدأ بأناكساغوراس الذي قال بأن العقل يحكم (يسود في) العالم حيث تطورت هذه النظرية الفكرية لدى فلاسفة

المدرسة الإيلية الذين قالوا بأن الكون هو مجموعة تعينات عقلية، وصار العقل لدى ارسطو من بعد وفاته على انه الله، وفي هذا بداية التأمل النظري الخالص. لقد أخذت هذه التصورات الفلسفية في العالم والله بعدا دينيا لدى الأفلاطونية الجديدة التي وقف على رأسها أكبر العقول المفكرة الصوفية الا وهو أفلوطين الذي تحول عنده مفهوم العقل إلى مفهوم الواحد الذي يحوي في ذاته على كل شيئ. إن هذا العقل الكلي لا يمكن أن يدرك شيئاً مغايراً ومختلفاً عنه، وإنما يدرك ويعي نفسه في كل شيئ، بمعنى أن العقل يعرف نفسه في كل الأشياء. على هذا الأساس تتحدد طبيعة الله والخلق. يقول البعض إن الله خلق كل شيئ من نفسه، وان ارادته جوهر كل شيئ، معنى ذلك أن الخلق يوجد في ماهيته وجوهره في الله، ومع ظهوره يسقط خارج مجال الألوهية، والكون كجوهر مخلوق من قبل الله ويختلف عنه ماهويا وجوهريا، ويقف قبالته غريبا ومنفصلا عنه. إن ديمومة واستمرارية الخلق هو خلق دائم مستمر لأن جوهره يتواصل من خلال ديمومة الإرادة الإلهية. من يفكر بهذه الطريقة يقر في نهاية الأمر بأبدية العالم كالله، بينما يرى الدين الإسلامي أن العالم والزمان والمكان كانت بدايتها مع بداية الخلق. تقود هذه التساؤلات إلى معنى الخلق وضرورة وجوده. إن النظرية التي تقول بأن العالم صنع من الماهية الأزلية لله ذاته مع ضرورة أبدية؛ لو أن الله اضطر أن يخلق العالم من نفسه مع وجود امكانية الاستثناء، عندها لم خلق الله العالم بدلا من أن يبقي عليه غير مخلوق. إن تبرير هذا الرأي مفاده أن الله خلق العالم من أجل سعادة البشر، ليس في الحياة الأرضية التعيسة، وإنما عند نهاية العالم. إن مثل هذه التصورات الساذجة والتافهة للغاية عن العالم هي التي استعارتها الديانات المذهبية والمدارس الفكرية من الأفكار الغازية الجديدة التي غزت البيئة الإسلامية بلا مقاومة.

لقد استعارت الديانات المذهبية والمدراس الفكرية المختلفة الكثير من أساليب التفكير والمناهج لإنشاء حقائقها وتصوراتها الخاصة عن الإيمان والغيب والله وغيرها على أنه نوع من البحث عن الحقيقة عموما، والحقيقة الإلهية بشكل خاص. لقد ظهرت اتجاهات فكرية ودينية تدين بمذهب وحدة الوجود الذي يستنتج من خلال محايثة الحياة الأزلية في الحقيقة كحياة حاضرة باطنيا، وان تشبع الرغبة والشوق إلى الحياة الأزلية كاملة بحيث أن الوعي الديني لا يمتلك دافعا يبحث عنه في الغيب، ويقضي بذلك على الرغبة نحو الكمال الشخصي في الغيب عن طريق اليقين، كما وأن الماهية الأبدية تواصل العيش بعد الموت الفردي حياتها المشبعة بالله في الأحياء وفي التطور التنبؤي للكل. أما المدارس الفكرية الفلسفية التي تقوم في صلبها على معرفة ذات مع الله تظهر للوعي الديني كوحي إلهي، وتصير بالنسبة له من ناحية أخرى نقطة تحول من انقسام الوعي المغترب إلهيا إلى وعي متصالح مع الله، أي إلى مبدأ الإنقاذ. وبهذا عندما يصل الوعي الديني بطريقة مباشرة إلى تعين وحدة الماهية مع الله، أو المحايثة عندها فقط يمكن أن تتوسع ذات المعرفة إلى قوة مطلوبة في الوجدان من أجل أن تصير مبدءاً فعالا للإنقاذ، إلا أن مثل هذه المعرفة المفهومية التجريدية لوحدة الماهية مع الله تستخلص عن طريق الانعكاس البرهاني، وتمتلك بذلك في ذاتها لذاتها قيمة ضئيلة.

لذا فإن ما يتميز به الفعل الديني للوحي انه ليس نتاجاً لعاملين إلهي وبشري مع علاقة متبادلة، وإنما هو إلهي حيث يوجد وفي الوقت ذاته كبشري. الفعل الديني في الحقيقة طبيعي عندما يعتبر الإنسان المطلق محايثاً لطبيعته الخاصة، بمعنى الطبيعي وما فوق الطبيعي في نفس الوقت، ويستعمل المرء مصطلح طبيعة على النقيض من التعين الروحي المتعالي

للإنسان طبيعيا. من الطبيعي في هذه الكلمة يكون الفعل الديني مطابقا لصورته بقدر ما يرتبط هو ومحتواه ببساطة بالقوانين النفسية لمسار التصور والحافز ما فوق الحسي، ويكون عندها الفعل الديني في ماهيته وهدفه بقدر ما يقوم على أساس واحد مفارق للروح الفردية ،وينتسب ذاته إلى أساسه المفارق متعاليا، لأن الروح البشرية تقوم على أساس مفارق. ليس الوحي وسواسا لروح من الخارج، وإنما يتم من خلال الفاعلية الذاتية للروح الإنسانية وفق وساطة قوانين ثابتة (لا تتزعزع) خاصة بها. الوحي حادثة لا يمكن أن تصدر من الفاعلية الذاتية للروح البشرية، عندما يكون الإنسان ماهية طبيعية، أو خلق غريب ومختلف عن اللّه، وعندما لا تكون ماهيته اللّه وفطرته وسيلة مختارة من اللّه لأحل غاية إلهية. كل فعل ديني هو وحدة فعل إلهي للوحي، تبليغ ذاتي للإنسان، فعل بشري للإيمان، وولاء وتسليم للّه. يفهم من هذا أن الوحي والإيمان ليسا فعلين لذاتين مختلفتين، وإنما هو نفس الفعل للذات الأحادية، ولكنهما يسميان بأسماء مختلفة بالنسبة لصاحب الدعوة وشعب النبوة. وعليه يمكننا القول بأن الوحي ليس تجلي (إيحاء) ذاتي في الإنسان في أن يبحث كإعلان اللّه في الإنسان عن طريق الفاعلية الذاتيه البشرية التي تقوم على أصل إلهي. إن خصوصية الفعل الديني ليست في الذات المجردة للّه، وإنما في الطريقة الخاصة للفاعلية الذاتية البشرية. يظهر المفهوم المعروض للوحي دور مؤسس الدين في إنارة مختلفة تماما عما يعمله مفهوم الوحي ما فوق الطبيعي. يظهر التأثير التاريخي لمؤسس الدين الآن كواقعة روح قانونية وجسامة مستقلة جزئيا عن القوى التدرجية التي صار فيها مبدأ المحايثة حيا جزئيا، ويتوقف على طاقة الطبع، التي يتقابل (يتجمع) معها التسامي الديني جزئيات من انسجام العلاقات القائمة ثقافيا وتاريخيا مع صور حادثة (متشكلة) للإعداد (التحضير) الذي يحصل عند تبليغ الوحي. لهذا يصير الغابر في هذا التجهيز (الإكساء) عادة

حافزا للتأثيرات التاريخية الثقافية الكبرى، ويساعد بذلك القيم الثمينة أن تبلغ مكانها، وأن يعثر عليها من خلال نفسها ذاتها، ولكن بصعوبة.من أجل عقل تاريخي نزيه، غير مغرض لا يجهل المبادئ الجديدة، أيضاً، في التاريخ الديني كما في التاريخ الدنيوي في ظهورها للمرة الأولى لدى الشخصيات التاريخية التي تغير مسار الحياة والتي تكشف عن قوة هائلة مدمرة، ووفرة غزيرة، وتطور غني، إن هذا قانون تاريخي عام، وإن المبادئ الجديدة معنية أن تنقل في ظاهرتها من البداية تنوعا مع القديم الذي انفصلت عن المبادئ اولا، وهنا تتخمر العناصر الأكثر تناقضا إلى عدم وضوح عن طريق شيئ آخر، هذا الشيئ الآخر هو الأكثر تغايرا وعدم الإنسجام في الباطني؛ يرتبط تأثير الجديد بصورة لوحة العالم القديمة التي يحاول أن يتخطاها، وأن يذللها تماما. وبهذا يكون التطور المستمر ليس توسعيا وإيضاحيا، وليس كاملا (مكتملا). عندما لا يتصاعد الفارق بين الوحي الديني لمؤسس دين والوحي الديني لأعضاء الجماعة من الواقعي إلى المطلق، بهذا يكون الوحي الديني في هذه الحالة بين مؤسسي الديانات المذهبية المختلفة أقل بكثير. إن كلا من هذه الديانات المذهبية تمتلك خصوصيات محددة وهي أنها تخضع أقوامها لميدان سيادتها. عن هذا ينشأ ان الجماعة الدينية التي تتكون من الشخصية والأعمال الحياتية لمؤسسها تنعكس وتتموضع في وعيها الديني الخاص بها، أو آرائها في ماهية دينها عموما.

يتبين هذا الفهم الظاهري في كل تاريخ الديانات المذهبية كما في عمل الإنقاذ الشيعي، إن الفهم التصوري بحاجة إلى أن يتأمل المبادئ الباطنية الروحية للخطيئة والإنقاذ في صورة حسية عينيا، أي شخصانيا (في صورة المهدي المنتظر). يتعرض في حالة تجاوز الفهم الحسي ، الظاهري والرورحي - الباطني الوعي الديني إلى صعوبة، لأنه لا يكتفي بالفهم الروحي، وإنما

بالظاهرية الحسية كأساس تمكيني من أجل التمسك بالفهم الروحي، ويجب عليه أن يرتبط بتصور واقعة عن طريق البعد الزماني، المكاني للحساسية. من خلال الطقوس المقدسة والعبادات التي ربطت بشخص الرسول وتقديس أعمال الصحابة ومؤسسي الديانات المذهبية خفف وجعل من شر الاغتراب عن الله قضية مزعجة لا غير. لكن لا بد من هذا الفهم الأساسي الخاطئ الذي ينحصر في اعارة مبدأ صبغة إلهية مع ظاهرته البشرية، لذا يجب أن يصحح من البداية إلى النهاية هذا الفهم الخاطئ الذي استبدل التاريخ العربي وطقوسه بتصورات أعجمية قدمت على أنها تشريعات دينية نبوية ترتبط بشكل مباشر بحياة الرسول (ص) والصحابة، وتفيد بالتالي على أنها المعيار الحقيقي للدين وللقيمة الدينية. لو أنه بدلا من أن يبحث غياب الحق، عن وحدة الإلهي والبشري في الوعي المستقل لأي وجدان ديني في الشخصية الأحادية للمنقذ وأن تضيع في الشخصية الأسطورية حقيقة الإنساني، بهذا لا تكون الديانات المذهبية العقلية على حق لأنها تنكر بشرية الله في انسان خاص لأنها تجهل بشرية الله في البشرية عموما، ويزول بالتالي بالنسبة لها الإلهي من الدين، أو يبتعد في الجهة الأخرى (الغيب) المفارقة للإنسان. إن من يريد أن يسمي « المهدي المنتظر » منقذا عليه أن يوضح هذا الأمر، وهو أن هذا يمكن أن يحدث في معنى يصدق على عيسى، وموسى، وبوذا وغيرهم. إن الإقرار بعودة المنقذ لا يسمح ان يظهر بعد ذلك في التزمت. ليس المهدي التاريخي هو ما يصلح للمذهب الشيعي النظري الخالص كمنقذ، بل انه ملحمة مثالية لهذا الإسم تخدم كتشخيص رمزي لمبدأ الإنقاذ الروحي بشكل خالص؛ في هذه الرؤية تتضائل اسلامية الدياناتة المذهبية الشيعية النظرية، شأنها في ذلك شأن جميع الديانات التي تقوم على مثل هذا المبدأ، وخاصة في التمسك بالتوجيهات والوصايا التربوية. في فكرة المهدي اختلاق مثالي رمزي، وثانيا في مطالب البر التاريخية قبل الإسلام

كديانة إنقاذ محايثة، وهي مصادر دينية وثنية. عندما يتكلم الشيعة وسواهم عن المهدي، أو المنقذ فإنهم يعثرون في المهدي (المنقذ) على خلاصهم ورضاء اللّه عليهم، وينعمون من ثم بالسعادة؛ إنهم يعون بذلك، حيث انهم يفهمون مصطلح المهدي (المنقذ) الشخصي رمزيا، من ان يستطيع هذا الوهم الرمزي أن يطلب، أو يدعي لنفسه حقيقة تاريخية، أو حقيقة نظرية خالصة. إن مثل هذا الإفراغ للحقيقة الدينية المطلقة إلى رمز وهمي يجب أن يتنبه إليه أي مسلم عربي كمحاولة اعتماد (استناد) ايجابية لمصادر دينية كلعبة عديمة القيمة مع اختلافات لا أساس لها.

يقوم الدين على طقوس وعبادات يختبر فيها الإلهي كحاضر. ويوجد في كل حقيقة غموض، أي عدم في أي طقوس العبادة، التي تكون مصدرا للخطأ. في هذا يوجد ببساطة وبكثرة مصدر السحر والشعوذة والخرافات. يؤثر السحر كالصلاة باطنيا بالنسبة للشخص الذي يؤمن بتأثيره،ولكن ليس بالنسبة للشخص الذي لا يؤمن بتأثيره، ولا بالنسبة للشخص الذي اطلع على أوهام أن يكون التأثير الموضوعي لنشاط العبادة هو المحضر « بطريقة لا واعية ». لهذا فإن كل شيئ يرتبط بالنشاط البشري وينضج تحت تأثير فاعليته. لذا عندما اقف خلف منقذ خارجي، مفارق لوعيي، فإنه يمتلك معنى في حالة هي انني أنا اللّه واقف خارج نفسي، أو اعقله مفارقا، ولكن حالما أعرف أن اللّه محايث لي، فإن هذا يحقق لي مبدأ الإنقاذ المحايث لكل شيئ بشكل تام، انه منقذ موجود في الخارج. لكن من يعتقد أنه بالإمكان الاستغناء عن المنقذ، فإن الشخص يبدو غير ناضج ومارق بالنسبة للديانة المذهبية الشيعية ولكل ديانة تؤمن بالإنقاذ عموما.

من الواضح أولاً أن الديانات المذهبية التي شرعها الموالي والغرباء شيئ ما آخر غير ذلك الذي علمه الإسلام والرسول أو كان في نيته تعليمه؛ ثانيا

أن الديانات المذهبية تمثل موقفا مضاداً للنظرية الدينية الإسلامية، أو للرسالة المحمدية في أحكامها في جميع النقاط الأساسية. وهذا يرجع إلى أن الديانات المذهبية وتشريعاتها تقوم على محاولة تعديل أعجمية للديانة الإسلامية وتشريعاتها من مصادر غير عربية وغير اسلامية. من الصحيح أن محمد (ص) ليس مؤسسا حقيقا لديانة إنقاذ التي تظهر قوية في الديانة المذهبية الشيعية، أو ان يسمى مؤسسا لديانة انقاذ محايثة، أو ان يقدس على انه كذلك؛ خلاصة القول لا توجد استمرارية مباشرة بين الرسول (ص) والديانات المذهبية التي سنها وشرع لها الموالي والغرباء والتي تقدم نفسها على انها الإسلام ذاته.

إن التناقض بين الديانات المذهبية والإسلام أكبر بكثير من تناقض هذه الديانات المذهبية مع الديانات الوثنية أو سواها من الأديان الأخرى. والوعي الديني المحتويات المتعلقة بالدين الإسلامي وكذلك ديانة الإنقاذ السحرية الخارجية، ويقود إلى مستوى مستقل لديانة المحايثة. بعد ذلك هل يمكننا القول بوجود ما هو إيجابي بالمعنى الإسلامي في الديانات المذهبية، إن كان فيها حقا جانبا دينيا فإنه لا يرد إلى الإسلام إلا ظاهرا على أساس أنها تبنت السيرة النبوية، لكنها مدينة في واقع الحال للتأملات غير الإسلامية التي ورثتها من مصادر ثقافتها قبل الإسلام.

# الخاتمة

إن ما يتميز به هذا العمل هو طابعه التحليلي المنهجي الذي يرسم للقارئ الإسلوب و الطريقة اللذان يمكنانه من أن ينظر إلى الأمور المعهودة بروح نقدية، وأن يبصر الماهية الباطنية للأشياء. إن الذي يكشفه لنا هذا العمل هو الخطأ التاريخي الذي يعيشه الناس باسم الإسلام، والتخريب المنظم لهذه البلدان بسبب الجهالة والتخلف. إن الأقوام الإسلامية هي أقوام ميتة روحياً، لم تفعل لنفسها شيئا إيجابيا في الماضي وفي الحاضر. لكن الأسوء من هذا كله هو تواصل واستمرارية التخلف والجهل في رسم وتحديد مشاكل العصر ومتطلباته. الغريب أن الماضي المتخلف هو الذي يسود ويهيمن على حياة الناس ونشاطهم. لهذا السبب نرى أن نشاطات هذه الأقوام الحزبية، أو الدولة، أو الثقافة أو الدين متخلفة عن متطلبات الواقع التاريخي؛ إنها ليست أكثر من انفعالات، وإن دلت على شيئ فإنها لا تدل إلا على الطبيعة المتخلفة لهذه البلدان وتدني مداركها العقلية. ذكرنا في هذا العمل بعض الأسباب منها أن « الأقوام الإسلامية » سوادها الأعظم ليست شعوبا تاريخية، إنها لم تمتلك ثقافة خاصة بها، أي أنه لم تتطور لديها قوى روحية و فكرية لأن هذه القوى هي تفتح روح الشعب في صيرورتها التاريخية. لهذا فإن الشعب الذي لا يعرف تاريخا لا يمتلك عقلا. لهذا السبب نرى أن نشاطات هذه الأقوام تتسبب دائما بالكوارث والمآسي لأنها لا تمتلك خبراتها التاريخية الخاصة بها.

نلاحظ هذا اليوم كما في الماضي عندما حاولت هذه الأقوام الدخول في التاريخ وجدت كل الأبواب مغلقة بوجهها لأنها في كل تاريخ وجودها لم تفعل لنفسها شيئا، انها لم تفتح ابواب التاريخ؛ لهذا تكون نشاطاتها وافعالها عنيفة وغير مقبولة من الآخرين، ومن الصعب التعامل أو العمل بها لأنها لا

تمثل قيمة كونية تاريخية يمكن أن ترد إليها، لهذا تكون غريبة وغير مرغوب فيها. إن نشاطات وفعاليات الأقوام الإسلامية اليوم باطلة لأنها لا تنتمي إلى التاريخ الحديث، الذي لم تشارك فيه البلدان بعد، وهو السبب الذي يدفع الآخرين للتفاعل بشكل سلبي ضد دعاوى وتطلعات هذه الأقوام لأنها تطلب أشياءً لا تعرفها، ولم تشارك فيها، لأنها خارج العملية التاريخية، وتكون نشاطها وفعاليتها مزعجا للآخرين.

إن نشاطات هذه الأقوام هي حركة في الفراغ، ولا اسس لها في الواقع والتاريخ. وقد دعت هذه البلدان وما زالت تدعو إلى القيم الغربية رغم عدائها الوهمي لها، وانها دعاوى متخلفة غير صالحة ليس للغرب، وإنما لهم انفسهم. ونشأت في هذه الربوع حركات وأحزاب تدعو إلى الإشتراكية، وأخرى إلى القومية، وأخرى دينية إلا انها لم تلق استحسانا بين ما يماثلها من الأحزاب الغربية، ولم يعترف بها على انها امتداد للحركات السياسية في العالم الغربي. لهذا تكون النتائج دائما مدمرة لهذه البلدان لأنها تجهل في الأساس الشيئ الذي تدعو إليه. تعيش بالنتيجة هذه البلدان دائما وابدا في حالة حرب داخلية. إن التناقض الأساسي في سلوك هذه البلدان وتنظيماتها وأحزابها، هو الأمر الذي يتسبب في سخط الآخرين عليها، إنها تبطل لنفسها دورا طليعيا في العملية التاريخية الجارية التي لم تشارك فيها بعد، معلنة للآخرين بأنهم الأحسن والأفضل. تحاول البلدان العربية والإسلامية منافسة الغرب على حضارته وإنجازاته ، وعندما تشعر بالعجز أمامه لا يبقى لها سوى الصراخ والتهجم على هذا العالم ومحاولة البحث عن حلفاء يقفون من هذا العالم نفس الموقف، بالطبع لا يجدونهم إلا في أوروبا ذاتها. بعملهم هذا يخلقون لأنفسهم أعداء لا قدرة لهم عليهم لا اليوم وبعد الوف السنين. من الغريب والمضحك أن هذه البلدان وتنظيماتها وأحزابها المتخلفة تحاول القيام بنقد الأنظمة الرأسمالية الموجودة في الغرب والتي لا يعرفون ولا يفهمون شيئا من آليتها وقدراتها التنظيمية والاقتصادية والعلمية. ليس هذا

فقط حيث أن بعض الأحزاب والتجمعات الدينية بشكل خاص تنتقد وتكيل اللوم للنظام الغربي على أنه لا إنساني وكافر وجشع؛ إن كان في هذا بعض الحق إلا انه النظام الأكثر صلاحية لأفراد هذه التجمعات لأنه يوفر لهم وسائل العيش التي تحلم بها الشعوب المتخلفة. تبدأ هذه الدول بالدعوة لنفسها على أنها الأحسن، أما الأحزاب الدينية فإنها تقدم نفسها على أنها البديل التاريخي لهذا النظام وثقافته بحجة أنهم يقدمون الإسلام كعقيدة إلهية قادرة على حل مشاكل الإنسان والمجتمع بشكل عادل لأنها تطبق في شرعها وقوانينها العدالة الإلهية. هذا يعني أنهم يقدمون انفسهم بديلا لهذا الواقع وقيمه على انهم الطليعة والنموذج البشري والأخلاقي الأكثر صلاحية. لو يتأمل المرء هذا الموقف الساذج والمتخلف ويسأل هؤلاء الدعاة، كيف يمكنكم أن تقدموا أنفسكم كبديل لهذه المجتمعات وهذا التاريخ وانتم لستم عضوا فيها، ولم تشاركوا في هذا التاريخ، بل انكم خارج هذا التاريخ، انكم تقفون في الجهة الأخرى منه، بمعنى ان وجود هذه البلدان وأقوامها وجود لا تاريخي.

عندما تجد الأقوام والمجتمعات نفسها في مثل هذا الوضع يحق لها أن تطلب لنفسها شيئا من الآخرين لأنها لم تنتج ولم تخلق لنفسها شيئا؛ إن مطالبتها بحقها من هذه البلدان سوف لن يكون حقاً بل صدقة، أي أن عليها أن تتسول من هذه البلدان. الكثير من البلدان « العربية » التي لم تمتلك مصادر ثروة كالنفط وغيرها أدركت هذه الحقيقة، ولذا فإنها تعتمد وتعيش على الصدقات التي تمنحها لها البلدان الصناعية الغربية وأمريكا، وهي بذلك مستعدة لتلبية أي طلب.

تدعو بعض الأحزاب في هذه البلدان إلى وحدة « الأمة العربية »، ولو ينظر الشخص في داخل هذه المجتمعات يرى الواحد منها ممزقاً داخليا إلى طوائف وأقليات قومية ودينية متحاربة، أما حل هذه المشاكل فمن غير الممكن عن طريق « الوحدة العربية » بل تقسيم هذه البلدان إلى دويلات قومية ودينية

أصغر وأكثر فقرا؛ أما الدعوة الدينية التي تتخطى فكرة « الوحدة العربية » إلى « وحدة إسلامية » تضم كل من يقول اشهد أن لا إله إلا اللّه، والكل يعرف انه إلى جانب الصراعات العرقية والقومية هناك صراعات ألعن وأشد بين الديانات المذهبية المختلفة والمدارس الفكرية التي لا تضيع الإسلام فقط، وإنما أقوامها وشعوبها. كيف يمكن توحيد كل هذه التجمعات في تجمع واحد، ناهيك عن التباين في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والتاريخية. إن هذا الفهم الساذج يعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الثقافي والعلمي لهذه البلدان، ذلك لأنها لم تمارس ولم تعرف العلم والبحث العلمي يوما. إن من يمارس البحث العلمي يدرك طبيعة الصعوبات والجهود التي يجب أن تبذل من أجل استخلاص نتائج علمية ضئيلة، عديمة الفائدة في ذاتها، إلا انها ضرورية من أجل دفع عجلة التطور. جامعات، معاهد، مراكز أبحاث، أموال طائلة، جيش بشري من الباحثين الذين جندوا أنفسهم لخدمة العلم وتطوير التقنية يعملون من أجل تطوير العلم والتقنية ولكن بخطى بطيئة، لأن دولهم تحل مشاكل معينة آنية تطلبها الصناعة، بينما البلدان المتخلفة تتكلم بلغة التعميم التي لا تحتوي على مضمون عيني محسوس يمكن أن يفيد من أجل خدمة أو تطوير قضية ما لأنه لا وجود للبحث، لذا يكون كل ما تدعيه هذه الأقوام في جميع مجالات الحياة ثرثرة وأقوال فارغة ومزعجة بالنسبة للآخرين، لهذا يكون نشاط هذه البلدان ضمن هذه الشروط والإمكانيات وبالا عليها لأنها تألب عليها الآخرين ولأنها تفهم الأمور بشكل خاطئ وفي الغالب بشكل عدواني، ولذا فإنها الخاسرة دائما، حتى في أعدل مواقفها. يسد العالم الآخر أذنيه ويغلق عينيه حيال مطالب هذه البلدان لأنها عديمة النفوذ والقوة، ولا تمتلك شيئا وتعيش في أحسن احوالها على الفضلات التي تقدمها البلدان المتطورة.

لقد اكتشفت هذه البلدان بعد الهيمنة التركية (الفترة المظلمة) التي دامت قرونا، وأتت على الأخضر واليابس، وعادت هذه البلدان إلى وضع أكثر

تخلفا مما كانت عليه قبل الإسلام. كان العراق قبل الغزو التتري - المغولي أكثر تطورا منه في القرن العشرين؛ هذه نتيجة الهيمنة الأعجمية على مقدرات العرب، التي نعاني منها اليوم واللّه وحده أعلم بما سيفسر عنها في المستقبل. إن الذي اوصل العرب والإسلام إلى هذا الحضيض هو أولا ما يسمى « **بالفتوحات الإسلامية** » التي دمرت عمليا الوجود العربي الممزق الذي لم يتشكل بعد كشعب، ولم يتبلور لديه وعي قومي خاص به، بل صار الدين دعوة للغزو وللثروة؛ ومع نمو الرخاء الاقتصادي ونشأة الملكية،ومع نمو وتزايد البضائع الإستهلاكية كان يجب أن تختفي بساطة وصرامة الأخلاق البدوية. رجال الدين الذين عرفوا وعاشوا هذا الرخاء لم تكن لديهم القابلية والقدرة للوقوف بوجه هذا الانحلال الأخلاقي. والقضية الثانية ذات الأهمية الكبرى في تدمير الوجود العربي وتخريب الإسلام هي صراع العباسيين من أجل الوصول إلى السلطة، إذ أنهم لم يدخروا وسعا في محاربة الأمويين، وقد استعانوا بأعداء العرب الأوائل في العراق وهم الموالي، الذين نظموا انفسهم ضد « **الدولة الأموية** » تحت دعوى المطالبة بالمساواة مع العرب. وجد العباسيون ضالتهم في هذه الملة، وهي الأخرى بدورها تستطيع أن تحقق مشاريعها، لا سيما إنها ركبت على ظهر العرب العباسيين الذين ينتمون إلى عائلة النبي (ص) وقضوا بذلك على دولة العرب الأموية رغم كل الملاحظات والنقد الذي يمكن أن يوجه إليها. أما الطامة الكبرى وسبب المأساة التي نرزح تحتها اليوم فقد تسبب فيها الأتراك، حيث انهم قضوا بهمجيتهم المغولية علىٰ كل شعلة ثقافية كانت، أم دينية.

إن الوضع الحالي للبلدان الإسلامية نتيجة للأوضاع السالفة التي تسببت فيها الأمور التي ذكرناها أعلاه، وهي قضية من الصعب التغلب عليها أو حلها لأن لها جذورا دينية وتاريخية واجتماعية. إن أي محاولة تجميلية تدعو إلى توحيد هذا العالم المختلف والمتناقض فيما بينه في كل شيئ ستبوء بالفشل، ولن تنتج إلا الخراب وزيادة في تباعد هذه البلدان اكثر

عن بعض، لأنها لا تمتلك مقومات وجودية خاصة بها بل إن عليها أن تحتمي بدولة قوية تتسول عندها وقت الحاجة، وقد أدرك العالم الغربي هذه الحقيقة ويتعامل بمقتضاها مع هذا العالم، لكي يبقى ضعيفا كما هو الآن تابعا له أبدا، لأنه شخّص فيه العدو التاريخي القديم الجديد. إن هذا سيكون وضع أية أمة أو شعب غير قادر على انتاج مقومات وجوده الحياتية بنفسه في عالم اليوم، وهي الحالة التي عاشتها الشعوب، أيضاً، في الماضي؛ لقد انقرضت الكثير منها بسبب هذه الحالة لأنها لم تعد تقوى على انتاج مقومات وجودها بسبب العجز، أو الشيخوخة، أو لوجود دول كبرى تمنع عليها التفتتح والنمو والتطور. عندما تعيش نبتة إلى جوار شجرة باسقة فإن حضها من العيش الطبيعي قليل جدا، أما في حالة الأزمات فإنها المرشحة الأولى لأن تفنى، لأنها لا تقوى مثلا على مد جذورها بعيدا في التربة كما تفعل الشجرة الباسقة لكي تصل إلى المياه، ولهذا تموت من الجفاف. وليست الحالة مختلفة في العلاقة بين الشعوب والأمم، حيث أن كل واحد يحصل على حقه الذي يتناسب مع قدراته وقواه الإبداعية، ومن لا يمتلك مثل هذه القوى فإنه آيل إلى الزوال، أو العيش بذل وفقر وحرمان. إن هناك حربا قائمة على جميع الأصعدة والمستويات والميادين بين البلدان، سواء كان هذا الصراع ذا طابع اقتصادي، أو حضاري، أو ديني، أو غيره، والخاسر في مثل هذه الحالة هو الضعيف الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه. إن أكثر بلدان الأرض تخلفا واضطرابا هي البلدان الإسلامية، وهي الأقل نموا اقتصاديا، والأكثر زيادة في السكان لهذا فإنها المرشحة الأولى ومن هم على شاكلتها لتحمل وزر المشاكل، ليس مشاكلها المحلية الخاصة، لا بل المشاكل التي تنتجها الحضارة الغربية كنتيجة طبيعية للتطور العلمي والتقني وتلك التي يخطط لها الغرب بشكل واع من أجل زيادة مشاكل هذه البلدان عن طريق عدم الإستثمار فيها، ومن ثم تغذية النعرات القومية والدينية في ربوعها، لكي يتسنى له الاحتفاظ بالنفوذ والتأثير في هذه البلدان. لقد وعت هذه البلدان،

هذه الحقيقة في وقت متأخر جدا، بحيث أنها تريد أن تلحق بهذه البلدان، وان تدخل معها في العملية التاريخية، لكن المضحك في كل هذا اذا كانت البلدان الإسلامية تريد الدخول والمشاركة في هذا التاريخ، فإن الغرب بنظرياته يتكلم عن نهاياته، سواء كانت هذه النهاية تعني فناء العالم، أو أن البشرية المتطورة ستدخل بسبب التطور العلمي والتقني مرحلة جديدة تماما من التطور التاريخي، الذي يسبغ عليها الطابع العلمي التقني، بحيث لا تمتلك هذه المرحلة الجديدة تشابها مع المراحل التاريخية السابقة عليها. لا يحل التغلب على هذه الهوة بوفرة المال، أو بناء بعض المصانع وسواها من الأمور الأخرى، وإنما مردها إلى التخلف التاريخي للأقوام الإسلامية والذي لا يمكن تذليله والقضاء عليه إلا تاريخيا، بمعنى أن هذه الأمة عليها أن تبدأ بصناعة تاريخها، وستكون نقطة البداية هذا الركام التاريخي التافه والعديم القيمة للعصر الحاضر ومتطلباته، وسيكون الغرب قد قطع شوطا سيكون في ابعاده غير مرئيا لهذه البلدان، وستتسع الهوة أكثر فأكثر بشكل يومي ودائم. العلم والصناعة إنتاج روح الأمة في تاريخيتها. العلم الألماني يجسد الروح الألمانية، الروح التي نشأت وتطورت في تاريخها الخاص، وكشفت خلال هذه الحقبة من تطورها عن بعض مكنوناتها. إن العلم والتقنية كالثقافة والفن والأدب نتاج الروح، ولا تظهر الروح كاملة منذ الوهلة الأولى، بل إنها في حركتها وصيرورتها تتكشف فيها طاقاتها وقدراتها التي تطبع تاريخ الشعب بطابعها الخاص. إن تاريخ أمة هو تاريخ روحها الخاصة، وتاريخ شعب هو كشف ذاتي « لروح الشعب ». وإذا أردنا أن ندخل التاريخ علينا أن نبدأ بصناعته، أن تعطى الإمكانية لنفوسنا للكشف عما كمن فيها وندعها تتفتح؛ خلافا لذلك سوف لن يحقق القوم، أو الشعب أي نجاح وتقدم في وجوده وحياته، وسيبقى واهنا وضعيفا وعرضة للفناء والزوال كما حدث للكثير من شعوب الأرض.

# الحقيقيّ والتاريخيّ في الإسلام

الديانات المذهبيّة والتدمير الذاتيّ للإسلام والعرب








المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشوراتنا في العام ٢٠٠٠م
• الغلاف: زهير أبو شايب.